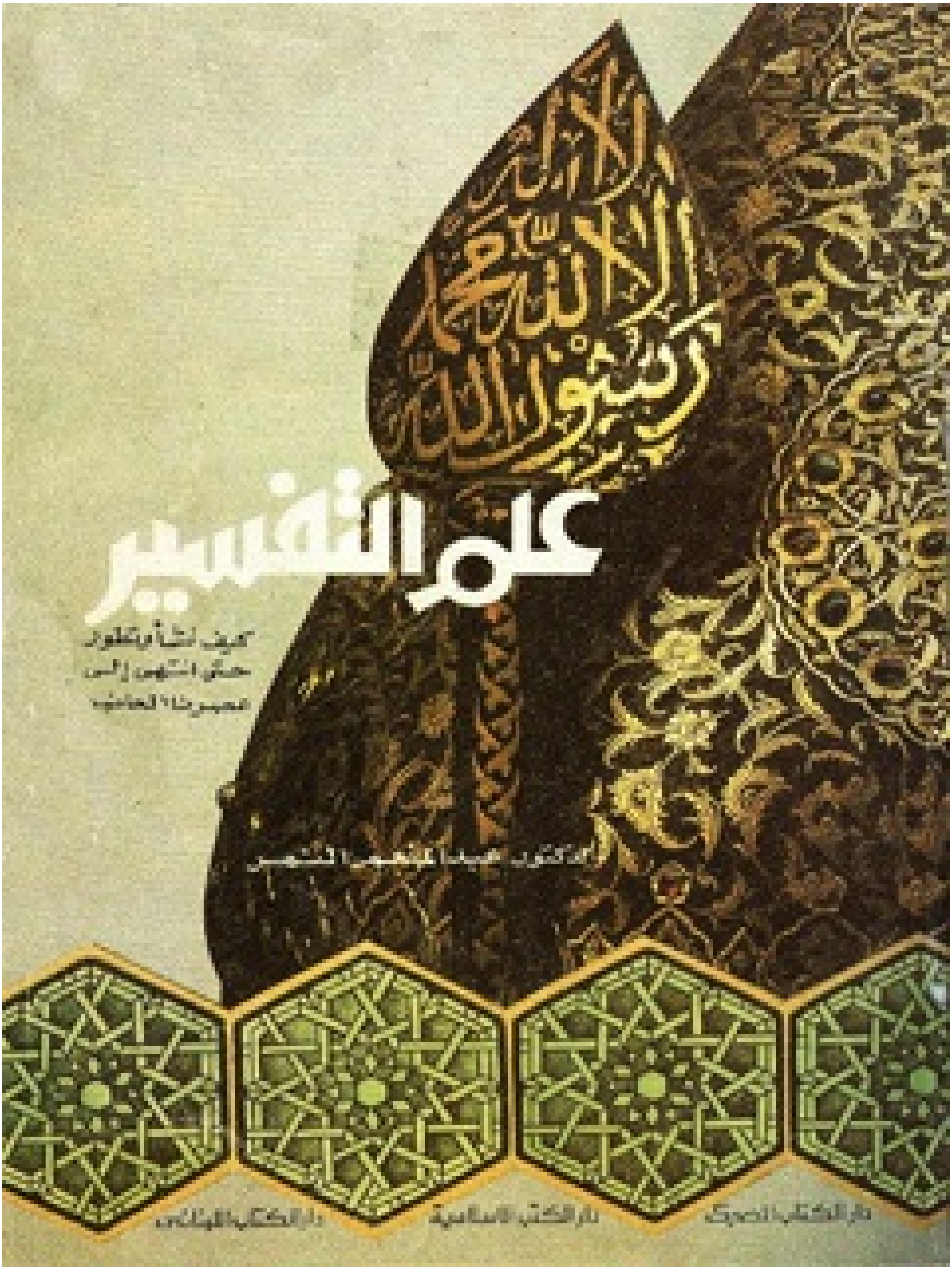


علم التفسير

كيف نشأ وتطور
حتى انتهى إلى
عصرنا الحاضر

الدكتور عبد المنعم النمر

دار الكتاب المصري
دار الكتب الإسلامية
دار الكتاب اللبناني

بسم الله الرحمن الرحیم

علم التفسير

كاتب:

عبد المنعم النمر

نشرت فی الطباعة:

دارالکتب اسلامیه

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

علم التفسير

اشارة

نام كتاب: علم التفسير

نويسنده: عبد المنعم النمر

موضوع: روشها و گرايشهاى تفسيرى

تاريخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربى

تعداد جلد: ١

ناشر: دارالكتب الاسلامية

مكان چاپ: القاهرة

سال چاپ: ١۴٠۵ / ١٩٨۵

نوبت چاپ: اوّل

سرشناسه : نمر، عبدالمنعم

Nimr, Abd al - Munim

عنوان و نام پديدآور : علم التفسير: كيف نشاء و تطور حتى انتهى الى عصرنا الحاضر/ عبدالمنعم النمر

مشخصات نشر :

قاهره : دارالكتب الاسلاميه؛ دارالكتاب المصرى:

بيروت: دارالكتاب اللبنانى ، ١٩٨۵م = ١۴٠۵ق = ١٣۶۴.

مشخصات ظاهرى : ص ١۶٨

وضعيت فهرست نويسى : فهرستنويسى قبلى

موضوع : تفسير

موضوع : تفسير -- تاريخ

رده بندى كنگره : BP٩١/ن٨ع٨ ١٣۶۴

شماره كتابشناسى ملى : م٨٠-٣٣٨۶٢

[بين يدى الكتاب]

بسم اللّه الرحمن الرحيم

و الحمد لله الذى نزل الكتاب و هو يتولى الصالحين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد رسول اللّه الذى أنزل عليه القرآن هدى و شفاء لما فى الصدور و على آله و أصحابه و التابعين الذين أدوا رسالتهم فى حفظ كتابهم و الحفاظ على تعاليمه و بعد. فالعلوم كأى كائن حى يبدأ صغيرا ثم ينمو و يتزايد، و منذ نزل القرآن قامت على شواطئه علوم تخدمه و توضحه، و تبين تعاليمه و مبادئه. و كان من الطبيعى أن تشرئب النفوس لمعرفة معانى القرآن الكريم، منذ نزل على رسول الله .. يعرف العرب بسليقتهم ما يعرفون و يسألون الرسول عما أغلق عليهم فهمه و يحتاجون لتوضيحه. و حين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية من أول عهد الخلفاء الراشدين و دخل غير

العرب فی الإسلام، کانوا أشد احتیاجا إلی معرفة معانی القرآن ..

و إذا کانت الحاجة أم الاختراع کما یقال. فقد کانت حاجة المسلمین و لا سیما الداخلین الجدد فی الإسلام إلی معرفة معانی القرآن سببا فی الکلام عن تفسیره کما کانت الثقافات التی اختلطت بثقافة المسلمین الأصیلة سببا فی احتکاکات العقول، و تعدد مشاربها من القرآن ..

و کان العلماء المسلمون فی کل زمن یلبون حاجة المسلمین إلی فهم کتابهم سواء بالتدریس أو بالتألیف و التدوین حین بدأ عهد التدوین ..

کیف نشأ علم التفسیر، و کیف تطور، و ما ذا کان یحکم المفسرین حین یعمدون إلی التفسیر أو ما هی مذاهبهم و مناحیهم فی التفسیر .. و إلی أی مدی یمکن أن یخدم العلم و المکتشفات العلمیة الحدیثة علم التفسیر .. و هل قام المسلمون بتوصیل معانی القرآن إلی غیر العرب و إلی أی مدی کان جهدهم فی هذه الناحیة؟

علم التفسیر، ص: ۶

ذلک ما أحببت أن أقدمه لک فی هذه الصفحات دون تطویل یصرفک عن الکتاب و الله المستعان

۴۰ صالح حقی. مصر الجدیدة. الدکتور عبد المنعم النمر

علم التفسیر، ص: ۷

تمهید:

الإسلام و العلوم

ما دمنا سنتکلم عن بعض علوم الدین عند المسلمین، فإن هذا یقتضینا أن نقدم بکلمة موجزة عن نظرة الإسلام إلی العلم بکل أنواعه و موضوعاته، لا سیما بعد أن ألقی علی موقف الإسلام من العلم شیء من الظلال، و لا سیما فی العصور المتأخرة، و عند بعض الغربیین. متأثرین بفکرتهم عن المسیحیة و موقفها العدائی- فی بعض العصور- من العلوم.

فالعلم فی نظر الإسلام: هو کل ما یمکن و یطلب أن یعرف و یعلم، مهما یکن موضوع هذه المعرفة، و مهما تکن وسائلها، و إن کان فی مقدمة هذه الموضوعات ما یعرفه بربه- عقیدة و نظاما- و یقربه إلیه .. باعتبار أن ذلک هو مفتاح الحیاة الحقیقیة الهادفة للإنسان، و مفتاح الانطلاق فی کل جانب من جوانبها علی هدی و بصیرة.

فحین مدح الله العلماء و رفع درجاتهم لم یخصص العلماء بعلوم الدین، بل أطلق و عمم فقال: یَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ «۱». و حین قارن بین العلماء و الجهال أطلق و عمم کذلک .. فقال:

هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ «۲» و حین حدد الذین یخشونه و یعرفونه قال: إِنَّما یَخْشَی اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ «۳» و قد جاء هذا عقب آیات تلفت الأنظار إلی التأمل و التدبر فیما خلقه الله من ماء و ثمرات و دواب و جبال و إنسان الخ .. لیصل المتأمل إلی الإیمان بالله و عظمته مما یمیل بمفهوم العلماء هنا إلی العلماء الباحثین المتدبرین فی هذه المخلوقات مما یطلق علیه الآن علوم الفضاء و الجو، و علم النبات، و الحیوان، و الجیولوجیا .. الخ .. لأن هؤلاء أکثر اطلاعا علی أسرار الکون و عظمة صنع الخالق ..

---

(۱) سورة المجادلة/ ۱۱.

(۲) الزمر/ ۹.

(۳) فاطر/ ۲۸.

علم التفسیر، ص: ۸

و قد کثرت فی القرآن الآیات التی تعرض مظاهر الکون و یأتی فی آخرها حث أصحاب العقول علی التدبر فیها لیصلوا إلی ما وراءها و یبدأ التدبر من نظرة سطحیة ینظرها الإنسان العادی فیجد عظمة الله فی کل شیء، إلی النظرة المتعمقة القائمة علی العلم و لو ببعض التفاصیل و السنن فی هذه المخلوقات. و هذا یفتح الباب للمؤمن لکی یتعلم و ینظر و یتدبر و یتعمق لتأتی نظرته فیها عمق، و فیها اعتبار أکثر .. مما جعل علماء الإسلام یقولون، إن هذا یفرض علی المسلمین تعلم العلوم التی تتیح لهم الوصول إلی دقائق صنع الله فیما خلقه .. من أجل غایة علیا هی تعمیق الإیمان فی القلوب، و هذا بالتالی یبعد هذه العلوم عن أن تکون وسیلة للشر و الإیذاء، مما یحصل مثله الآن و لا سیما أثناء الحروب ..

و إذا انتقلنا بعد ذلک إلی أحادیث رسول الله و هی الموضحة و المفسرة للقرآن و أغراضه، نجد الأحادیث تحض المسلمین علی التعلیم و تبین فضل العلماء، و لا تقید العلم بفرع دون آخر.

«فالحکمة ضالة المؤمن فحیث وجدها فهو أحق بها» رواه الترمذی ..

و الحکمة تعنی هنا کل علم نافع.

«اطلبوا العلم و لو فی الصین» و قد روی من طرق یقوی بعضها بعضا ..

«إن الملائکة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما یصنع» رواه أبو داود و الترمذی

«من سلک طریقا یبتغی به علما سهل الله به طریقا إلی الجنة» رواه أبو داود و الترمذی

«من خرج فی طلب العلم فهو فی سبیل الله حتی یرجع» رواه مسلم و الترمذی

«الدنیا ملعونة ملعون ما فیها إلا ذکر الله و ما والاه و عالما و متعلما» رواه الترمذی

«فضل العالم علی العابد کفضل القمر علی سائر الکواکب» و فی روایة کفضلی علی أدناکم .. رواه الترمذی

«طلب العلم فریضة علی کل مسلم» «البیهقی و غیره»

علم التفسیر، ص: ۹

ففی هذه الأحادیث و غیرها کثیر لم یحدد العلم بعلم خاص، فهو مطلق العلم فی أی فرع من الفروع، مراعیا فی تعلمه تقوی الله، و نفع النفس و العباد.

و قد جعل الرسول صلی الله علیه و سلم من وسائل فداء أسری بدر، أن یعلموا المسلمین القراءة و الکتابة.

و أمر صلی الله علیه و سلم زید بن ثابت رضی الله عنه، أن یتعلم لغة الیهود- بعد ما حدث منهم، و لم یعد یأمن جانبهم، و هذا الفهم العام الواسع لمعنی العلم هو الذی کان سائدا فی تلک الأیام، و لم یکن محددا کما هو الحال عندنا عند ما قسمنا المواد إلی علوم، و ریاضة، و آداب، و فن. و. و .. الخ .. و القرآن یقول: «و فوق کل ذی علم علیم» و یقول علی لسان قارون: «إنما أوتیته علی علم عندی» و یقول: «و لقد آتینا داود و سلیمان علما» .. و کل هذا علم عام.

و فی علوم الدین خاصة، وردت الآیة الکریمة

فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ کُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِیَتَفَقَّهُوا فِی الدِّینِ وَ لِیُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ ۱۲۲ «۱»

لیسد هؤلاء المتعلمون المتفقهون حاجة المسلمین إلی معرفة أمور دینهم.

و من هذه الآیة أیضا یمکن الانطلاق إلی العلم و إلی التخصص فی کل فرع تحتاج إلیه الأمة فی أمور حیاتها.

و هکذا یدفع الإسلام المسلمین دفعا إلی طلب العلم و التبحّر فیه، دون أن یحدد نوع أو فرع هذا العلم، فالحکمة و المعرفة ضالة المؤمن أنی وجدها فهو أحق بها ..

---

(۱) التوبة/ ۱۲۲.

علم التفسیر، ص: ۱۰

نهضة المسلمین العلمیة

و علی هذا الأساس من الفهم المستقیم لمعنی العلم، انطلق المسلمون إلی العبّ من المعرفة، بشتی ألوانها و موضوعاتها دون أی تحرج من تعلم أی علم، حتی و لو کان شرا أو فیه شر .. و منطقهم فی هذا کما یقول أحدهم:

و أعرف الشر لا للشرو لکن لتوقیه

فمن لا- یعرف الشرمن الخیر یقع فیه و کان من الطبیعی أن یبدءوا بمعرفة ما یتصل بدینهم من فهم القرآن، و أحکام العبادات، و المعاملات التی جاء بها الإسلام، من واقع إخلاصهم لدینهم. و حرصهم علی تطبیقه فی حیاتهم .. ثم انطلقوا بعد ذلک و معه إلی کل علم، و کل فن لم یقفوا عند حد فیه و لم یتحرجوا من العبّ منه .. علی اعتبار أن ذلک مما یأمرهم به دینهم أو علی الأقل مما یرضی عنه .. حتی کنا نجد العالم منهم بجوار إحاطته بعلوم التفسیر و الحدیث و الفقه، و علم الکلام متبحرا فی الطب، و فی الفلسفة، و فی الموسیقی .. و فی اللغة، و الأدب، و نذکر نموذجا لهذا النوع من العلماء. الإمام فخر الدین محمد عمر بن الخطیب الرازی المولود فی سنة ۴۵۳ ه و المتوفی سنة ۶۰۶ ه، فقد صدرت عنه کتب فی: التفسیر، و علم الکلام، و الأصول و الفقه، و النحو و الأدب، و الفلسفة، و الطب و الهندسة، و الفلک، بجوار معارفه التی لم یصدر فیها کتب، و یعتبر تفسیره موسوعة عامة فی مختلف العلوم مع التفسیر.

فکان العالم بالطب أو الهندسة، أو الفلک أو بها جمیعها عالما أیضا فی شئون الدین، و اللغة و الأدب، مما یشبه أن یکون عالما موسوعیا یجمع بین أطراف العلوم المختلفة فی موضوعاتها .. لم یروا بحکم دینهم و تدینهم أن هناک شیئا یحد من تعلمهم و من تبحرهم فی علوم أخری بجوار العلوم المتصلة بالتفسیر و الحدیث و اللغة .. کلها علوم یدعوهم دینهم إلی معرفتها.

و لذلک وجدنا فطاحل من علماء المسلمین، فی کل فرع من فروع العلم ..

علم التفسیر، ص: ۱۱

و یذکر «روم لاندو» فی کتابه «الإسلام و الغرب» «۱» تحلیلا لذلک بعد أن یدرکه و یعجب به، و یری أن الدافع إلیه عند المسلمین:

رغبة متقدة فی اکتساب فهم أعمق للعالم کما خلقه الله.

قبول للعالم المادی لا بوصفه دون العالم الروحی شأنا و مقاما، و لکن بوصفه صنوا له فی الصحة و السوخ.

واقعیة قویة تعکس فی صدق و إخلاص طبیعة العقل العربی اللاعاطفی.

فضولهم الفهم الذی لا یعرف الشبع فی المعرفة.

و أخیرا و أولا أن الدین و العلم فی نظر الإسلام لم یول کل منهما ظهره للآخر، و یتخذ طریقا معاکسا، بل کان الأول عندهم باعثا من البواعث الرئیسیة للثانی.

اعتقادهم بأن کل ما فی الوجود صادر عن الله، و کاشف عن قدرته، و لذا فهو جدیر بالمعرفة و التأمل: من وجد الصوفی إلی قرصة البعوضة، إلی انطلاق السهم، إلی مرض الطاعون. إلی غیر ذلک من المظاهر، کله من الله، فیجب أن یدرس و یعرف حق المعرفة.

و قد روی أن عمر بن الحسام کان یقرأ یوما کتاب «المجسطی» فی الریاضیات السماویة «الفلک» لبطلیموس علی أستاذه الأبهری، فدخل علیهما بعض الفقهاء، فقال لهما: ما الذی تقرءانه؟ فقال الأبهری: «أفسر آیة من القرآن الکریم و هی قوله تعالی:

أَ فَلَمْ یَنْظُرُوا إِلَی السَّماءِ فَوْقَهُمْ کَیْفَ بَنَیْناها وَ زَیَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ «۲»

فأنا أفسر کیفیة بنائها.

فهکذا کان الربط عندهم بین العلوم المختلفة و القرآن الکریم .. فکلها نابع منه، و خادم له.

(۱) ص ۲۴۶.

(۲) سورة ق/ ۶.

علم التفسير، ص: ۱۲

و لذلك يعلق الإمام فخر الدين الرازى على هذه الرواية، فيقول بعد أن أوردها: «و لقد صدق الأبهرى فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلا فى بحار مخلوقات الله كان أكثر علما بجلال الله و عظمته»

و الله الذى يحب المؤمنين الأقوياء كما يعلمنا رسول الله، كيف يكونون كذلك إذا لم يتعلموا كل ما يوفر لهم هذه القوة؟

و الله الذى أمرهم أن يعدوا لأعدائهم ما يستطيعون من القوة لكى يسكتوهم و يرهبوهم عن التعرض لهم ..

و الله الذى جعل العزة له و لرسوله و للمؤمنين.

كيف يمكن أن يكون ذلك كله واقعا كما يحب الله و يرضى دون أن يكون المسلمون على أكبر قدر من العلوم المختلفة التى يحتاجونها فى صلاتهم بربهم، و فى صلاتهم مع الناس، و فى سيطرتهم على الطبيعة، و تسخيرهم لها؟

كيف يكونون ملبين أمر ربهم «و أعدوا لهم» إذا لم يكونوا أسبق الناس جميعا فى معرفة أسرار الكون، و فى صنع القنابل و الصواريخ .. و غير ذلك من أحدث وسائل القوة، و إذا لم يكونوا المبرزين فى علوم الفضاء و البحار، و الزراعة و فى الصناعة و الصحة، و فى كل ما يوفر للإنسان القوة و الصحة فى كل جانب؟ و المؤمن القوى خير و أحب الى الله من المؤمن الضعيف.

و من هنا سار الدين مع العلم فى طريق واحد .. و كان الدين هو القاطرة التى تجر مقطورات العلم، و خزائنه المتنوعة. و كلها تكون قطارا واحدا، أو قافلة واحدة فى الحياة تسير باسم الله.

و قد أنتج هذا نهضة علمية و حضارية أضاءت الدنيا، و مهدت الطريق للنهضة الأوروبية الحديثة .. و حمل هذه النهضة، أو أضاء شمعتها، رجال مؤمنون بربهم، على مختلف مستوياتهم، و اتجاهاتهم .. لا يزال الكثير منهم درة فى تاج الإنسانية.

نذكر منهم على سبيل المثال: عالمنا «أبا الريحان البيرونى» ۳۶۲ ه- ۹۷۳ م و توفى سنة ۴۴۰ ه- ۱۰۴۸ م .. و نبوغه فى عدة علوم كان من أهمها الفلك

علم التفسير، ص: ۱۳

و الرياضة، يقول عنه المستشرق الألمانى الذى نشر كتبه: إن البيرونى هو أعظم عقلية ظهرت فى التاريخ، لا فى الشرق وحده، و لا فى الغرب وحده، و لا فى القديم وحده، و لا فى العصور المتوسطة و لا العصور الحديثة، إنه أكبر عقلية ظهرت فى التاريخ.

هذا العالم الفذ الذى سبق الأفكار كلها فى عالم الرياضة و الفلك، كان من كبار العلماء المشتغلين بعلوم الدين أيضا، حتى ليروى أحد أصدقائه أنه ذهب ليزوره، و هو على فراش الموت و فى النزع الأخير، فحين رآه قال له: لقد كنا نتحدث فى يوم من الأيام عن الجدات الفاسدات (اصطلاح فقهى للجدود من ناحية الأم)، فإلام انتهينا من أمرها؟

فقال له صاحبه: أ فى هذه الحالة، و هذه الظروف تسأل عن الجدات الفاسدات؟

فقال له البيرونى لأن ألقى الله و أنا من العالمين بها، خير من أن ألقاه و أنابها من الجاهلين»

و تحدثا سويا فى الموضوع ثم خرج الزائر الصديق، و لم يبعد إلا قليلا عن البيت، حتى سمع الصراخ لموت البيرونى.

هذه الواقعة التى كانت آخر تحرك علمى فى حياته، ترينا لما ذا كان أعظم عقلية، و أعظم عالم فى التاريخ .. ثم ترينا الحافز الدينى الذى كان يدفعه و يدفع أمثاله إلى العبّ من العلم بكل أنواعه .. فكان مع نبوغه فى الفلك و الرياضيات و غيرها، متبحرا كذلك فى العلوم المتصلة بدينه و أحكامه، لأنه لم يكن هناك أى حاجز بينها، بل كان بعضها يغذى بعضا و يقويه ..

و كان «الكندى» أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ۱۸۵ ه ۸۰۱ م المتوفى سنة ۲۵۱ ه- ۸۶۵ م، الفيلسوف العربى المولود بالكوفة، كان

ملما بعلوم الـدین، بجوار اشـتهاره بالفلسـفة و الریاضـیات و الطبیعیات و الفلک، و الطب و الجغرافیا، و الموسـیقی و کان لحبه لدینه و غرامه بالفلسفة معنیا بالتوفیق بینهما.

یقول عنه الغربیون الذین درسوا کتبه: «إنه أحد ثمانیة هم علی وجه الإطلاق النابغون فی العالم».

علم التفسیر، ص: ۱۴

کان مع دراسـته و إحاطته بعلوم الدین، أحد ثمانیة من النابغین فی العالم فی الریاضة، و کان طبیبا ناجحا و موسـیقیا یعلم الموسـیقی و یعزف، و یتخذها إحدی وسائل العلاج، مما وصل إلیه العلم أخیرا.

و ابن الهیثم (أبو علی الحسن، ولد بالبصرة سنة ۳۵۵ ه ۹۶۵ م و رحل إلی مصر و أقام بها و توفی سنة ۴۳۱ ه- ۱۰۳۹ م فی عهد الدولة الفاطمیـة) کان نموذجا بل من أعلی النماذج فی النبوغ فی العلم بشتی فروعه، و إن کان قد اشـتهر عنه نبوغه فی «علم البصـریات» و له نظریات و طرق فی البحث التجریبی سبق به کل علماء أوربا، و کان أستاذهم الذی عنه أخذوا، و بفضله علیهم اعترفوا ..

و ابن سـینا (أبو علی الحسـین بن عبد الله بن سینا، المولود قرب بخاری سنة ۳۷۰ ه ۹۸۰ م- و المتوفی سنة ۴۲۸ ه ۱۰۳۶) درس العلوم الشـرعیة و العقلیـة، حتی أصـبح حجـة فی الطب و الریاضة و الفلسـفة و الموسـیقی بجانب تبحره فی العلوم الدینیة، و محاولاته التوفیق بینها و بین الفلسفة.

تلـک بعض النماذج للعلماء الـذین جمعوا بین علوم الـدین، و العلوم الأخری التی نبغوا فیها، و هناک مئات و آلاف من أمثالهم، نبغوا فی ظل الإسلام ..

و جمعوا بین علوم الدین و اللغة، و بین العلوم الأخری التی نسـمیها الآن علوما حدیثة، و کل ذلک فی ظل الإسلام و بتوجیه منه، حتی لیقول العالم الفرنسـی «سـیدیو»: لقد کان المسـلمون منفردین بالعلم فی تلک القرون المظلمة، فانتشـر فی کل مکان وطئته أقدامهم، و کانوا هم السبب فی خروج أوربا من الظلمات إلی النور.

و یقول «بریفو» فی کتابه «تکوین الانسانیـة»: العلم هو أجل خدمـة أسـدتها الحضارة العربیـة إلی العالم الحدیث، فالعلم الأوربی مدین بوجوده للعرب.

و یتحدث السید جمال الدین الأفغانی فی کتاب «خاطرات جمال الدین» للمخزومی، عما سبق إلیه العرب و نبغوا فیه، فیذکر الکثیر من اکتشافات العلمـاء الإسـلامیین. کالجاذبیـة و المرکز، و لـم یکن المکتشـف لهمـا «إسـحاق نیـوتن» و کـذلک التحلیـل و التـرکیب، و الفوسفور، و استحضاره، و استحضار

علم التفسیر، ص: ۱۵

الأوکسـجین، و الإیـدروجین، و الآـزوت، و حـامض الکبریت و الکبریت و غیرهمـا و قـال: کـل ذلـک من مکتشـفات العرب، و کان الأساتذة فی علم الکیمیاء للجیل الثالث الهجری هم: أحمد بن سـلمة المجریطی، و تلمیذه ابن بشرون، و أبو السمح، و قد تقدمهم مثل جابر بن حیان الحرانی، و من بعدهم زکریا أبو بکر الرازی و غیرهم.

و قالوا إن «بیکون» هو أول من جعل التجربـة و المشاهـدة قاعـدة العلم العصـریة، و أقامها مقام الروایـة ... و ذلک حق فی أوربا، و أما عند العرب فقد وضـعوا هذه القاعدة لبناء العلم علیها فی أواخر القرن الثانی الهجری .. و منها أخذ «بیکون» و یذکر «جوسـتاف لوبون» أن القاعدة عند العرب کانت «جرب و شاهد و لاحظ تکن عارفا» و عند الأوربی إلی ما بعد القرن العاشـر المسیحی: «اقرأ فی الکتب و کرر ما یقول الأساتذة تکن عالما»

«و أمـا فی الکیمیـاء فلاـ یمکنـک أن تعـد مجربا واحـدا عنـد الیونانیین، و لکنک تعـد من المجربین مئین عنـد العرب، و لهـذا عـدت الکیمیاء الحقیقیة من اکتشاف العرب دون سواهم».

و یقول الفیلسوف «درابر» الأمریکی: تأخذنا الدهشة احیانا عند ما ننظر فی کتب العرب فنجد آراء کنا نعتقد أنها لم تولد إلا فی زماننا.

و يقول الرئيس السابق للولايات المتحدة «أيزنهاور» فى خطاب له:

«إننى عنـد ما أتطلع إلى المسـتقبل أرى ظهور دول عربية حديثة سوف تقدم إلى القرن الحاضـر مساهمات تفوق تلك التى لا نسـتطيع أن ننساها، إننا نذكر أن علوم الحساب و الجبر فى الغرب مدينة كثيرا للرياضيين العرب، كما أن الكثير من أسس علم الطب فى العالم، و كذلك علم الفلك قد وضعه العرب». «١»

ذكرت هـذا مختصـرا قدر الإمكان، لنزيل من الأذهان ما علق بها أخيرا فى عصور الضـعف من أن الإسـلام يفرق بين العلوم، فيحتضـن بعضها، و يحث على تعلمه، و يكره بعضها، و يكره أن يتعلمه المسلمون، و هو ما عرف فى عصور

---

(١) نشرة الاستعلامات فى ١٠/ ٢/ ١٩۵٩.

علم التفسير، ص: ١۶

الضـعف بـالعلوم الحديثـة، و ليعلم المسـلم و غيره من نصوص القرآن و السـنة، و من واقع المسـلمين إبان العصور الأولى، أن الإسـلام يحتضن العلم على مختلف موضوعاته، و أن الواجب على المجتمع المسـلم، أن يوفر لنفسه العلماء و الصـناع و الزراع و غيرهم فى كل ناحية من نواحى الحياة .. فإذا خلا المجتمع من علماء أو متخصصـين فى ناحية من النواحى، وجب وجوبا شرعيا عينيا مؤكدا على ولى الأمر، العمل على توفير هـذا التخصـص للأمـة، حتى لا تحتاج لغيرها، و تكون عالـة عليه فى حياتها. يسـتوى فى ذلك كل علم، و كل حرفـة و مهنـة، و إن كان من الضـرورى- عقلا و شـرعا- أن تكون هناك أولويـة بين هـذه العلوم حسب حاجـة الأمـة إليها، سواء فيما يتصل بعلاقتها مع ربها أو بعلاقتها مع الناس و تشكيل حياتها.

و لما كان الإسـلام يضع قاعـدة أولى للانطلاق إلى العمل فى الحياة و هى قاعدة الإيمان، و يبنى على هذه القاعدة تنظيم حياة الإنسان التنظيم الدقيق الإيجابى، كان من المهم أولا العناية بكيفية بناء هذه القاعدة و ما يتفرع عنها من نظم لضبط حياة الإنسان و استقامتها.

و من هنا كانت علوم الدين فى مقدمة العلوم التى يجب على الإنسان تحصـيلها، و كان من الضرورى أن يوجد العلماء أو المعلمون، و المتخصصون الذين يتولون الإشراف و التوجيه لبناء هذه القاعدة و صيانتها.

و من أجل هذا كانت عناية القرآن الخاصة بهذه المهمة، و كان النص عليها بذاتها، مع ما جاء من حث عام على العلم، و مدح للعلماء، و رفع لدرجاتهم.

. الخ ..

كان هذا التخصيص دليل عناية خاصة ببناء القاعدة الأساسية، فى حياة الفرد المسلم، و فى حياة الجماعة.

و ذلك فى قوله تعالى «فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ، وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» «١».

---

(١) التوبة/ ١٢٢.

علم التفسير، ص: ١٧

ذلك لأن لكل أمة قاعدة تنطلق منها إلى نهضتها، و إلى إثبات وجودها و قيمتها فى الحياة

و المسـلمون لم يبدءوا حياتهم، و لم يخطوا الخطوة الأولى فى وجودهم، استجابة لفلسفة يضعها بشر، و إنما بدءوا حياتهم على أساس الإيمان بـدين منزل من عند الله، و توجيه رسول أرسـله الله، و على هدى قرآن أنزله الله على رسوله .. و اسـتمدوا من ذلك وجودهم و كيانهم و شخصيتهم، و بنوا عليه كل تحركاتهم و سكناتهم، و شكلوا على هديه كل مظاهر حياتهم ..

فمن الضـرورى و الحالـة هذه أن تكون عنايتهم الأولى مركزة على فهم دينهم، و فهم القرآن الذى يمثل العمود الفقرى فى حياتهم، و فهم ما يتصل بالعقيدة و سلامتها، و ما يتصل بالأحكام فى العبادة و المعاملات، حتى تأتى أعمالهم طبقا لما يطلبه منهم دينهم ..

و قد برزت هذه الناحیهٔ فی حیاهٔ المسلمین بصورهٔ طبیعیهٔ، سواء من جانب رسول الله صلی الله علیه و سلم، أو من جانبهم، فکانت عنایهٔ الرسول بتبلیغهم ما أنزل علیه من القرآن أولاـ بأول، و تطبیقه علی نفسه، و علی من حوله من أصحابه، و شرح ما یحتاجون إلیه من شرح و بیان .. و کانت عنایتهم کذلک بتلقی ما نزل من القرآن، و حفظه ما أمکن، و الحرص علی ملازمهٔ الرسول، و فهم توجیهاته، حتی کانوا یتناوبون حضور دروسه، و مصاحبته، و الحاضر منهم فی نوبته یبلغ الغائب ما سمعه و عرفه .. حتی لا یفوت الواحد منهم شیء نزل من القرآن، أو قاله الرسول .. مدفوعین إلی ذلک بقوهٔ إیمانهم بالله و رسوله، و حرصهم علی أن تکون حیاتهم صورهٔ حیهٔ لما جاء به نبیهم و رسولهم، و طبقا لتعالیم دینهم ..

کان دینهم هو کل شیء هو زادهم فی حیاتهم، و هو رفیقهم حین یلقون ربهم .. و کان القرآن- کما قلنا- یمثل العمود الفقری لحیاهٔ المسلمین، فمن الطبیعی- و الحالهٔ هذه- ألا یغیب عنهم منه شیء، و کانوا یفهمون القرآن و توجیهاته بسلیقتهم العربیهٔ، فإذا أشکل علیهم منه أمر استوضحوه من رسول الله، أو سأل بعضهم من یظن أنه عارف به ..

علم التفسیر، ص: ١٨

و قد جاء القرآن مغطیا لکل جوانب الحیاهٔ تفصیلا أو إجمالا، و زاده الرسول توضیحا و بیانا و تفصیلا، استجابهٔ لأمر الله و توجیهه وَ أَنْزَلْنا إِلَیکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ ۴۴ «۱»

فلم یکن عجیبا، أن یرکزوا کل حیاتهم، و یوجهوا کل اهتمامهم إلی القرآن یلتمسون منه الرشد و الهدی.

و کان أسلوب القرآن مع ذلک أسلوبا عربیا جدیدا جاذبا أخاذا لم یسمع العرب الفصحاء مثله من قبل، و لم یتمالک أعتی المشرکین من أن یصفه برغم معارضته له بقوله «إن له لحلاوهٔ، و إن علیه لطلاوهٔ» کما لم یتمالک عمر بن الخطاب و هو فی ثورته ضد الرسول، و ضد من اتبعه، من أن یلقی سلاحه، و یسلم حین سمع آیات منه من سورهٔ «طه».

و کان العرب فی ذلک الوقت علی أعلی درجهٔ من الفصاحهٔ، فلم یکن من الصعب علیهم، أن یفهموا القرآن، و یتذوقوا حلاوته .. و إن کانوا متفاوتین بالطبع فی مدی الفهم و الإدراک .. و واقفین ضرورهٔ عند بعض ألفاظ و معلومات جدیدهٔ علیهم یحتاجون إلی تفسیرها و تجلیهٔ المراد منها.

و فی هذه الأرض الطیبهٔ، و فی هذا المناخ، وضعت البذور الأولی لما کان یمکن أن نسمیه: بعلوم الدین. من تفسیر و حدیث و أحکام و عقیدهٔ ..

کانت کلها شیئا واحدا یرسم طریق المسلم علی هدی القرآن و تعلیمه .. یتصل بعضه ببعض، و یغذی بعضه بعضا .. و کانت حیاهٔ الرسول صلی الله علیه و سلم و أقواله، أوضح بیان و تفسیر للقرآن الکریم .. و صورهٔ عملیهٔ لما یطلبه الله من المؤمنین .. فحین سئلت السیدهٔ عائشهٔ رضی الله عنها عن خلق رسول الله، قالت: کان خلقه القرآن ..

و من أجل هذا یکون کلامنا عن تفسیر القرآن أولا هو الوضع الطبیعی الواقعی.

---

(١) النحل / ۴۴.

علم التفسیر، ص: ١٩

علم التفسیر

اشارهٔ

نشأهٔ العلم کنشأهٔ کل کائن حی نام .. یبدأ بذرهٔ صغیرهٔ تتطور لتصبح جنینا أو نبتا، ثم تنمو شیئا فشیئا لتکون فی نهایهٔ أمرها إنسانا، أو

شجرة، أو نبتا مثمرا يعطى ثمره، أو يمنح ظله و الفائدة منه ..

فحين نتكلم عن علم التفسير أو غيره من العلوم التى سنتحدث عنها، فإننا نتكلم عنه من خلال هذا التدرج الطبيعى .. و نلقى الضوء عليه منذ تبدأ بذوره الأولى .. فما أى شىء ولد كاملا، و لا وجد عملاقا .. و لكنها سنة الله فى الحياة، كل حياة «و لن تجد لسنة الله تبديلا».

استطراد لا بدّ منه:

و قبل أن نكشف عن البذور الأولى فى علم تفسير القرآن أحب أن ألقى ضوءا سريعا أمام القارئ حول القرآن و نزوله و كتابته و جمعه.

١- بدأ نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه و سلم و هو فى سن الأربعين، و ذلك بقوله تعالى «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ .. الآيات» من سورة العلق.

٢- ثم توالى نزول القرآن بعد ذلك عليه فى مناسبات متفرقة، و لدواع متنوعة، حتى توفى صلى الله عليه و سلم و هو فى سن الثالثة و الستين فكان منه ما نزل عليه فى مكة و هو أكثره، و منه ما نزل عليه بالمدينة .. و كانت آخر آية نزلت بعد رجوع الرسول من حجة الوداع هى آيات الربا المذكورة فى أواخر سورة البقرة «١»، بينما كانت آية «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»- المشهور عند الكثيرين- خطأ- أنها- آخر ما نزل- قد نزلت قبل ذلك فى عرفات و الرسول يحج حجته الأخيرة- حجة الوداع- باتفاق.

٣- كان جبريل عليه السلام ينزل على الرسول بالسورة أو الآيات أو الآية، فيسارع الرسول فى حفظها كما يتلقاها .. ثم يمليها على كتاب وحيه فيكتبونها ..

---

(١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا .. الآيات.

علم التفسير، ص: ٢٠

و يسمعها لمن يلقاه أو يحضر إليه من اصحابه، فيحفظونها، و هؤلاء بدورهم يتلقى عنهم من لم يسمعها من الرسول فيحفظها، و كان مما يسهّل عليهم الحفظ، أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة .. كما يقول الله:

وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ، عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا «١»

٤- و كان جبريل عليه السلام ينزل على الرسول فى رمضان من كل سنة فيراجع معه ما سبق نزوله، حتى كان آخر رمضان من حياة الرسول فقرأ على الرسول و قرأ عليه الرسول كل ما أنزل خلال السنين التى نزل فيها القرآن، يقرءانه مرتبا حسب الموجود فى المصحف الآن ..

٥- لم يتيسر لكل الصحابة أن يحفظوا القرآن كله، بل تيسر لعدد قليل منهم، و الباقون حفظ كل منهم ما تيسر له، و لكنهم جميعا كانوا حريصين على العمل بالقرآن أولا بأول.

٦- نزل القرآن أولا فى مكة و مدة فى المدينة بلهجة قريش وحدها و كانت للقبائل لهجات عربية تختلف فى بعض النطق و الكلمات عنها فى قبيلة أو قبائل أخرى .. فلما دخلت القبائل العربية بكثرة فى الاسلام بالمدينة، احتاج الأمر إلى التسهيل عليها فى القراءة بلهجتهم فى بعض الكلمات، بناء على رجاء توجه به الرسول لمولاه، تخفيفا عن أمّته. كما جاء فى الحديث الصحيح المشهور فى هذا الموضوع .. «انزل القرآن على سبعة أحرف»

٧- توفى الرسول صلى الله عليه و سلم و القرآن محفوظ فى الصدور كله لدى بعض الصحابة، و متناثر عند الكثيرين. كما أنه كان مكتوبا محتفظا به ..

۸- فی عهد أبی بکر رضی الله عنه و بمشورة عمر رضی الله عنه، کانت مراجعة المکتوب علی المحفوظ مع ترتیبه حسبما نزل و احتفظ به عند أبی بکر الخلیفة، ثم عند حفصة زوج الرسول و بنت عمر رضی الله عنهم جمیعا بعد وفاة أبی بکر.

---

(۱) سورة الأسراء/ ۱۰۶.

علم التفسیر، ص: ۲۱

۹- و فی عهد عثمان رضی الله عنه، ظهرت الحاجة الماسة إلی کتابة مصحف یکون مرجعا و إماما لجمیع المصاحف و للقراء، و کان أساس الجمع لهجة قریش، و إهمال ما عداها من اللهجات العربیة الغریبة التی لم تنتشر، حتی لا یستفحل الخلاف بین قارئی القرآن، مما یتسبب عنه تفریق وحدة المسلمین، فعمل رضی الله عنه علی کتابة مصحف یجمع علیه المسلمین.

۱۰- أرسل لکل قطر من الأقطار نسخة من هذا المصحف الإمام الذی سمی بمصحف عثمان لیکون هو المرجع الوحید فی قراءة القرآن و حفظه، و لیحرق ما عداه مما یخالفه، مما کان یضم بعض اللهجات التی أهملها المصحف الإمام و أجمع الصحابة علی استحسان هذه الخطوة توحیدا لکلمة المسلمین حول کتاب الله».

۱۱- و منذ هذا الیوم و علی مر الأیام و السنین، و المسلمون شدید و العنایة و الحرص علی التمسک برسم المصحف الإمام و کلماته، برغم ما فی رسمه من مخالفات أحیانا لما عرف فیما بعد بالإملاء و طریقة کتابة الکلمات و الحروف ..

حتی لا یتسرب إلیه أدنی خلاف و لو فی رسم حرف من حروفه ..

۱۲- و بذلک امتاز القرآن علی کل ما عرفه البشر من کتب مقدسة، و غیر مقدسة، أنه الکتاب الوحید الذی ظل کما هو، و کما أنزله الله، محفوظا فی الصدور، مکتوبا فی المصاحف. و هذه میزة تفرّد بها القرآن، کما تمیز بها المسلمون علی غیرهم فی الحفاظ علی قرآنهم، و کان ذلک کله تحقیقا لوعد الله:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ۹ «۱»

۱۳- کان لأکثر ما نزل من القرآن أسباب. من أسئلة أو حوادث نزلت من أجلها الآیات، مما سمی أخیرا بأسباب النزول، و أفردها العلماء بمؤلفات خاصة بها .. و هی تهیئ للقارئ و المفسر فهم الآیات. و لکن لا تبقی الآیات خاصة

---

(۱) سورة الحجر/ ۹.

علم التفسیر، ص: ۲۲

بهذا الذی نزلت من أجله، و ینتهی مفعولها بانتهائه، بل تبقی لتعالج کل موضوع یجد، و یمکن انطباقها علیه، مما عبر عنه العلماء بعد ذلک بقولهم:

«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» فلم تبق حاجة لمعرفة السبب إلا للمعاونة علی فهم الآیة، و إن کان من الضروری أحیانا معرفته عند فهم بعض الآیات.

علم التفسیر، ص: ۲۳

هل ترک الرسول تفسیرا کاملا للقرآن؟

لعل البعض یفهم من قوله تعالی «وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ» أن الرسول صلی الله علیه و سلم تولی تفسیر کل آیة من القرآن لصحابته رضوان الله علیهم .. و لکن هذا فهم مبالغ فیه و غیر دقیق، إذ أن قوله تعالی:

«لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ» یعنی تبین ما یحتاج منه إلی بیان ..

و قد أنزل الله القرآن على رسوله بلغة قومه «إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» و كان العرب فى ذروة البلاغة و هم أرباب الفصاحة، و قد نزل القرآن يخاطبهم جميعا. و يحثهم لما يدعوهم إليه، و من الطبيعى ألا ـ يكون غامضا عليهم فكانوا أقرب الناس إلى فهمه و إدراك معانيه و تقدير بلاغته، حتى وجدنا أعتى الناس عداوة للرسول، ينقلب- بمجرد سماعه- إلى مسلم تابع له، و أيضا أشد الناس إخلاصا و دفاعا عنه، و وجدنا آخرين يتزعمون معارضته، و إيقاع الأذى به و بدعوته، و مع ذلك تأسرهم بلاغة القرآن و معانيه، و يتسارقون و يتسربون ليلا، للاستماع إلى الرسول صلى الله عليه و سلم و هو يقرؤه بصوت مسموع، إشباعا للذة الاستماع إليه، مع كراهتهم له.

و لو لم يفهموه و يحسوا بلاغته، ما سحرهم بيانه، و ما جذبهم لهذه المخاطرة التى خاطروا فيها بأنفسهم و بمراكزهم و زعامتهم وسط معسكر الكافرين بالرسول، لو انكشف أمرهم .. و قلنا كانوا أقرب الناس إلى فهمه، لأنهم لم يكونوا جميعا على مستوى واحد من الفهم له و إدراك معانيه إذ من الطبيعى أن تكون أفهامهم متفاوتة، حتى لما يسمعون من كلامهم .. و ذكرت لنا الروايات الصحيحة، أن بعضهم، و منهم مقربون إلى رسول اللّه كان يتوقف فى فهم بعض ألفاظ وردت فيه، و إن كان يفهم المعنى الإجمالى للآية و السورة. و الغرض من سياقها .. فوجدنا الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، مع مكانته يسأله رجل عن معنى «الأب»

علم التفسير، ص: ۲۴

بتشديد الباء فى قوله تعالى «وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا» فيقول: نهينا عن التكلف و التعمق «۱»» و فى رواية أخرى .. أنه كان يقرأ الآية فتساءل عن معنى «الأب» كما روى «۲» أيضا أنه كان يقرأ «أو يأخذهم على تخوف» و هو على المنبر، فتساءل عن معنى «تخوف» فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا هو التنقص، و نحن الآن مع تباعد القرون بيننا و بينهم، لا نجد القرآن غامضا علينا إلا النادر منه الذى يحتاج إلى وقفة معه حتى العامى منا يدرك الكثير من معانى الآيات، و يخشع قلبه لما يسمعه ..

و فى ذلك يروى ابن جرير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله:

«التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، و تفسير لا يعذر أحد بجهالته، و تفسير تعرفه العلماء، و تفسير لا يعلمه إلا الله» كوقت قيام الساعة.

فالوجهان الأولان ظاهران لا يحتاجان إلى عناء فى فهمهما، و الثالث هو مدار البحث و الأسئلة، و الرابع يسكت عنه لأنه مما استأثر الله بعلمه ..

و مما لا ـ شك فيه أن الصحابة كانوا أحيانا يتوجهون إلى الرسول لفهم بعض الآيات، أو يتولى الرسول شرحها دون سؤال و يتلقى الصحابة الشرح و الجواب ..

مما عنيت كتب الحديث بذكره.

و لكن إلى أى مدى نثق فى صحة ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم من تفسير لبعض هذه المواضع من القرآن الكريم؟ ذلك أمر تكفلت به كتب السنة الموثوق بها، و لست أعنى بذلك كل كتب السنة المتداولة، لأن بعضها روى فى هذا الباب روايات لا يمكن أن تقبل عقلا .. فمثلا:

أخرج الحاكم عن أنس رضى الله عنه أنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن القنطار فى قوله تعالى:

«وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ» «۳» فقال: القنطار ألف أوقية «بينما روى الإمام احمد

---

(۱) فجر للمرحوم أحمد أمين ص ۲۸۱.

(۲) المصدر السابق عن كتاب الموافقات للشاطبى.

(۳) من قوله تعالى «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ» الآية ۱۴ سورة آل عمران.

علم التفسیر، ص: ۲۵

فی مسنده و ابن ماجة عن أبی هریرة رضی الله عنه: قال رسول الله صلی الله علیه و سلم: القنطار اثنا عشر ألف أوقیة»

و لو اعتبرنا ما فی الروایتین صحیحا، لکانت النتیجة أن الرسول قال مرة:

القنطار ألف أوقیة، و مرة اثنا عشر ألف أوقیة، و الزمن واحد أو متقارب جدا، لا یحتمل تغییر وزن القنطار، فلا یعقل أن یصدر عن الرسول مثل هذا التناقض الواضح، و مع ذلک فهما روایتان، رواهما الحاکم، و الإمام أحمد ..

فلو قبلنا مثل هذه الروایات معصوبی الأعین، مغلقی العقول باعتبار أنها وردت فی بعض کتب السنة لأسأنا إساءة واضحة إلی رسول الله.

و لذلک فإن مما نحمد الله علیه أن نجد من المفسرین مثل الحافظ ابن کثیر و تفسیره لهذه الآیة یقف وقفة متأنیة ناقدة و یقول: «لم یصح عن رسول الله صلی الله علیه و سلم حدیث فی تحدید القنطار و ما ورد من ذلک فموقوف علی الصحابة».

و لیقل لنا الصحابة ما یشاءون حسب علمهم عن أمورهم، فقد تکون صحیحة، و قد تکون غیر صحیحة، و لسنا ملزمین بأن نأخذ ما یروی عنهم کما هو- فکل یؤخذ منه و یردّ علیه، ما عدا رسول الله صلی الله علیه و سلم، فلا بد إذن من التحوط فی قبول بعض الأحادیث الخاصة بتفسیر القرآن، المرویة فی بعض کتب الحدیث عن الرسول بحیث لا نقبل منها إلا المقطوع بصحته فی کتب السنة، ذات الدرجة الأولی فی التوثیق، و إذا کان هذا بالنسبة لما یروی عن رسول الله فی تفسیر القرآن فإن ما یروی عن الصحابة و التابعین یجب أن نقف موقف التحرز و التحوط منه، و ما علینا من شیء إذا لم نقبل ما روی عن أحد منهم، و قلنا بغیره.

علم التفسیر، ص: ۲۶

ابن عباس و ما روی عنه

اشارة

و أذکر هنا علی الأخص ما یروی عن عبد الله بن عباس رضی الله عنهما فی باب التفسیر، فقد أکثر الرواة الروایة عنه، حتی لا تجد آیة فی القرآن غالبا إلا و یذکرون فیها قولا أو روایة لابن عباس، بل إن هناک تفسیرا خاصا به، منسوبا إلیه .. قد یزعم الکثیرون أنه رواه عن رسول الله. و هو مطبوع.

و ابن عباس کان فی نحو الثانیة عشرة من عمره حین توفی رسول الله صلی الله علیه و سلم، و هو عمر لا یسمح بمثل هذه الاستزادة من الرسول، إلا أنه کان له من الفطنة و الذکاء المبکرین، و طهارة المنبت، و من دعاء الرسول له «اللهم فقهه فی الدین و علمه التأویل» یعنی التفسیر لما رآه فیه من فطنة و ذکاء مبکرین، کما کان له من الحرص الشدید علی تعویض ما فاته مباشرة عن رسول الله بالتلقی عن أصحابه، أینما کانوا، و تفریغ وقته لذلک، و قد توفی فی نحو السبعین من عمره بجانب تبحره فی علوم اللغة، و حفظ أقوال العرب و شعرهم، أقول کان له من ذلک کله، ما جعله یحتل منزلته العلمیة منذ عمره المبکر، و یأخذ- لذلک- من اجلال الصحابة و فی مقدمتهم الخلفاء الراشدون- ما لم یقاربه فیه أمثاله و قرناؤه .. حتی رویت روایات کثیرة فی فضله العلمی، و تبحره فی علوم الدین و اللغة، و لکنا مع اعتقادنا بمکانة ابن عباس العلمیة، نکاد نشک، أو نشک فعلا کما شک الأقدمون فی الکثیر مما روی عنه فی التفسیر، حتی یقول الإمام الشافعی رضی الله عنه: «لم یثبت عن ابن عباس فی التفسیر إلا شبیه بمائة حدیث «۱»» و نعتقد أن الکثیر مما نسب لابن عباس من روایات قد أضیف إلیه فی زمن الدولة العباسیة، المنسوبة إلیه و إلی أبیه العباس، و یرضیهم و یسرهم کل من یتقدم بزیادة علم و فخر لابن عباس

(۱) الإتقان ج ۲.

علم التفسير، ص: ۲۷

تقربا و تزلفا. و الساعون لذلك كثيرون، و من هذا و ذاك تكونت الهالة الكبرى حول اسمه.

و هناك أمر آخر نعتقد أنه كان من أسباب الزيادات على ابن عباس.

فابن عباس مشهور بالعلم و له نسبه و مكانته و الوضاعون لم يتورعوا عن الوضع على رسول الله ليؤيدوا وجهة نظرهم، برغم إنذار الرسول صلى الله عليه و سلم للكذابين الذين ينسبون إليه ما لم يقله: (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) ..

أقول إذا كان هناك من تجرأ و نسب إلى الرسول ما لم يقله، برغم هذا الإنذار، فإن الأمر يكون سهلا فى ذلك بالنسبة للوضع على ابن عباس، و نسبة كلام اليه لم يقله .. و هى- أعنى النسبة لابن عباس- تكسب الكلام على أية حال قوة لا يكتسبها من مجرد نسبة الكلام أو الرأى لقائله.

و من هذا و ذاك كثرت نسبة الروايات لابن عباس حتى وجدنا العلماء الناقدين يقفون أمام هذه الكثرة و يزنونها بالموازين التى و زنوا بها أحاديث الرسول أعنى من وجهة الرجال الذين رووا كلامه، و مبلغهم من الثقة، فيزيفون الكثير، و يضعفون الكثير، و يخرجون لنا بالطريقة أو ببعض الطرق التى يمكن أن نثق بها على تفاوت فى هذه الثقة.

و لا شك أن اهتمام الناقدين من العلماء بنقد الرجال الذين يروون عن ابن عباس هو دليل على اهتمامهم، أو إن شئت فقل اهتمام جمهرة طلاب العلم و العلماء، بما يروى عنه، و احتجاجهم به، فكان لا بدّ من غربلته، حتى يتبين الصحيح السليم من غيره.

و لعل مظهر هذا الاهتمام يبدو لنا واضحا جليا فى كتب التفسير .. فإننا لا نكاد نجد آية إلا و قد روى المفسرون فى معناها رأيا لابن عباس، و قد يذكرون له رأيين متعارضين فى الآية، مما يقطع بعدم صحة الروايتين أو إحداهما على الأقل، و مع ذلك تروى الروايتان!! كما رووا عنه فى اسم الشجرة التى أكل منها آدم فى تفسير الطبرى ..

علم التفسير، ص: ۲۸

[ابن عباس و الاسرائيليات]

و لقد أخذ على ابن عباس أو على ما روى عنه، كثير من الروايات الغريبة، التى تدل على أن مصدرها ليس هو القرآن، و لا الحديث، و لكن من الكتب و المعلومات الإسرائيلية، مما يقطع- إن صحت نسبة هذه الروايات إليه- بأنه كان يستفيد ممن أسلم من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، و كعب الأحبار فى موضوعات من القرآن لا تتعلق بعقيدة أو تكليف من التكاليف، فإن هذين لا يصح أن يلجأ فيهما إلى غير ما ورد فى القرآن، و لا يعقل أن ابن عباس كان يروى عنهم فى هذا، لكنه كان يروى- فيما يقول الرواة عنه- فيما يشبع فضول الناس فى القصص التى جاءت فى القرآن الكريم، مما طواه و سكت عنه، و كان مسلمو أهل الكتاب يتحدثون بما يشبع هذا الفضول، الذى لا نزال نرى كثيرا من المسلمين يتعلقون به حتى الآن- و إلا فمن أين جاء لابن عباس أو لغيره، كعلى رضى الله عنهم، بمثل هذه التفصيلات؟ ..

و قد قلت من قبل: إن صحت هذه الروايات .. لأنى أشك فى أن رجلا كابن عباس أو على رضى الله عنهما يسلم عقله و دينه لأمثال هؤلاء و يأخذ عنهم.

و أمامهم حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم يدلّهم إلى الطريقة التى يجب أن تتبع فى مثل هذه الحالة: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم و لا تكذبوهم. و معلوم أن هذا فى غير ما ورد فيه نص من القرآن، و ما هو من أصول و تعاليم الإسلام .. فإنه لو وافق كلامهم ما عندنا صدقناهم. و إن خالفه كذبناهم، فالحديث إذن فيما سكت القرآن عن بيانه فى القصص مثلا. فلا يعقل إذن أن يأخذ ابن عباس عن الإسرائيليين مثلا: لون كلب أهل الكهف، و لا نوع خشب سفينة نوح، و أمثال هذا مما لم يتعرض له القرآن، لعدم

الحاجة إليه، و لاكتمال العبرة فى القصة بدونه، و لنهى الرسول عن تصديقهم أو تكذيبهم فيه، لأن نقله عنهم و تعليمه للناس معناه تصديقهم فيه و الاقتناع به.

[يعيب على الأخذ عنهم]

و إذا أضفنا الى هذا ما رواه الإمام البخارى عن ابن عباس أنه وقف يخطب الناس، و قد هاله اتجاههم لأهل الكتاب، ليشبعوا فضولهم العلمى بسؤالهم عن

علم التفسير، ص: ۲۹

أشياء لم يذكرها القرآن فقال لهم: يا معشر المسلمين: تسألون أهل الكتاب، و كتابكم الذى أنزل على نبيه صلى الله عليه و سلم أحدث الاخبار بالله، تقرءونه لم يشب؟ و قد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، و غيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: (هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا) أ فلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم. و لا و الله ما رأينا رجلا منهم قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم. أى ليأخذه عنكم، و مفهوم أنهم لم يكونوا يسألونهم عن الصلاة أو تحريم الخمر أو كيفية الحج مثلا، بل كانوا يسألونهم عن أشياء فى القصص و أمثالها، مما سكت القرآن عنه لعدم الحاجة فى العبرة إليه. جريا وراء الفضول العلمى، و غريزة حب الاستطلاع.

فلا يعقل إذن أمام هذا الحديث الصحيح أن ينهى ابن عباس المسلمين عن الأخذ من أهل الكتاب، و تصديق ما فى كتبهم بهذه الصورة، ثم يسأل هو أهل الكتاب عن أشياء يرجعون فى الإجابة عنها إلى كتبهم و معلوماتهم، التى عرفوها من هذه الكتب، بل و خيالاتهم.

و لا يغير من الموضوع شيئا أن الذين كان يسألهم ابن عباس قد أسلموا، إن قلنا إنه كان ينهى المسلمين عن الأخذ من أهل الكتاب الذين لم يسلموا، لأن المصدر فى الحالتين واحد و هو كتبهم .. و لا يعقل أن ينهاهم عن شىء و هو يفعله. اللهم إلا إذا كانت ثقته الكاملة فيهم جعلته يستبعد أن يخبروه بشىء غير واثقين به.

و إزاء هذا لا نملك إلا أن نهوى على رأس كل الروايات التى ذكرت فى التفسير إلى ابن عباس فى هذه الناحية فنطيح بها، و نبرئ ابن عباس من مسئوليتها، و نتحمل وزر بقائها فى كتب التفسير المتداولة حتى الآن، تحشو أذهان المتعلمين و القراء بمعلومات واهية، لا سند لها، و تخرج لنا جيلا مخرفا من طلاب العلم، فإن العملة الزائفة تطرد العملة الصحيحة من السوق و تقضى عليها كما يقال.

و لا بد لنا مع ذلك من وقفة قصيرة مع صرخة ابن عباس هذه فى المسلمين، ينهاهم عن مساءلة أهل الكتاب و التعلم عليهم بهذه الشدة.

علم التفسير، ص: ۳۰

فابن عباس لا يقف هذا الموقف، أو يحمل هذه الحملة، إلا لأنه رأى أن إقبال المسلمين على التعلم من أهل الكتاب، و التأثر بهم، قد أصبح ظاهرة تنذر بالخطر .. و هى ظاهرة تشبه الظاهرة التى تقلق الكثيرين منا الآن، و التى تتمثل فى الإقبال على كل ما يرد لنا من الغرب من أفكار و أنظمة، و الإعجاب بها، مع عدم الالتفات الواجب إلى كتابنا و علمنا و أفكارنا .. و ذلك يشبه التهيؤ النفسى لفقد الثقة بالنفس فى أمر مهم يتصل بصميم كيان المسلمين، و كتابهم .. أ لا ترى لقول ابن عباس لهم: (و لا و الله ما رأينا رجلا منهم قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم) فلم إذن تعتمدون على علمهم و تثقون بكلامهم؟.

فلم يحمل ابن عباس على هذا الهجوم- إذن- إلا الخطر الذى أحسه من الاندلاق على معلومات أهل الكتاب فى أمور لا تلزم المسلمين. و لا ينقص من شأنهم عدم العلم بها، بل ربما شوّشت عليهم و نخرت عقولهم.

فهل يعقل مع هذه الصرخة و الشدة أن ينقل ابن عباس عن أهل الكتاب و يصدقهم؟!!

و مع ذلك فان هذه الظاهرة تبين لنا إلى أى حد اختلطت معلومات المسلمين- فى القصص و أمثالها- بمعلومات أهل الكتاب، مما

يـدعونا إلى الشك فى كل روايـة فى هذا الموضوع، حتى و لو رويت عن رجل ثقة لا نشك فى عدالته.، إذ من الذى أنبأه و خبره؟ و من أين استقى العلم الذى يقوله؟ ..

و كثير من المزيفين زيفوا على العدول روايات، و نسبوها إليهم .. و إننا لا نستطيع القول بأن الناس- كل الناس- قد امتنعوا عن مساءلة أهل الكتاب، أو أن هذه الظاهرة التى أقلقت ابن عباس قد اختفت، و قضـى عليها فى كل مجتمعات العالم الإسلامى حينذاك، بمجرد أن ابن عباس أو غيره ممن يكون قد هالته هذه الظاهرة قد نبه و قرع الأجراس.

حديث آخر

و هناك حديث لا بد من إيراده هنا، فإنى أعرف أن كثيرا من القراء المتخصصين سيذكرونه، و هم يقرءون هذا الإنكار على من يأخذ من أهل الكتاب فى تفسير القرآن، أو ربما ذكروه فيما كتبوا.

علم التفسير، ص: ٣١

هـذا الحـديث فيما رواه البخارى عن عبـد الله بن عمر هو: «بلغوا عنى و لو آية، و حدثوا عن بنى إسـرائيل و لا حرج. و من كذب على متعمـدا فليتبوأ مقعده من النار) «١» فبعض المشـتغلين بالتفسـير من العلماء يرون أن هـذا يفيد إباحة النقل، و التحدث عن أهل الكتاب فيما يروونه و ينقلونه من كتبهم!!

و لاـ بـد لنـا حينئـذ من وضع الحـديث الأول هنا بجانب هـذا الحـديث- و كلاهما رواه البخارى «٢»- يقول عليه الصـلاة و السـلام «لا تصـدقوا أهل الكتاب و لا تكذّبوهم و قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْـماعِيلَ وَ إِسْـحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْـباطِ ..» الآية «٣».

فأصبح أمامنا حديثان: الأول .. يدعونا إلى ألّا نصدق أهل الكتاب، و لا نكذبهم فيما يروونه من كتبهم، و معنى هذا أننا لا ننقل عنهم، لأن النقل يؤدى إلى ترويج كلامهم، و حمل الناس على تصديقه، لا سيما إذا كان الناقل موثوقا به عند الناس .. و النتيجة أننا لا يصح أن نحدث عن بنى اسرائيل. و الثانى يقول: (بلغوا عنى و لو آية و حدثوا عن بنى إسرائيل و لا حرج) و يأتى هذا الأمر بعد الأمر بالتبليغ عن الرسول و لو آية .. كأنهما بميزان واحد أو متقاربان على الأقل فى إفادة العلم و فى ضرورة الثقة!!

و الحـديثان فى ظاهرهمـا لاـ يمكن أن يصـدرا عن الرسول .. فلا بـد اذن من شـىء خفى يحتاج إلى التأويل فى معنى الحـديثين حتى يلتقيا ..

و قـد سـبق أن بينا معنى حديث (لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم) و قلنا إن مجال تحقيق هذا الحديث و تنفيذ ما جاء فيه، هو ما لم يرد فيه نص من القرآن أو السـنة .. مثل ما سـكت عنه القرآن من تفاصيل القصص .. فلا يصح أن ننقلها عنهم، و نحكى للناس لون كلب أهل الكهف، و نوع خشب سفينة نوح الخ ..

---

(١) ج ۶ من فتح البارى فى شرح البخارى- كتاب الأنبياء- باب ما ذكر عن بنى اسرائل.

(٢) فى فتح البارى ص ١٢٠ ج ٨.

(٣) ١٣۶- من سورة البقرة.

علم التفسير، ص: ٣٢

فأين مجال الحديث الآخر: (حدثوا عن أهل الكتاب و لا حرج)؟ إن كان الأخذ عنهم فيما جاء به القرآن أو تحدث به الرسول فلا مانع و لاـ حـرج. لأنـه يكون مؤيـدا لهما، و إن كانا فى غير حاجـة لتأييـد، لكنه استئناس على كل حال تقرّ به العيون .. إلا أنه ليس موضوع كلامنا.

إن كلامنا فيما سكت القرآن عن بيانه كما سبق، فجاء أهل الكتاب فبينوه، فقالوا لنا مثلا: لون الكلب أبيض أو أسود أو الخشب كان من الزان أو الساج مثلا؛ فهل الحديث الذى يقول «حدثوا عن أهل الكتاب و لا حرج» يبيح لنا أن نمشى وراء أهل الكتاب، عند ما نفسر القرآن، و نقول ما قالوه، فى هذا و ذاك- و لو أنه لا يقدم و لا يؤخر لكنه ينسب الى تفسير القرآن، و يتناقله العلماء كأنه شىء ثابت. و هو لا أصل له يعتد به؟

هل الحديث يبيح لنا أن نحكى عنهم أن الموت يأتى فى صورة كبش، و الحياة فى صورة فرس، كما نسب إلى ابن عباس فى بعض كتب التفسير؟!

هل الحديث يبيح لنا أن نفسر القرآن بما يحكونه- عن كتبهم- من أحوالهم و أعاجيبهم، و يكون معنى ذلك تصديقهم دون سند عندنا نستند إليه إلا كلامهم؟ ..

أعتقد .. لا. و لا .. لأن الرسول قال فى هذا: (لا تصدقوهم و لا تكذبوهم) و لكن يمكن أن تسمعوا، و لا تعلقوا، و كونوا على حذر. لا تصدقوهم، لأن تصديقهم خطر، و لا تكذبوهم، لأن ذلك ربما يؤدى إلى شقاق و خلاف، أنتم فى غنى عنه. و ربما كان صحيحا فتكونون قد أنكرتم الصحيح و أنتم لا تعلمون و هذه هى منتهى العدالة فى العلم و فى الدين و منتهى الحياد.

و لا يبقى عندنا- لقبول الحديثين- إلا أن نقول: معناه حدثوا عنهم فيما يتفق حديثهم فيه مع ما تعرفونه من كتابكم و سنة نبيكم. و هذا أقصى ما يمكن أن نهضمه حتى لا نرد الحديث.

علم التفسير، ص: ۳۳

و حينئذ لا يمكن الاستدلال بهذا الحديث على إباحة أخذ معلومات عن الإسرائيليين، لتفسير أو توضيح ما سكت القرآن عن بيانه

[احتلال اسرائيلى]

لقد احتل الإسرائيليون فى وقت مبكر أدمغة كثير من المفسرين، و أفسدوا علينا صفاء القرآن، و صفاء الأفكار، و شغلوا علماءنا بأقاويلهم و أضاعوا عليهم و علينا أوقاتنا، و كانوا هم السبب فى كثير من الخرافات التى تحتل أدمغة المسلمين فى كل مكان و زمان.

إنه احتلال سطا على الفكر الإسلامى أيام ازدهاره، و دام قرونا، و سيدوم، إن لم نتدارك الأمر و ننقى كتبنا و نخلصها من هذا الاحتلال .. و ما أخطره من احتلال .. و ما أشد فتكه بالعقول!! و لعل مجمع البحوث يكمل ما بدأه فى هذه الناحية ..

ترانى قد وقفت كثيرا مع ابن عباس. و لا- بأس فى ذلك .. بل الأمر معه قد يستحق وقفة أطول، و تشريحا أكثر فى كتاب ضخم و دراسة أعمق، لأنه عند كل المفسرين العمود الفقرى فى التفسير، حتى الذين عرف عنهم أو عن كتبهم (التفسير بالرأى لا بالمأثور) تجدهم يعنون بذكر بعض الروايات فى تفسير الآية، و فى مقدمتها ما يروى عن ابن عباس، لما ذكرنا من الهالة العلمية التى أحيط بها.

فهو حبر هذه الأمة و ترجمان القرآن، دعا له الرسول: فقال «اللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل» فلما ذا لا نأخذ عنه؟

و ليس لنا من قصد فى ذلك .. إلا- أن يتحرر القارئ من بريق الرواية عن ابن عباس، و ألا يحشو بها فكره. قبل أن ينظر إليها نظرة الناقد البصير .. فإن ابن عباس مظلوم فى الكثير مما أسند إليه ..

[ليس تفسيره]

حتى تفسيره الذى عرف باسمه و المسمى (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس) المطبوع المتداول و الذى عنى بجمعه العلامة مجد الدين الفيروزآبادى

علم التفسير، ص: ۳۴

صاحب القاموس المحيط .. هذا التفسير ضعيف الصلة بابن عباس إن لم نقل إنه مما نسب إليه زورا ..

يقول المرحوم الشيخ محمد على النجار فى مقدمته لكتاب البصائر «۱» للفيروزآبادى و هو يتحدث عن مؤلفاته و آثاره: «و من هذا أنه جمع ما يروى فى التفسير عن ابن عباس، و اعتمد على رواية محمد بن مروان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس. و يقول السيوطى فى الاتقان «۲» فى النوع الثمانين الذى عقده لطبقات المفسرين: إن أوهى الطرق عن ابن عباس طريق الكلبى عن أبى صالح عنه. فإن انضم إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدى الصغير فهى سلسلة الكذب»

و مع أن هذه هى حقيقة كتاب التفسير المنسوب لابن عباس، فإن جمهرة العلماء و المتعلمين لا يعرفون هذا و يأخذون كل رأى فيه على أنه لابن عباس!!

أ رأيت إلى هذه المظاهرة الكبيرة التى أقامها المفسرون و الرواة لابن عباس و ما نسب إليه، و التى اندس فيها كثير من ذوى الأغراض المشبوهة، و دسّوا عليه نسب كثير من الكتب و الروايات؟

و مع أنه من المعروف عند رجال الجرح و التعديل- أو بلفظ آخر عند نقاد الرواة- أن طرق الرواية عن ابن عباس كثيرة، و أنهم لم يعتمدوا إلا القليل منها، و زيفوا الكثير. فإن بعض المفسرين لم يتحر الدقة فى الرواية عن الموثوق بهم، و ترك من عداهم، بل روى عن هؤلاء و هؤلاء دون أى تعليق، ثم جاءت طبقة أخرى من المفسرين أغفلوا أسماء الرواة .. و أوردوا ما رووه من أقوال منسوبة إلى ابن عباس و كأنها قضية مسلمة. و قرأ القراء ذلك، دون أن يخالطهم شك فى نزاهة المفسر، و فى صحة هذه الأقوال التى أوردها، فقبلوها، و تحدثوا بها، و اعتمدوا عليها فى تفسيرهم. فدخل من هذه الناحية على التفسير و على العقول خلط كثير.

---

(۱) حققه المرحوم الشيخ محمد على النجار و صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ۱۹۶۴ م، ص (۱۰) من مقدمة الجزء الأول.

(۲) (۱۸۹) من الجزء الثانى طبعة حجازى بالقاهرة.

علم التفسير، ص: ۳۵

أذكر هنا على سبيل المثال ما جاء فى بعض كتب التفسير معزوا إلى ابن عباس عند قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ) من سورة تبارك، فتقول: «و اعلم أنه اختلف فى الموت و الحياة» و لا أدرى فيم الاختلاف، و لكن انتظر و أقرأ التفاصيل «فحكى عن ابن عباس و الكلبى و مقاتل (هكذا بالجملة): أن الموت و الحياة جسمان. فالموت فى هيئة كبش أملح، لا يمر بشىء و لا يجد ريحه إلا مات، و خلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء، و هى التى كان جبريل عليه السلام و الأنبياء عليهم السلام يركبونها!! خطوتها مد البصر!! فوق الحمار و دون البغل!! لا تمر بشىء و لا يجد ريحها إلا حيى!! و لا تطأ على شىء إلا حيى!! و هى التى أخذ السامرى من أثرها ترابا فألقاه على العجل فحيى الخ ..

فهل يعقل أن تقبل عقلية نيرة كعقلية ابن عباس مثل هذا الكلام. ثم من الذى رواه عن ابن عباس؟ لقد ذكر بجانبه الكلبى و مقاتل. و الكلبى هذا قال عنه النقاد أنه من الوضاعين الكذابين، و لا يوثق بروايته .. و مع ذلك كله ..

نجد هذا فى بعض كتب التفسير «۱» التى يتناولها المبتدءون و غيرهم، و تغذى عقولهم بهذه الروايات، التى تفوق كل خيال، و التى ينفر منها كل ذى عقل يحترم نفسه. فهل كان العالم العلامة العارف بالله الشيخ أحمد الصاوى. الذى نقل هذا الكلام لا يعرف قيمة الرواية عن الكلبى؟

لكنه روى .. و السلام ..

و أمثال هذا كثير لا يحصى، و يكاد يغطى معظم تفسير الآيات الكريمة، و لا سيما عند ما تتعرض الآيات لقصة من القصص أو لأمر من الأمور الغيبية.

ابن عباس .. مظلوم، فكم اعتدى باسمه على تفسير القرآن و على العقول!!

حتى فى الأشياء التى لا يتصور عليها خلاف يعنى بعض المفسرين بـذكر خلاف على ماهيهٔ الموت و الحياهٔ و يجر المظلوم ابن عباس جرا إلى معركهٔ الخلاف، و ينسب إليه هذا الكلام!!

---

(۱) وجدت هذا فى حاشيهٔ الصاوى على تفسير الجلالين. و لا بد أنه مذكور فى غيره لأن الصاوى ينقل عن غيره غالبا .. أو دائما ..

علم التفسير، ص: ۳۶

ابن عباس .. كان عملاقا فى علمه المصـفى .. فاسـتغل اسمه و سمعته العلميهٔ كل من أراد ترويج بضاعته الإسرائيليهٔ الزائفهٔ .. تماما كما يستغل بعض المزورين الاستغلاليين الآن أسماء الشركات الموثوق بها فى ترويج بضاعتهم التافههٔ الهزيلهٔ.

و عفوا إذا وقفنا مع ابن عباس رضـى الله عنهما، هـذه الوقفهٔ فهو و ما روى عنه يسـتحقها بل و أكثر منها .. محاولهٔ منا لوضع الأمور فى نصابها ..

و لننتقل إلى الموقف العام للصحابهٔ من التفسير ..

علم التفسير، ص: ۳۷

الصحابهٔ و فهمهم للقرآن اعتبارات لا بدّ من مراعاتها ..

اشارهٔ

و نعود للكلام عن الصحابهٔ رضوان الله عليهم و مدى فهمهم للقرآن و تفسيرهم له بشىء أكثر من التفصيل ..

فحين نقول إن الصـحابهٔ رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يفهمون القرآن، قد ينطبع فى أذهان الكثيرين أنهم كانوا يفهمونه على النحو التفصـيلى الذى نراه الآن فى كتب التفسـير، بحيث لم تكن هناك كلمهٔ أو عبارهٔ غامضهٔ عليهم، لا سـيما و هم عرب فصحاء و الرسول صلى الله عليه و سلم معهم، يعلمهم و يرشدهم، و يستطيعون سؤاله عن كل شىء يدق فهمه عليهم ...

فهل كان الأمر كذلك؟.

و إذا شئنا أن نضع هذا السؤال فى صيغهٔ أخرى، فإنه يمكن أن نقول: إلى أى حد كان الصحابهٔ يفهمون القرآن و يفسرونه؟

و للإجابهٔ عن هذا السؤال لا بد أن نضع أمام اعتبارنا الأمور الآتيهٔ:

۱- أن القرآن عربى و الصحابهٔ عرب فصحاء.

۲- أنهم لم يكونوا سواء فى الفهم أو الذكاء، كما لم يكونوا سواء فى قربهم من الرسول و بعدهم عنه.

۳- أن الوقت كان وقت دعوهٔ و بناء للعقيدهٔ و دفاع عنها بالحجهٔ أو السيف.

۴- أن الصحابهٔ كان همهم الأول الإيمان مع التطبيق و السلوك.

۵- أن آيات نزلت و أحاديث صدرت من الرسول تحد من تتبع المتشابهات و من كثرهٔ السؤال ...

۶- أن البيئهٔ العربيهٔ فى ذلك الوقت لم تكن بيئهٔ علميهٔ بالمعنى المعروف ..

هذه الاعتبارات يجب أن نضعها أمامنا، و نحن نتحدث عن فهم الصحابهٔ للقرآن أو تفسيرهم له.

علم التفسير، ص: ۳۸

و يمكن أن نتناول كل اعتبار من هذه الاعتبارات بشىء من البسط و التوضيح.

نزل القرآن باللغـهٔ العربيـهٔ فى عهـد ازدهرت فيه هـذه اللغهٔ، فلم يكن قد داخل الألسـنهٔ شـىء مما داخلها بعد ذلك حين اختلط العرب بغيرهم، من أبناء البلاد التى اعتنقت الإسلام، و لقد امتن الله سبحانه على العرب بنزول القرآن بلغتهم، و فى متناول فهمهم

إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۱»
إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۲»
وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ «۳»
نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۱۹۳ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۱۹۴ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۱۹۵ «۴»
كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «۵»

و مؤدى هـذا كله أن القرآن نزل بلغة العرب واضحا و بينا، لكى يعقلوه و يتدبروه، و يصلوا عن هذا الطريق إلى الإيمان به، و بالذى أنزله، و من أنزل عليه .. و قد جعل الله معجزة رسوله فى هذا القرآن، و تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثله فى بلاغته و بيانه .. و هذا يقتضى بالطبع أن يكونوا مدركين له، و للمعانى التى احتوت عليها الآيات و عبرت عنها الكلمات .. إذ بغير إدراك المعانى لا يمكن تذوق البلاغة، و لا الإحساس بالعجز عن مجاراة القرآن فى التعبير عنها بمثل هذا الأسلوب.

---

(۱) أول سورة يوسف.

(۲) سورة الزخرف.

(۳) سورة فصلت.

(۴) الشعراء/ ۱۹۵.

(۵) فصلت/ ۳.

علم التفسير، ص: ۳۹

و هذا الذى كان .. فقد اتخذ الرسول من بلاغة القرآن أقوى سلاح لدعوته ..

فكان يحرص فى مجالات الدعوة للإيمان على أن يقرأ على المشركين العرب آيات منه، و هو مدرك تماما أنهم يتفاعلون مع تعبيراته، و يحسون ما فيها من روعة تفوق كل روعة يحسونها من كلام الخطباء و شعر الشعراء .. حتى كانوا يضطرون و هم فى ذروة معارضته، و الحملة عليه إلى اعتراف بعضهم لبعض سرا، بأن هذا ليس من كلام البشر، و لكنهم اتهموه أمام العامة بأنه سحر مبين، و أصدر زعماؤهم تحذيرا عاما من الاستماع إليه خوفا من تأثيره عليهم وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۲۶ «۱»

و قد وجدنا فى قصة إسلام عمر أن استماعه لآيات من سورة (طه) أطفأت ما فى نفسه من حمية جاهلية، و قلبته من رجل يتوعد الرسول، و يستعد لقتله، إلى رجل هادئ، و ادع، يستسلم للرسول، و يؤمن به، و يعز الله الإسلام بجرأته.

هذا- و أمثاله كثير- يدلنا بلا شك على أن القرآن كان مفهوما للعرب بمجرد أن يسمعوه، إذ لو لم يفهموه لما تأثروا به، و لما سحرهم بقوة بيانه و بلاغته ..

و لكن أى فهم كان؟

لقد نزل القرآن يتحدث عن العقائد، كما يتحدث عن التشريع، و عن قصص السابقين، و عن خلق الكون، و بعض مظاهره و ذلك بأسلوب جديد عليهم فى قوته و بيانه، مستعملا الحقيقة و المجاز و الكناية، و كثير من الموضوعات التى تحدث عنها جديدة عليهم، فإلى أى مدى كان فهمهم للآيات التى تتحدث عن هذا كله؟

هل كان فهمهم مستوعبا لكل آية، و كل كلمة و عبارة، و فى أى موضوع من الموضوعات التى تحدث عنها القرآن؟

---

(۱) فصلت/ ۲۶.

علم التفسير، ص: ۴۰

أو أنهم مع تـأثرهم العام ببلاغـة القرآن لا يلزم أن يكونوا ملمين بمعانى القرآن كله و كلماته، بل كانت تفوتهم معانى بعض الكلمات أو العبارات، و الغرض المراد منها؟ تبعا لاختلاف مستوياتهم فى الفهم و الـذكاء، أو لقربهم من الرسول- مصـدر الإشـعاع- و بعـدهم عنه، أو لظروف أخرى غير ذلك؟

إن الإجابـة عن هـذا تحتـاج إلى أن نعرف الجوانب التى كـانت تسـتحوذ على الرسول و صـحابته فى بنـاء حياتهم الجديـدة، لأن هـذه الجوانب هى التى يمكن أن تبين لنا ما إذا كان عنـدهم وقت فراغ يتيـح لهم التوسع و الاستيعاب، و تبين لنا المنهج الذى كان يتناسـب مع هذه الحياة الجديدة، أو يفرض نفسه فرضا عليها.

كمـا أن الإجابـة تحتـاج إلى معرفـة المحصول العلمى، الـذى كان لـدى الصـحابة قبل إسـلامهم، و اسـتقبلوا به القرآن و ما جاء به من معارف و علوم، لأن الرجل المحدود المعرفة، قد يكفيه من الفهم السـطحى العابر، أو الإجمالى العام ما لا يكفى الرجل الواسع المعرفة و الثقافة. فكلاهما له نظرته الخاصة فيما يقرؤه أو يسـمعه، و له تساؤلاته و مناقشاته، و موضوعاته، التى يمكنه أن يخوض فيها، و يسأل عنهـا، كمـا هو مشاهـد محسوس الآـن من الفرق بين الجو العلمى للوسـط المثقف، و بين الجو العلمى للوسـط الـذى لم ينـل حظا من الثقافة، من حيث الفهم و الدقة فيه، و من حيث نوع الأسئلة التى تطرح للإجابة عنها ..

و على أسـاس تحديـد الجوانب المهمـة فى الحيـاة الجديـدة، و الوقوف على مـا كان لـدى الصـحابة من محصول علمى سابق، يمكن تحديـد الاتجـاه الـذى اتجهوا إليه فى فهمهم للقرآن و تفسيره، لأن الطابع العام للحياة فى أى عصـر من العصور، له تأثيره القوى على الاتجـاه العام للناس، فى فهم القرآن. فطابع الحياة فى عهود الاختلاف و نشوء الفرق مثلا .. أضـفى على تفسـير القرآن اتجاها يتناسـب معه، كمـا نلمس ذلـك فى بعض التفاسـير، و فى توجيه المفسـر للآيـة، و فهمه لها على حسب اتجاهه السياسـى أو المـذهبى، و الطابع العلمى الـذى يمتاز به عصـرنا دفع كثيرا من الناس إلى إضـفاء الثوب العلمى على كثير جدا من آيات القرآن و فسـروها تفسـيرا علميا، حتى خرجوا أحيانا عن الحد المناسب .. و هكذا ...

علم التفسير، ص: ۴۱

بناء العقيدة أولا:

لقد كان أهم شـىء فى الحياة الجديدة هو- أولا- بناء العقيدة السليمة- عقيدة التوحيد، و القضاء على كل المظاهر التى تتنافى معها، و لم يكن ذلك بالأمر السهل فى بيئة مردت على الشرك، و عبادة الأصنام، و التعلق بالخرافات، و الاستهانة بالعقول، إلى حد أنها كانت تحكّم الطيور و الأحجار فيما تقدم عليه من أفعال. و كانت تعد الخروج على شىء من ذلك، خروجا على مقدسات الآباء الموروثة و تقاليدهم، و ثورة على ما تواضع عليه المجتمع، تجب المبادرة بقمعها و القضاء عليها.

و من هنا كانت العناية المركزة فى القرآن الكريم، و فى دعوة الرسول، على عقيدة التوحيد و البعث.

كان الإشـراك قـد تحصن فى عقول العرب، حتى أصبحوا يعـدّون ما عـداه أمرا غريبا يلفت النظر، و يدعو إلى العجب، و الدعوة إلى التوحيد مؤامرة تستدعى الحذر

أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ ۵ وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ ۶ «۱»

فهـذا الحصن هو الـذى يقف أمـام دعوة الإسـلام. و لاـ يمكن أن يلجأ الـداعون للتوحيـد إلى التسـلسل من ورائه و تركه .. لا بـد من مجابهته، و هدمه حجرا حجرا، بل لا بدّ من إزالة أنقاضه، و ترابه و غباره، و كل أثر من آثاره.

... و هـذا كله ليس بالأـمر السـهل فـإن هـدم الحصون الحجريـة- أو الخرسانيـة بلغـة العصـر- قـد يكون أسـهل كـثيرا من التغلب على

الحصون العقلیة و التقلیدیة.

و من هنا یمکن أن نتصور أی شیء کان یشغل الرسول و من آمن معه، و یأخذ منهم کل أوقاتهم و جهودهم.

---

(۱) أوائل سورة «ص».

علم التفسیر، ص: ۴۲

و القارئ یعلم بلا شک تلک الظروف التی عاش فیها رسول الله صلی الله علیه و سلم و المؤمنون القلیلون معه فی مکة مدة ثلاث عشرة سنة .. کما یعلم الظروف التی عاش فیها الرسول مع صحابته بعد ذلک فی المدینة.

و کلها ظروف تحتم توجیه أکبر قسط من الجهد و العنایة للأمور الأکثر أهمیة بالنسبة للدین الجدید: من الدعوة إلیه و التمسک بمبادئه و تشریعاته من ناحیة، و الدفاع المستمیت عنه ضد أعدائه من ناحیة أخری، أو بلغة العصر الحدیث:

إقامة بناء جدید قوی للدعوة فی الداخل، و دفاع و حمایة لها من أعدائها فی الخارج.

و هذا هو الذی کان، فلقد انصرف الرسول و صحابته بکل ما یسعهم من جهد و طاقة، إلی تدعیم العقیدة فی النفوس، و العنایة بالتطبیق لکل ما جاء به الدین من تشریعات، و الاستعداد التام لمجابهة کل عدو و الوقوف أمامه. [و هذا یعنی أن الناحیة العلمیة کانت هی الجانب الأهم فی حیاة الرسول و المؤمنین، و کان المسلمون ینصرفون إلیها بکل جهودهم و وقتهم، بعد أن یعلمهم الرسول القائد، ما علیهم من واجبات ..

ثم لا ننسی أنه کان علیهم واجبات معیشیة أخری غیر واجبات دینهم ..

[و لا ننسی أیضا أنهم مع حرصهم الشدید علی التجاوب التام مع دینهم، و علی حفظ القرآن، لم یستطع أکثرهم متابعة ما ینزل علی الرسول صلی الله علیه و سلم من القرآن بالحفظ و الاستظهار .. و لم یکن هناک أمر فی القرآن، و لا فی کلام الرسول، یوجب علیهم استظهاره کله .. لأن ذلک شیء قد یشق علیهم، و لا یستطیعون احتماله، و الله لا یکلف نفسا إلا وسعها .. و لیس المهم الحفظ و الاستظهار، و إنما المهم فی الدرجة الأولی: التنفیذ و العمل .. و هو ما حرصوا علیه، و قاموا به.

صحیح أن الرسول صلی الله علیه و سلم کان یحرص علی أن یحفظوا، و کانوا هم الآخرین یتسابقون إلی الحفظ، و یعتبرونه مفخرة، لکن ذلک کله لم یصل إلی حد أن کل واحد منهم قد وجد الفرص الکافیة لحفظ القرآن کله ... و إن کان کل واحد لم یفته أن یحفظ شیئا من القرآن قلیلا أو کثیرا ..

علم التفسیر، ص: ۴۳

و کانوا یتفاوتون فی هذا الحفظ و یتفاضلون به، فحفظ کل منهم قدر ما یستطیع، علی حسب ما یتیسر له، و إن کان هناک من الصحابة جمّ غفیر عرف عنهم أنهم حفظوا القرآن کله فی عهد رسول الله.

و لا شک فی أن الواحد منهم إنما کان یعنی بتفسیر ما یحفظ و فهمه، علی قدر استطاعته، أو بالاستعانة بالرسول، أو بغیره من الصحابة، ممن یتوسم فیهم المعرفة. أما ما لا یحفظه فإننا لا نستطیع القول بأنه عنی بفهمه أو بتفهمه، اللهم إلا إذا سمع أحدا یقرؤه.

و مؤدی هذا کله أن الصحابة رضوان الله علیهم مع عنایتهم الشدیدة بالقرآن، لم یتیسر لجمهرتهم حفظه کله، کما لم یتوفر لهم بالتالی تفسیره و فهمه تفصیلا، و إن کان هناک من خواصهم من تیسر لهم حفظه، و توفر علی فهمه قدر استطاعته.

و فی ذلک نروی ما قاله مسروق ((جالست أصحاب محمد علیه الصلاة و السلام فوجدتهم کالإخاذ- یعنی الغدیر- فالإخاذ یروی الرجل، و الإخاذ یروی الرجلین، و الإخاذ یروی العشرة، و الإخاذ یروی المائة، و الإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم)) یعنی یرویهم. یعبر بذلک عن اختلاف مستویاتهم العلمیة، و محصولهم من فهم القرآن، کما تختلف الآبار فی کمیة میاهها ..

و یقول ابن قتیبة: إن العرب لا تستوی فی المعرفة بجمیع ما فی القرآن من الغریب و المتشابه، بل أن بعضها یفضل بعضا فی ذلک ..

و هذا أمر طبيعى كما سبق أن قررناه .. و قلنا إنه يرجع إلى استعداداتهم الفطرية، كما يرجع إلى قربهم من الرسول ..- مصدر الإشعاع- و بعدهم عنه .. و إن كان من الممكن أن نقول: أنه كان هناك قدر مشترك بينهم فى فهمهم العام لما يقرءون، أو يسمعون من القرآن، باعتبار أنهم عرب .. كما قررنا من قبل ..

و إذا كانت الدعوة الجديدة قد أخذت من الرسول صلى الله عليه و سلم و المؤمنين معه، جهدا و وقتا فى دعوة الناس إليها، و فى الدفاع عنها بالحجة أو

علم التفسير، ص: ۴۴

بالسيف، مما أضفى على حياتهم الطابع العملى الجاد، فلقد كان من مستلزمات ذلك أن لا تكون هناك عناية إلا بما يمس هذه الناحية العملية .. و أن يحد من الاسترسال وراء شهوة الكلام و الجدل، و إثارة الإشكالات و الشبه، فإن ظروف المسلمين فيما بينهم لا تسمح بذلك، كما أن ظروفهم أمام أعدائهم المحيطين بهم من كل جانب لا تستسيغه، و البناء الجديد يقتضى احتياطا و عناية لا بد منهما.

و من هنا تحدد المنهج الذى يجب أن يسير عليه الصحابة فى حياتهم العلمية، و كان لذلك أثره فى فهمهم للقرآن و تفسيرهم له.

علم التفسير، ص: ۴۵

المنهج الفكرى فى الحياة الجديدة وصلته بفهم القرآن

هذا المنهج الفكرى كان من الضرورى أن يكون ملائما و متناسقا مع الحياة الجديدة و ضروراتها و فى إطارها، و إذا أمكن أن نستعمل مصطلحات العصر الحديث، قلنا: إنه كان من الضرورى أن يكون فى خدمة الحياة الجديدة و متطلباتها، كما يقال الآن: يجب أن يكون العلم فى خدمة الإنتاج مثلا، و أن يغذى الإنتاج الفكرى الأهداف العامة للدولة، و ذلك من أجل تماسك البناء، و هو لا يزال جديدا، و عدم إصابته بهزات عكسية، تترك عليه آثارها من التخلخل و التشقق ..

فكل ما يتصل بالعقيدة و تمتين بنائها مقبول بل مطلوب. أما أن تثار حولها شبهات و مجادلات نظرية تشتت العقول، تدخلنا فى التيه، فذلك أمر غير مقبول .. و ذلك مثل الكلام فى القضاء و القدر الذى لم و لن ينتهى إلى نتيجة حاسمة و لذلك نهوا عنه ..

و كل ما يتصل بتصحيح العمل- عبادة كان أم معاملة- فالكلام و السؤال و الجواب فيه مقبول. بل مطلوب كذلك، و لكن بقدر ما يصحح العمل، دون الاسترسال وراء شهوة الكلام و الجدل و الافتراضات.

و لقد كان القرآن ينزل فى شأن هذا و ذاك، و الرسول يتابعه بالبيان القولى أو التطبيقى بحيث لا- يترك شيئا يحتاج إلى بيان إلا وضحه .. و مع ذلك فمن الجائز أن يبقى هناك شيء غامض لدى بعض الناس. و هذا يحمد منهم أن يستوضحوا أمره .. و من الجائز أن تنزل آية، و يفهم منها الصحابة شيئا من التكليف الغير المستطاع أو شيئا يخالف ما فهموه من قبل فيلجئوا إلى الرسول و يسألوه، فيوضح لهم الأمر، مسرورا بإقبالهم على فهم دينهم ..

علم التفسير، ص: ۴۶

فمثلا- .. حين نزل قوله تعالى من سورة الأنعام و هى مكية الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ ۸۲ «۱» شق ذلك على أصحاب رسول الله و قالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال الرسول صلى الله عليه و سلم: ليس بالذى تعنون. أ لم تسمعوا ما قال العبد الصالح:

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۱۳ «۲» يعنى لقمان كما جاء فى سورته.

فهذا الذى فهموه أولا- من الآية السابقة أزعجهم، لأنه يتصل بحياتهم فى الآخرة، و هم يحرصون على أن تكون حياة طيبة، فسألوا رسول الله، فبين لهم أن معنى الظلم فى الآية هو الإشراك، و أحالهم على آية أخرى حكت عن لقمان قوله لابنه: (يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ

بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ) و بهذا انتهی الإشکال.

و السیدة عائشة رضی الله عنها لما سمعت الرسول صلی الله علیه و سلم یقول:

«من حوسب عذب»، رأت أن هذا القول فی ظاهره، یخالف قوله تعالی:

فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ ۷ فَسَوْفَ یُحاسَبُ حِساباً یَسِیراً ۸ وَ یَنْقَلِبُ إِلی أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۹ «۳»

فهناک إذن من یحاسب، ثم یلقی أهله مسرورا فی الآخرة، و لا یلحقه عذاب. و الحدیث یقول بصیغة التعمیم (من حوسب عذب) فتلجأ إلی الرسول، و تحتج بالآیة، و کأنها تعارضه. فتقول له: «أو لیس یقول اللّه عز و جل فسوف یحاسب حسابا یسیرا، فقال لها الرسول صلی الله علیه و سلم (إنما ذلک العرض) و فی روایة لیس ذاک بالحساب و لکن ذلک العرض، أی عرض

---

(۱) سورة الأنعام الآیة ۸۲.

(۲) انظر تفسیر ابن کثیر ج ۲ سورة الأنعام. تفسیر الآیة المتقدمة .. و آیة لقمان ۱۳.

(۳) سورة الانشقاق ۷- ۹.

علم التفسیر، ص: ۴۷

الأعمال علی الله تعالی و تجاوزه عن السیئات منها ثم قال الرسول: (و لکن من نوقش الحساب یهلک، أو من نوقش الحساب یوم القیامة عذب) روایات مختلفة و المعنی واحد.

و سؤال عائشة رضی الله عنها کان فی أمر مهم، یتصل بمصیر الناس فی الآخرة، و ما فهمته عنه من الآیة الکریمة .. و روایة أخری عن عائشة أیضا فی هذا تقول: (سمعت رسول الله یقول فی بعض صلاته (اللهم حاسبنی حسابا یسیرا) فلما انصرف، قلت یا رسول الله: ما الحساب الیسیر؟ فقال: (أن ینظر فی کتابه، فیتجاوز له عنه. إنه من نوقش الحساب یا عائشة یومئذ هلک) «۱» و هو سؤال لتوضیح معنی یتصل بالآیة السابقة.

و یروی البخاری فی صحیحه- فی باب الصوم- عن عدی بن حاتم رضی الله عنه قال: لما نزلت (حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکُمُ الْخَیْطُ الْأَبْیَضُ مِنَ الْخَیْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) «۲» عمدت إلی عقال أسود، و عقال أبیض، فجعلتهما تحت و سادتی، فجعلت أنظر إلی اللیل، فلا یستبین لی، فغدوت علی رسول الله صلی الله علیه و سلم فذکرت له ذلک، فقال: «إنما ذلک سواد اللیل و بیاض النهار».

و فی روایة أخری عن عدی أیضا بلفظ آخر «لما نزلت: و کلوا و اشربوا ..

الآیة» عمدت إلی عقالین: أحدهما أسود، و الآخر أبیض، فجعلتهما تحت و سادتی. قال: فجعلت أنظر إلیهما، فلما تبین لی الأبیض من الأسود أمسکت.

أی امتنعت عن الطعام و بدأت الصیام. فلما أصبحت غدوت إلی رسول الله صلی الله علیه و سلم فأخبرته بالذی صنعت فقال: (إن وسادک- إذن- لعریض. إنما ذلک بیاض النهار من سواد اللیل).

و تعلیق الرسول صلی الله علیه و سلم: (إن وسادک لعریض) مبنی علی أنه وضع تحته الخیطین اللذین جعلهما الله کنایة عن بیاض النهار و ظلمة اللیل فاتخذ

---

(۱) انظر صحیح البخاری فی باب العلم و ابن کثیر فی تفسیر الآیة من سورة الانشقاق ج ۴ ص ۴۸ طبعة الحلبی.

(۲) سورة البقرة ۱۸۷.

علم التفسیر، ص: ۴۸

و سادته کأنها أفق یضم هذین الخیطین. و فی روایة أخری أنه قال له أیضا (إنک لعریض القفا) و بعض الناس یفهم من هذا أنه یرمیه

بالبلادة فى فهم المراد من الآية .. و لكنه من مستلزمات (إن وسادك لعريض) فما دام الوساد عريضا إلى هذا الحد فلا بد أن القفا الذى يستلقى عليه عريض كذلك بما يتناسب معه. و ربما يكون ذلك إشارة إلى أنه كان مستريحا فى نومه على وسادة مريحة فتكاسل عن القيام و أجرى تجربته و هو نائم.

و هى كلها تعليقات طريفة على هذا الفهم البدائى، الذى أخذ ما فى الآية على حقيقته، و لم يفطن إلى أن ذلك كناية عن خيط النور الذى يشق سواد الليل مؤذنا بطلوع الفجر ..

و الشاهد فى هذه الرواية هو أن الرجل فهم فهما فى القرآن، ثم لم يطمئن إليه بعد التجربة التى أجراها، فذهب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم يعرض عليه هذا الفهم، و يستوضحه الحقيقة فيه، فبين له الرسول حقيقة المراد فى الآية ..

و أمثال هذه الاستفسارات لا بدّ أنها كانت كثيرة، و قد روى البخارى ما صح منها فى صحيحه و كانت أمرا لا بدّ منه فى فهم الصحابة للآيات التى تشرع لهم فى أمر عباداتهم أو معاملاتهم .. و من الطبيعى أن الرسول كان يتقبل هذه- الاستسفسارات بصدر رحب، و يجيب عنها بما يوضح لهم الفهم الصحيح.

لأنها كانت تدخل فى صميم الحياة العملية لهم .. و يتوقف عليها تسديد الخطى فى هذه الحياة ...

لكن العقل البشرى له جولاته فى نطاق الحياة العملية، و له تساؤلاته فيما يغيب عنه، و كثيرا ما يدفعه الفضول أو الرغبة فى الاطلاع على المجهول إلى أسئلة يرجو الإجابة عنها.

و قد نزل القرآن موجزا مجملا و حمال أوجه، و فيه متسع لمن يريد السير وراء الأسئلة التى من هذا النوع .. حيث ركز على موضع العبرة عنها، تاركا فيها بعض الجوانب التى يلح العقل فى معرفتها عادة ..

كما أن فى القرآن بعض الآيات التى تبدو فى ظاهرها متناقضة .. فالله «ليس كمثله شىء» كما تقرر آية، ثم تأتى آيات أخرى، فتتحدث عن أن الله

علم التفسير، ص: ۴۹

يدا (بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ) و وجها (وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرام) و عينا (وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِى)، و سمعا و بصرا (إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً). إلى غير ذلك من الآيات التى تبدو على غير اتفاق مع قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ) مما أطلق عليه أنه من المتشابهات فى القرآن .. بمعنى عدم جلاء معناه عند قراءته أو سماعه، كما يفهم سريعا من قوله تعالى مثلا: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها) .. (وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ).

و هناك ألفاظ فى القرآن جاءت على غير ما اعتاد العرب فى كلامهم ((الم.

ألر. المص. طسم. حم. ص. ق. ن). مما بدأ الله به بعض سور القرآن ..

و هناك آيات فى القرآن الكريم تنص على أن الله «يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ و (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً).

(وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ) و آيات أخرى صريحة فى مجازاة الإنسان على ضلاله و على عمله، و ينتج عن هذه و تلك .. هذا الإشكال المزمن: هل العبد مسير أو مخير؟ و كيف يحاسب الله العبد على شىء، نفذت به مشيئة الله و ليس فيه حينئذ خيار؟

آيات كثيرة فيها هذا و ذاك و ذلك .. و مرت القرون عليها، و الناس مختلفون متجادلون فى فهم المراد منها .. و ستمر قرون كذلك، دون أن يصل فيها العقل إلى رأى قاطع حاسم، فما ذا كان موقف صحابة رسول الله منها؟.

هل فهموها و وصلوا فيها إلى حل مريح، أو سألوا الرسول عنها فبينها لهم؟

لو أنهم فهموها أو بينها لهم الرسول، لروى لنا هذا الفهم، و هذا الحل، و استرحنا، إذ ليس من المعقول أن يندرس مثل هذا البيان عن هذه الآيات المشكلة، فلا يرث علمهم أحد ممن أخذ عنهم، و لا نتوارثه، مع أن الروايات، نقلت لنا الكثير من أقوال الرسول و أقوالهم،

مما هو أقل شأنا من موضوع فهم هذه الآيات، و مع أن عهد التابعين قد كثرت فيه الأسئلة عن غوامض القرآن.

و لكن هل تمر عليهم دون أن يفهموها، و دون أن يسألوا عنها؟ ..

علم التفسير، ص: ۵۰

أظن ذلك هو الأقرب إلى العقل .. إذ لو سألوا و أجابهم عنها لوصل إلينا ذلك فيما وصل.

و ما دمنا لم نعثر على حديث صحيح عن الرسول، أو على رأى للصحابة موثوق بنسبته إليهم، فالأقرب للعقول أنهم لم يفهموها تفصيلا و لم يسألوا عنها.

و لكن كيف مرت دون أن يفهموها، و دون أن يسألوا عنها، و هى التى تشغلنا الآن كما أنها شغلت من كان قبلنا، و ستشغل من هو بعدنا، و يكثر فى فهمها الاختلاف كما كثر من قبل دون الوصول إلى رأى قاطع ..

ما المراد بقوله تعالى فى أوائل السور: الم. المص. الر. حم .. الخ؟

ما المراد بيد الله و سمعه و بصره و عينه؟

أ لم يفسرها الرسول تفسير قاطعا؟ أ لم يتطلع الصحابة لمعرفتها فيتركوا لنا فيها تفسيرا مقنعا؟

تروى بعض كتب التفسير عن أبى بكر و عمر أنهما مما استأثر الله بعلمه ..

و لو صحت هذه الرواية لكان معنى ذلك أنهم يعلمون ذلك من الرسول ..

و لقطعت هذه الرواية حبل الاجتهاد على كل متحدث يريد شرحها و فهمها ..

و لكن حبل الحديث و التفسير و الاجتهاد فى فهمها لم ينقطع، حتى بلغت الأقوال مثلا فى معنى الحروف المقطعة .. عشرات. و مغزى هذا أن هذه الرواية عن أبى بكر و عمر لم تصح، و لم تعتمد لدى المفسرين جميعا. فبقى باب الفهم و الاجتهاد فيه مفتوحا.

فرأينا فريقا من المفسرين يقف عن تفسيرها و يقول (الله أعلم بمراده) و آخرين منهم يفسرونها بما يمكنك الاطلاع عليه فى كتب التفسير .. و كلها تفسيرات اجتهادية ترجع إلى عقل المفسر و ترجيحه ..

و السبب فى ذلك كله أننا لم نرث عن الصحابة رواية صحيحة معتمدة، تقطع الطريق على أى قول آخر.

فكيف تترك هذه الأمور غامضة دون توضيح؟ .. و هل يعقل أن تكون

علم التفسير، ص: ۵۱

معانيها غامضة عليهم، ثم سكتوا فلم يسألوا الرسول، و هو المرجع الأعلى فى تفسير القرآن و فهمه؟ ..

أسئلة أجدها كلها نابتة من جونا العلمى و الفكرى الذى نعيش فيه، و الذى دأب الناس فيه على أن يسألوا عن كل شىء، حتى ما لا يحتمل السؤال .. و فى هذه الأسئلة التى نتساءلها شىء .. من الاستغراب، عن موقف الصحابة و إحجامهم عن السؤال .. و شىء من الأمانى الغالية أن لو كان الصحابة سألوا عنها الرسول فبينها و أراحنا ..

فهل يلام الصحابة لعدم سؤالهم أو بيانهم؟.

إنه لا بد لنا لكى نفهم موقفهم و نقدره .. نحاول بتفكيرنا العيش معهم فى الجو الذى كانوا يعيشون فيه، و نقدر مع ذلك البساطة العربية التى كانت تنفر من التعقيد، و التى كانت طابعهم العام، و نعرف فى الوقت نفسه أن وقتهم كان وقت تعبئة عامة و تركيز حول المسائل المهمة، التى تأخذ من حياتهم الاهتمام الأول، و هى العقيدة و بناؤها، و الأحكام و الالتزام بها، و الأعداء الكثيرون المحيطون بهم و ضرورة مجابهتهم .. و أولا و أخيرا أمة جديدة فى كل شىء، تزرع وسط حقول ألغام، و لا بد لها من الحذر و الحيطة التامة فى سيرها ..

فهل يحتمل هذا الجو- مع ما نعلمه من البساطة العربية- أن ينصرف الصحابة- و الحالة حالة طوارئ- إلى مناقشات حول موضوعات لا تدخل فى صميم عقيدتهم، أو عباداتهم و معاملاتهم. و هى موضوعات أثيرت فيما بعد، بدافع من الأمن و الفراغ، و اتساع الحركة

الذهنية و العلمية، و كثرة الداخلين فى الإسلام من غير العرب ..

لقد عاش الرسول صلى الله عليه و سلم بعد بعثته نحو عشرين سنة كانت هى مدة الدعوة إلى الدين الجديد بعد فتور الوحى، و منذ أمره بإنذار عشيرته الأقربين، و أمره بتبليغ الدعوة جهرا إلى الناس أجمعين. و قد قضى من هذه المدة نحو نصفها فى مكة فى حالة ضغط مستمر عليه و على أصحابه، و اضطهاد عنيف تحملوه صابرين .. و مطاردة و مصادرة لهم فى أفكارهم و تحركاتهم ..

علم التفسير، ص: ۵۲

بل و حياتهم. فلم يكن من المعقول فى هذا الظرف أن تثور مناقشات نظرية حول هذه المتشابهات التى نزل أكثرها بمكة ..

و قضى رسول الله فى المدينة نحو عشر سنوات كذلك، قضاها كلها فى دفاع و حروب مستمرة فرضها عليه أعداؤه .. فكانت كلها سنوات طوارئ بلغتنا الحديثة .. و فى حالات الطوارئ لا يقبل فيها من الكلام و المناقشات ما يقبل عادة فى حالات الأمن و الرخاء .. بل تفرض التعبئة العامة جوها على الحياة و على الأفكار ..

هل يكون من المقبول و المستساغ لدينا- إذا كنا فى حالة حرب أو طوارئ و تعبئة- أن نثير فى الصحف بحوثا و مجالات نظرية تشغل الأفكار و تمزقها، و لو حول بعض المسائل الدينية البعيدة عن جونا الذى نعيش فيه؟

هل يستساغ أن نثير فى مثل هذه الحالة بحثا حول جواز ترجمة القرآن مثلا، أو عدم جوازها؟ أو حول من كان أحق بالخلافة. أبو بكر أم على؟. أو حول المراد من الحروف المقطعة التى بدئت بها بعض السور؟ أو حول القضاء و القدر؟

و هل الإنسان مسير أو مخير؟- أو حول القرآن، و هل هو مخلوق، أو غير مخلوق؟. أو نثير بحثا حول الشعر القديم و الشعر الحديث؟. أو نعيد سيرة البيزنطيين فنتناقش: أيهما الأصل: البيضة أم الدجاجة؟!!

و إذا كنا لا نستسيغ ذلك حاليا مع شهوتنا الملحة دائما فى الكلام و الجدل، فكيف يمكن أن نطلب من الرسول .. و صحابته و قد كانوا فى حالة طوارئ مستمرة، و حالة حرب، و خطر الحرب، أن يسألوا و يبحثوا فى أشياء نظرية، و بعضها قد يثير الاضطراب الفكرى، و يبعثر الجهود، و يشتت الأفكار، و يؤدى إلى الدخول فى التيه؟ ..

و لكن أ ليس فى فهم معنى يد اللّه و سمعه و بصره اتصال بالعقيدة؟

نعم .. كان له اتصال .. و لكنهم فهموه فهما إجماليا و تركوه، و اكتفوا بهذا و لم ينساقوا الى ما وراءه مما أثير بعد ذلك .. اكتفوا و اكتفى منهم الرسول بأنهم مؤمنون بالله و بصفاته كما جاء فى كتابه، و ليس لهم أن يشغلوا أنفسهم و أفكارهم بالبحث

علم التفسير، ص: ۵۳

عن: كيف، و لما ذا؟ بدليل أننا لو آمنا الآن بصفات الله كما وردت فى القرآن، و فوضنا معناها إلى الله، ما كان فى ذلك بأس، بل إن بعضنا يقول: هذا هو المطلوب منا. و هكذا سار المسلمون بعد الرسول. و تحرجوا عن السؤال فى هذه المتشابهات و قال الإمام مالك: إن السؤال عنها بدعة.

و مع أن طابع الحياة العملية و ظروفها التى عاشوا فيها قد أملى عليهم هذا الاتجاه، كان هناك بجوار هذا أو قبل هذا توجيهات من القرآن الكريم، و من رسول الله صلى الله عليه و سلم تحبذ مثل هذا أو تدعو إليه، و ترسم منهجا لتفكيرهم و أسلوب فهمهم للقرآن، و الدين الجديد الذى اعتنقوه ..

علم التفسير، ص: ۵۴

لا تسألوا عن أشياء ...

إن المعروف فى تاريخ الأديان و المذاهب حتى الوضعية منها أن الدور الأول فيها يكون الجهد فيه منصرفا الى القواعد العامة، و الى إشعال الروح، و الى التطبيق العملى لتعاليمها .. أما التفريعات و التعليلات، أو التماس فلسفة لهذه القواعد و هذه التعاليم، فذلك يكون

بعد إرساء القواعد، و تكميل البناء، و غالبا ما يصاحب ذلك شيء من خمود الروح و لو نسيبا عما كانت عليه في الدور الأول .. دور الحماس و فوران العاطفة ..

لقد وجدنا القرآن الكريم يتعرض لأناس يكثرون من سؤال الرسول و وجدوها فرصة يشبعون فيها نهمهم في الأسئلة عما في نفوسهم حتى أدى شغفهم بكثرة الأسئلة إلى أن يسأل واحد منهم رسول الله: اين أبي؟ فيضطر الرسول إلى أن يخبره أنه في النار، و كان قد مات على الكفر .. و يسأل آخر: من أبي؟ و آخر أين ناقتي؟ و آخر يسأله عن الحج أ واجب مرة في العمر أم في كل سنة .. إلى غير ذلك، فأنزل الله آية تحسم هذه الحالة، و تحد منها، لأنها لا جدوى منها و لا تتناسب مع الرسول و وقته و مهمته، و لا مع الصحابة و ما ينبغي أن ينصرفوا إليه في حياتهم، فقال

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٠١ قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ ١٠٢ «١»

و في ألفاظ الآيتين و ترتيبها المنطقي من قوة الردع و الزجر ما تنخلع منها القلوب و تخرس الألسنة «إن تبد لكم تسؤكم. و إن تسألوا عنها حين ينزل

(١) المائدة/ ١٠١، ١٠٢.

علم التفسير، ص: ۵۵

القرآن تبد لكم. ثم «قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين».

ردع قوي عن الاسترسال في توجيه أسئلة للرسول لا داعي لها فوق أنها تشغله، و ما كان هذا الردع القوي إلا لأن «الناس» كانوا كما جاء في حديث أنس رضي اللّه عنه «سألوا نبي اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم حتى أضنوه بالمسألة. و في حديث آخر يوضح المعنى «فلما أكثروا عليه المسألة غضب». و كان من أثر غضبه عليه الصلاة و السلام أن قال لهم: ذروني ما تركتكم.

و أجدني في حاجة لأن أقف قليلا لأوضح: لم غضب الرسول؟ حتى لا أترك في ذهن القارئ علامة استفهام كبيرة لا جواب عنها .. سبب الغضب يمكن أن يبينه هذا الحديث «خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال- إن الله قد فرض عليكم الحج. فقال رجل- أ في كل عام؟ فسكت عنه. حتى أعاده ثلاثا. فقال: لو قلت: نعم لوجبت، و لو وجبت، ما قمتم بها أو لما استطعتم .. ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم، و إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه.» «١»

فمثل هذا السؤال من الرجل «أ في كل عام؟» لا محل له .. إذ لو كان في كل عام لبينه الرسول دون حاجة إلى سؤال أحد. ثم كان على الرجل أن يكون فطنا حين لم يرد عليه الرسول، فيسكت هو الآخر، و لا يتمادى في السؤال، كأنه هو الحريص وحده على البيان .. و مثل هذا الموقف كثيرا ما يدخل صاحبه في باب التنطع الذي قال عنه الرسول «هلك المتنطعون»، و الاسلام ذوق، و جمال، و إحساس، و جو، لا بد أن يشيع فيه هذا كله.

و الذين ما رسوا مهنة الدعوة أو التدريس، هم أكثر الناس إدراكا و فهما لمثل هذا الموقف، فكثيرا ما يجابه المدرس بأسئلة، تنطلق من بعض الطلاب

(١) سنن النسائي و رواه مسلم و غيره بألفاظ مختلفة راجع تفسير الآية في ابن كثير و في المنار و غيرهما، و كيف كان غضب الرسول من كثرة الأسئلة في موضوعات متعددة لا أهمية لها أو تؤدي للتشديد عليهم.

علم التفسير، ص: ۵۶

كالرشاش فى (الفاضى و المليان) و قبل الشرح أحيانا، و خارج موضوع المدرس أحيانا، و لو استرسل المدرس مع السائل لتشتت الموضوع، و ضاع الوقت، و تبرم الباقون، و لو سكت الطالب (المتسائل) لجاءه الشرح الذى ينبغى له أن يفهمه، و لا يزيد عليه، و خرج هو و زملاؤه بالفائدة المرجوة ..

ثم ما ذا ربح السائل: أين أبى؟ «حين قال له: فى النار .. و معروف أن الذين ماتوا على الكفر مآلهم النار كما قال عمر ملطفا حدة الموقف، ثم هذا الذى سأل: من أبى؟ أ كان يضمن- كما قالت له أمه توبخه- أن أمه علقت فيه من غير أبيه فكان يفضحها أمام الجميع و يفضح نفسه؟ جو اندفع إليه الصحابة، و لم يكن لائقا أبدا بهم و لا بالرسول و مهماته ..

فكان لا بد للرسول أن يغضب من هذه الحالة التى تضيع الوقت و تبعد المسلمين عن الطابع الجدى الوقور، الذى يجب أن يكون طابع مجالس الرسول، و مجالس العلم بعامة، و طابع الجد الذى يعيشون فيه،

و من هذا يتضح جليا سبب الغضب، و يبعد عن الأذهان ما قد يناوشها- من أن الرسول لم يكن يجب أن يسأل عن بيان أمر شرعى، يتصل بتصحيح عقيدة المؤمن و عمله، لأن ذلك يتنافى مع طبيعة الرسالة و مهمة الرسول ..

و لعل الأمر يزداد وضوحا إذا ذكرت هنا آية أخرى فى هذا المقام- و لو أن الاستطراد سيطول- لكن هذه النقطة لا بدّ أن أوضحها تماما .. و لا أترك لها مخلفات فى الأذهان .. هذه الآية من سورة المجادلة تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢ «١»

كيف هذا؟

هل مناجاة الرسول و محادثته تقتضى أن يتصدق المتحدث قبل أن يقدم على مناجاته؟

---

(١) سورة المجادلة الآية ١٢.

علم التفسير، ص: ۵۷

أ ليس الرسول مبينا، و من مهمته أن يتحدث للناس و يستمع إليهم؟

بلى. من مهمته ذلك. و لكن حسن خلقه و سيره على طبيعته السهلة أطمع كل من حوله فى أن يتحدث معه، و يناجيه، و قد ينفرد به، و قد يشغله، و قد يقتحم عليه أوقات راحته، و قد يتحدث معه فى توافه الأمور، فكان تواضعه و حسن خلقه سببا فى إيجاد شىء من عدم الدقة فى فهم مقام الرسول، و ما ينبغى أن يكون عليه الحديث معه .. و لما يجب من توفير وقته للمهم من الأمور، أو كما نقول سببا فى «رفع الكلفة» فى الحديث معه، فكان لا بد من وقفة، أو من هزة تنبه الجميع إلى ما يجب أن يكون عليه الحديث مع الرسول، فليس هو مثلهم. إنه رسول .. و إذا كان قد رباه ربه على التواضع، فليس معنى ذلك أن تزيلوا كل حجاب، أو ترفعوا الكلفة بينكم و بينه و تشغلوا كل وقته بأسئلتكم و محادثاتكم.

إن مقامه عظيم، و مقام المحادثة معه عظيم، يقتضى أن يقدم من يريد الحديث معه صدقة. نعم. لا حجاب، و لا حراس، و لا استئذان و لكن صدقة من مال، أ فهمتم مقام الرسول؟ أ فهمتم خطورة التحدث معه؟ لا بد أن تتأدبوا. لا بد أن تحتاطوا.

و عرفوا قدر المحادثة مع الرسول و مناجاته و قيمة وقته، و أحجموا .. حتى أقرب الناس إليه و هو على رضى اللّه عنه، لما أراد أن يحدثه، قدم صدقة قبل أن يتحدث معه، ثم تحدث .. و كان المهم أن يعوا هذا الدرس، و يعلموا أنهم يتحدثون مع رسول اللّه، و لا بد أن يكون الحديث جديا مناسبا لمقامه.

و قد فهموا هذا و وعوه، ثم أدركتهم رحمة اللّه سريعا و أعفتهم من هذه الصدقة، لكن بعد أن فهموا و تعلموا، فقال اللّه لهم أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ١٣ «١»

و منه حفظكم لمقام الرسالة و الرسول و تأدبكم فى الحديث معه.

---

(۱) المجادلة/ ۱۳.

علم التفسير، ص: ۵۸

و فى معنى هذا أيضا يقول اللّه «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا «من أواخر سورة النور، و قوله فى أوائل سورة الحجرات «يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون، إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول اللّه أولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى لهم مغفرة و أجر عظيم، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات (كما ينادون أمثالهم) أكثرهم لا يعقلون، و لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم».

أدب مع النبوة يجب أن تتأدبوا به. فلما غفلوا عنه غضب الرسول و غضب اللّه له. حتى لا يكون هؤلاء (المتنطعون) سببا فى الإثقال على غيرهم .. كما قال اللّه «إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ، وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ». و كما قال الرسول:- «لو قلت نعم لوجبت، و لما استطعتم».

و لقد كان هذا الدرس نافعا و مفيدا، بل ذهب إلى نفوس الصحابة إلى أكثر من مداه .. و هذا هو شاهدنا و موضع هدفنا من الآية و أثرها ..

فلقد تخوف الصحابة من السؤال، أى سؤال، و تحرجوا منه، مما يمكن أن نعده رد فعل لما كانوا عليه أولا، قبل أن يغضب الرسول و تنزل الآية .. فقد أداهم الخوف و الخشية إلى أن يحجموا عن الأسئلة، خوفا من أن يبدو منهم ما قد يكون محل مؤاخذة فآثروا العافية .. و الرواية الآتية تبين لنا إلى حد آثروا العافية و تخوفوا الأسئلة ..

روى مسلم فى صحيحه عن أنس رضى اللّه عنه قال «كنا نهينا أن نسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عن شىء، و كان يعجبنا أن يجئ الرجل الغافل من أهل البادية (أى الذى لم يبلغه أمر النهى كما بلغنا) فيسأله و نحن نسمع «۱»، و أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى أمامة قال:- «لما نزلت، يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء» الآية، كنا قد اتقينا أن نسأله صلى اللّه عليه و سلم فأتينا أعرابيا،

---

(۱) عن تفسير المنار ح ۷ ص ۱۴۸ نقلا عن فتح البارى.

علم التفسير، ص: ۵۹

فرشوناه برداء و قلنا سل النبى صلى الله عليه و سلم و الأعرابى ليس بملتزم بما يلتزمه المقيمون مع الرسول .. و الرشوة هنا ليست هى الرشوة المحرّمة طبعا، بل هى تحريض على خير يريدونه و لا يستطيعونه.

و روى مسلم أيضا عن النواسى بن سمعان قال: «أقمت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم سنة بالمدينة ما يمنعنى من الهجرة إلا المسألة، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل النبى صلى اللّه عليه و سلم».

فلم يتخذ النواسى صفة المقيم بالمدينة حتى لا ينطبق عليه ما ينطبق على المقيمين مع الرسول من تحشم و احتياط فى الأسئلة، و ظل سنة ضيفا، دون أن يأخذ حكم الإقامة، لتكون له الحرية فى سؤال الرسول عما يريد. لأن الحرج كان خاصا بالمقيمين لا بالوافدين؟؟؟ .. لأنهم يتزودون بالعلم و يرحلون، و تسامح معهم أكثر مما يتسامح مع المقيمين.

و روى أبو يعلى عن البراء «إن كان ليأتى على السنة، أريد أن أسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم عن الشىء فأتهيب، و إن كنا لنتمنى الأعراب، أى قدومهم، ليسألوا فيسمعوا هم الأجوبة عن أسئلة الأعراب فيستفيدوا منها ..

إلى هذا الحد بلغ رد فعل هذا الدرس الذى فهموه من الآية: إحجام عن السؤال مع رغبتهم الشديدة فيه، حتى يحرضوا الأعرابى، ليسأل بدلهم، و يغروه بشىء فى مقابل السؤال، و استماعهم معه للجواب .. مبالغة فى الأدب، مع حرص شديد على الاستفادة ..

و مع أن الآيـة- كما يفهم من مـدلولها- لم تنههم عن السؤال أيا كان موضوعه، بل نهتهم عن أسـئلة من نوع خاص، بينته لهم «إن تبد لكم تسؤكم» كما أن الحالـة التى نزلت الآيـة تعالجها كانت مفهومـة عندهم، أقول و مع ذلك أحدثت الآية فى نفوسـهم رد فعل زائد عن الحد المطلوب فيها.

و لو أنهم- مع هـذا المعروف عنهم- لم يغفلوا أول الأـمر عمـا كـان يجب عليهم من مراعـاة مقام الرسول، و الحفاظ على وقته الثمين، الـذى يجب صـرفه كله للأمور المهمـة، لما حصل هـذا كله .. و لكنه درس لهم، و لكل من أتى أو يأتى من بعـدهم، حتى لا تشـغلهم التوافه عن العظائم، و لا يتشددوا فيشدد اللّه

علم التفسير، ص: ۶۰

عليهم، و حتى يوفروا للعلماء و لمن يدبرون لهم الأمور أوقاتهم، و ينزلوا الناس منازلهم.

و نعود بعد هذا لنتساءل- هل معنى هذا أنه لم يعد بعد نزول الآية استفسار من الصحابة للرسول عن أمور تهمهم فى دينهم؟

. لا .. إذ لا يمكن أن تزول ظاهرة السؤال و الجواب .. ما دام الرسول حيا .. ينزل عليه الوحى بتشـريعات جديـدة، تحتاج أحيانا- ولدى بعض الناس على الأقل- إلى استفسار و توضيح ..

فما معنى تهيب هؤلاء، حتى كانوا يستعينون بالوافدين عليهم، أو ينتظرون قدومهم، ليسمعوا أسئلتهم و جواب الرسول عنها؟

الـذى أفهمه من جملـة النصوص و من طبيعـة الرسالة معا أنه حدث تهيب عام من الأسـئلة بعد نزول الآية، لم يمتد إلى الضـرورى مما تمس الحاجة إلى السؤال عنه .. و لكنه وضع حدا للسؤال فيما لا تمس الحاجة إليه، و لا تتوقف صحة العقيدة و العمل عليه .. بالإضافة إلى أن بعض النـاس رأى من باب الأحوط أن يأخـذ نفسه بعـدم السؤال عن شـىء، خوفا من الوقوع فى الحرج، مكتفيا بما يسـمعه من سؤال الوافدين على الرسول، و إجابته لهم، أو ببيان صحابى له، يكون أكثر إدراكا و فهما منه ..

و مما لا شك فيه أن هـذا الجو الـذى أحـدثه نزول هذه الآية كان له تأثيره فيما يتصل الاسـتفسار عن بعض ما فى القرآن من ألفاظ و موضوعات ذكرنا شـيئا منها و تساءلنا- كيف تمر فى عهد الرسول، دون أن يسأل أحد من الصحابة عنها و دون أن يصلنا شىء موثوق به عن معناها و تفسيرها، و كان من الممكن- لو وجد- أن يقطع كل خلاف بين العلماء حول تفسيرها ..

علم التفسير، ص: ۶۱

فى قلوبهم مرض

اشارة

و مع ذلك لم تكن هذه الآية هى كل ما فى الموضوع، بل كان هناك غيرها، يشاركها فى تأثيرها.

و أعنى بها قوله تعالى

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتـابَ مِنْهُ آیـاتٌ مُحْکَمـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتـابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهـاتٌ فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَهِٔ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ ۷ «۱»

و قد كان سـبب نزول الآيـة نقاشا دار بين النبى عليه الصـلاة و السـلام، و بين و قد نصارى نجران، فى شأن عيسـى عليه السـلام، كانت نتيجته إفحامهم، فلجئوا إلى الجدال و المراء فقالوا: أ لست تقول إنه من روح الله و كلمته؟ قال:

بلى، قالوا: هـذا حسـبنا .. فنزلت الآيـة تنـدد بهم لوقوفهم- خدمة لهواهم- عند ما ورد فى القرآن من أنه روح الله و كلمته، غير ناظرين إلى الآيات الأخرى المحكمة التى تبين حقيقة عيسـى عليه السـلام، مثل قوله: «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه» فى سورة الزخرف المكية، و

غير ذلك من الآيات التى تبين حقيقة ولادته و بشريته مثل «إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتانِیَ الْكِتابَ ..» «۲».

و نلاحظ أن الآیة توجه حملتها على الذین یعمدون إلى الألفاظ المتشابهة ..

مثل هؤلاء .. فیؤولونها حسب هواهم، بقصد إثارة الفتنة .. و ابعاد الناس

---

(۱) أوائل سورة عمران.

(۲) سورة مریم الآیة ۳۰.

علم التفسیر، ص: ۶۲

عن الحق .. «فأما الـذین فی قلوبهم زیغ فیتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنـة و ابتغاء تأویله» على حسب هواهم، مع أن هناک آیات أخرى تحول بینهم و بین اتباع الهوى .. و لکنهم یتعامون عنها، و یهملونها، انتصارا لرأیهم، و تلبیسا على العوام، و جذبا لهم ...

و فی مقابـل ذم هؤلاء الـذین یتعـامون عن الحقـائق، و یثیرون الفتن، ذکر الله طائفـة أخرى لاـ تـذهب مـذهب الأولین فی إثارة الفتن بالمتشابه بل تؤمن به إیمانها بالمحکم، باعتبار أنهما صادران عن الله سـبحانه، و سـماهم الراسـخین فی العلم، أی الراسخین فی علمهم بالله جل جلاله، و بالتالی فی إیمانهم به. فقال تعقیبا على الأولین و بیانا لموقف الآخرین (وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ). ربنا (أی یـدعو الراسـخون المؤمنون ربهم قائلین) لا تزغ قلوبنا بعـد إذ هدیتنا وهب لنا من لدنک رحمة إنک أنت الوهاب، لفرط إیمانهم و اعتصامهم بربهم.

و بذلک وضح موقف فریقین من الناس: فریق یعمد للمتشابه لیؤوله تأویلات فاسدة یقصد منها إثارة الفتن، و فریق یؤمن به کما یؤمن بالمحکم من الآیات.، و الفریق الأول مذموم.، و الفریق الثانی ممدوح.

و یؤکـد هـذا حـدیث روته السـیدة عائشـة رضـی الله عنها تقول فیه: (تلا رسول الله صـلى الله علیه و سـلم هذه الآیة و قال: (فإذا رأیت الذین یتبعون ما تشابه منه فأولئک الذین سمى اللّه فاحذرهم.

و مع أن الآیـة و الحـدیث- کما رأیت- یذمان الذین یتبعون المتشابه، و یؤولونه تأویلا یثیر الشـبه و الفتن، و لا یتناولان الذین یسألون عن المتشابه سؤالا بریئا بقصـد الفهم، أو الـذین یـذکرونه، و یردونه إلى المحکم، و یفهمونه على ضوئه، أقول مع هـذا أصبح السؤال عن المتشابه أو الحدیث عنه مثیرا لعلامة استفهام حول صاحبه، أو واضعا له موضع الریبة فی إیمانه، حتى تتبین حقیقته ...

و لـذا کـان من الطبیعی أن یتحاشـى المخلصون الصـادقون هـذه الریبـة، و یبتعـدوا ما أمکن عن الکلام حول المتشابه و یکتفوا بالفهم الإجمالی، رادین کل

علم التفسیر، ص: ۶۳

مـا یسـمعونه أو یقرءونه منه، إلى إیمـانهم العمیق بـالله جـل جلاـله. و تسـلیمهم المطلق بکل ما ورد فی القرآن، و لو لم یفهموا حقیقة المراد منه، حتى یکونوا ممن مدحهم الله.

فمثلا الآیات التی تتحـدث عن مشـیئة الله و مشـیئة العباد. و عن قضاء الله و أفعال العباد. فیها آیات ترد کل شـیء إلى الله «و ما تشاءون إلا أن یشاء الله» ..

و آیـات تضـیف العمـل إلى الإنسـان «کـل امرئ بمـا کسب رهین» فکیف نوفق بین مشـیئة الله، و قضائه و قـدره بالنسـبة لعباده، و بین محاسبة العبد على ما یفعل؟

هذه القضیة التی شغلت الناس قبل الإسلام و بعده، و إلى الآن، و إلى ما شاء الله من أزمان و أجیال ..

و فی غمرة الاختلاف حول هـذه القضـیة نتمنى- حسب تفکیرنا- أن لو أثار الصـحابة هـذه القضـیة لیجدوا لهم و لنا حلها من الرسول صلى الله علیه و سلم.

و لکنا لم نرث هذا البیان، و لو کان .. لورثناه ..

و بالإضافة إلی هذا نجد توجیها من الرسول فی هذا: «إذا ذکر القدر أو القضاء فأمسکوا» «۱» أی و لا ـ تخوضوا فی البحث عنه .. و لذلک کان الخلفاء بعد الرسول یطاردون کل من یثیر کلاما حول القدر، بعد اتساع رقعة الإسلام.

و عن صفات الله، و ما ورد عنها فی القرآن من الوجه، و الید و العین و السمع و البصر .. الخ- مما یدل علی المشابهة، و یفید فی ظاهره التجسیم، و هو محال، بنص الآیة الأخری «لیس کمثله شیء» فما ذا تفید- إذن- و ما المراد بها؟.

کان الکلام فی هذه الناحیة و الاسترسال فیه مما حظره الرسول، فوق أنه یثیر شبها حول صاحبه .. و لذا لم نجد من یسأل عن حقیقة الوجه و الید .. الخ ..

بل آمنوا بها کما وردت مع إیمانهم بأنه لیس کمثله شیء ...

یقول العالم المحقق شاه ولی الله الدهلوی فی کتابه (حجة الله البالغة) ص ۱۳۴ ج ۱ بعد أن تکلم عن هذه الصفات: (و الحق فی هذا المقام أن النبی صلی

---

(۱) رواه الطبرانی من حدیث ابن مسعود بإسناد حسن.

علم التفسیر، ص: ۶۴

الله علیه و سلم لم یتکلم فیه بشیء، بل حجر (أی منع) أمته عن التکلم فیه، و البحث عنه، فلیس لأحد أن یقدم علی ما حجره).

و قد روی أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه ضرب رجلا یقال له (صبیغ)، لأنه کان یسأل عن متشابه القرآن، و ما زال به حتی تاب ..

یقول الإمام الشاطبی فی کتابه (الموافقات) الجزء الثانی ص ۸۷ فی فصل عقده لبیان أن الاعتناء بالمعانی المبثوثة فی الخطاب هو المقصود الأعظم:

(و من المشهور تأدیبه لصبیغ حین کان یکثر السؤال عن (المرسلات) و (العاصفات) و نحوهما).

و جاء فی مسند الدارمی ما یوضح ذلک حیث قال: «أخبرنا عبد الله بن صالح حدثنی اللیث أخبرنی ابن عجلان عن نافع مولی عبد الله، أن صبیغا (بالصاد المهملة) العراقی، جعل یسأل عن أشیاء فی القرآن، فی أجناد المسلمین، حتی قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلی عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالکتاب فقرأه فقال: أین الرجل؟ فقال: فی الرحل: فقال عمر: أبصر أن یکون ذهب، فتصیبک منی به العقوبة الموجعة. فأتاه، فقال عمر: تسأل محدثة؟ فأرسل إلی رطائب من جرید (أی لإحضارها)، فضربه بها، حتی ترک ظهره دبرة «۱». ثم ترکه حتی برأ، ثم عاد إلیه، ثم ترکه، حتی برأ، فدعا به لیعود إلیه، قال: فقال صبیغ: إن کنت ترید قتلی فاقتلنی قتلا جمیلا، و إن کنت ترید أن تداوینی فقد- و الله- برأت. فأذن له إلی أرضه، و کتب إلی أبی موسی الأشعری أن لا یجالسه أحد من المسلمین، فاشتد ذلک علی الرجل. فکتب أبو موسی الأشعری إلی عمر أنه قد حسنت توبته.

فکتب عمر أن یأذن للناس بمجالسته. و هذا کله لأنه أثار فی الناس أسئلة لم یعهدوها، و لیس من المناسب إثارتها ..

و فی روایة: فأتی بعراجین النخل فقال من أنت؟ قال عبد الله صبیغ، فأخذ عمر عرجونا من تلک العراجین فضربه و قال: أنا عبد الله عمر .. فجعل

---

(۱) بها قروح کما یفعل رحل الدابة بها من القروح.

علم التفسیر، ص: ۶۵

له ضربا حتی دمی رأسه. فقال: یا أمیر المؤمنین حسبک. قد ذهب الذی أجد فی رأسی ...

و هذه الروایة و تلک لهما دلالتهما فی موضوعنا .. و لا سیما فی قول عمر للرجل یؤنبه: تسأل محدثة؟ أی أ تثیر بین الناس أمرا جدیدا

لم يتعودوه قبل ذلك؟ و هو السؤال عن معنى قوله تعالى «وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً» .. و نحوهما.

مما يدل على أن مثل هذه الأسئلة لم يكن من المعتاد أن يسألها الصحابة فى زمن الرسول، و حتى عهد عمر .. بل كانوا يعتبرونها تكلفا يثير الشبهة ... و فى الاهتمام بإرسال الرجل من مصر الى المدينة، و ضرب عمر له، ثم فى أمره لأبى موسى بعزله عن المسلمين، ما يعطينا دلالة قوية على سوء النظرة فى ذلك الوقت، إلى كل من يثير مثل هذه الأسئلة .. و دلالة على مقدار حرص عمر و ولاته، على تجنيب المسلمين الاشتغال بمعانى المرسلات و العاصفات و نحوهما، مما يعدونه متشابها، محافظة على النهج الذى كان فى عهد الرسول و خليفته أبى بكر، و لذلك أنكر عليه مسلكه و قال له: أ تسأل محدثة؟ لأنه يحدث فى الوسط الإسلامى ما لم يتعوده .. و لهذا أيضا نجد الإمام مالك يقول فى الرد على من يسأله عن معنى (الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى)، الاستواء معلوم، و الكيف مجهول، و السؤال عنه بدعة.

و حينئذ لا بد أن يرد على ذهن القارئ سؤال: كيف إذن كانوا يفهمون مثل هذا؟

و جواب هذا .. أنهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى، و ما يفيده السياق فى مثل هذه الأمور و غيرها، مما لا يتعلق بها حكم تكليفى محدد. فمثلا .. القسم بالمرسلات و ما بعدها من العاصفات و الناشرات و الفارقات .. يفهمون أنها أشياء عظيمة، يقسم الله بها على أمر مهم، و هو: البعث .. لا يهمهم المراد بالعاصفات. كما عنى بها من بعدهم و قالوا: الرياح، أو الملائكة، و لم يتفقوا على رأى، لأنهم يجتهدون فى بيان المراد، و لكل اجتهاده. فكان الصحابة لا يخوضون فى بيان المراد تحديدا، بل يرون أن ذلك تكلف لا يصح الاشتغال به، ما دام المعنى الكلى مفهوما، و ليس هناك ما يوجب فهم المراد بالمفردات ..

علم التفسير، ص: ۶۶

[مثل آخر]

و مثل آخر يوضح هذا و يؤكده، و هو لا يتعلق بالمتشابه، بل يتعلق بكلمة عادية، و لهذا دلالته فى موضوعنا، روى أن عمر رضى الله عنه قرأ (وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا) من سورة (عبس) فقال و ما الأب؟ ثم قال: ما كلفنا هذا، مع أن الأب ليس من المتشابه، و لكن عمر رأى السؤال تكلفا منهيا عنه، إذ لا بد أن الأب نبات خلقه الله، و هذا يكفى. و الشاهد أن عمر كان من حفاظ القرآن .. و قرأ هذه الآية مرات .. حتى سأل نفسه أخيرا هذا السؤال، ثم استدرك و أعلن أن البحث عن مثل هذا تكلف لا داعى له، بل نهوا عنه ...

و عمر بلا شك كان يدرك المعنى الإجمالى. و هو العبرة المستمدة من خلق الله هذه الأشياء: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَ عِنَباً وَ قَضْباً وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا. وَ حَدائِقَ غُلْباً وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ» «۱» فالأب لا يخرج عن كونه نباتا جعله الله مع ما ذكره من أنواع ما تنبته الأرض «متاعا لكم و لأنعامكم» أما ما هو بالذات .. فلم يكن يعرفه عمر كما روى، و الاشتغال بمعرفته تكلف كما قال .... و المعنى العام لا يتوقف على معرفته ..

و قد رويت حادثة السؤال عن (الأب) بتشديد الباء، بروايات مختلفة فى بعضها زيادات عن البعض الآخر و كلها توضح المعنى الذى نريده .. ففى رواية أن عمر رضى الله عنه سأل نفسه عن الأب. ثم قال: ما كلفنا هذا، كما سبق، و رواية تقول: أن رجلا سأل عمر، فقال له عمر: نهينا عن التكلف و التعمق .. و فى رواية أن عمر قرأ (وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا) فقال هذه الفاكهة عرفناها، فما الأب؟ .. ثم استدرك و قال: هو التكلف. فما عليك أ لا تدريه ..

و قد أورد الإمام الشاطبى روايتين من هذه الروايات، و ضم إليهما رواية تأديب عمر لصبيغ، لسؤاله عن المرسلات الخ .. ثم قال: (و ظاهر من هذا كله أنه إنما نهى عنه لأن المعنى التركيبى معلوم على الجملة، و لا ينبنى على فهم هذه الأشياء حكم تكليفى فرأى الاشتغال به عن غيره مما هو أهم منه تكلف).

(۱) سورة عبس ۲۴ و ما بعدها.

علم التفسير، ص: ۶۷

ثم قال «فلو كان فهم اللفظ الافرادى يتوقف عليه فهم التركيبى لم يكن تكلفا (أى لم يكن السؤال تكلفا) بل هو مضطر إليه، كما روى عن عمر نفسه فى قوله تعالى «أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ» فإنه سأل عنه على المنبر، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا هو التنقص. ثم أنشد:

تخوف الرحل منها تامكا قرداكما تخوف عود النبعة السفن «۱»

(أى أن رحل الناقة أخذ من سنامها المتلبد- تنقص منه- كما يأخذ المبرد و ينقص من العود، بمعنى أزال بعضه فقال عمر: أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم فى الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ..)

و مع الدلالة التى أوردنا هذه الرواية لها .. نأخذ دلالة أخرى تؤكد ما سبق أن أوردناه .. و هو أن بعض الألفاظ من غير المتشابه ظلت غير مفهومة لحفاظ القرآن حتى توفى الرسول لعدم ورودها فى لهجتهم دون أن يسألوه عنها مع ملازمتهم له أو قربهم منه عليه الصلاة و السلام خوفا من رميهم بالتكلف، و الاشتباه فى إيمانهم، مكتفين بفهم المعنى العام التركيبى.

و هذا بالتالى يدلنا على أنه ليس بلازم للصحابى- و إن كان فى المقدمة- أن يحيط علما بكل المعانى الدقيقة لألفاظ القرآن .. كما نظن نحن الآن .. و ليس هذا ماسا بهم، لأنهم كانت لهم شواغلهم و أعمالهم، و كانوا يفهمون منه ما يتصل بالعقائد من الألفاظ الظاهرة المحكمة، و ما يتصل بالتكاليف. فهذا أمر ضرورى .. و يفهمون مما عدا ذلك كثيرا أو قليلا، كل على قدر استعداده .. و وقته فهما إجماليا. علما بأن القرآن عربى و هم عرب، و أقدر الناس على فهمه .. لكن هذا لم يمنع أن تكون هناك ألفاظ لها معان خفيت على بعضهم، أو لها مراد لم تصل إليه عقولهم لأنها تتحدث عن أمور لم يألفوها، و لم يسألوا عنها، تحاشيا من الوقوع فى التكلف الذى نهوا عنه، أو من الاشتباه فيهم ...

---

(۱) التامک: المرتفع من السنام. القرد: المتلبد. النبعة: شجر. و السفن: المبرد و نحوه.

علم التفسير، ص: ۶۸

فى حدود ثقافة الصحابة فهموا القرآن

اشارة

«نحن أمة أمية لا نحسب و لا نكتب» (حديث)

المستوى الثقافى

و من الضرورى أيضا أن نلاحظ المستوى الثقافى الذى كان عليه الصحابة و تلقوا به القرآن الكريم أو فهموه على ضوئه.

و هو عامل مهم .. لأنه على قدر وعى الانسان و ثقافته، يكون فهمه لما يقرأ، أو يسمع، أو يكون حسن استقباله له، و وضوحه عنده، كأجهزة الاستقبال. فعلى قدر سلامتها و قوّتها، يكون وضوح ما تتلقاه، أو تستقبله ..

و نحن ندرك من واقعنا أن الخطبة تلقى على المستمعين، فيأخذ كل منها على قدر ثقافته و وعيه، و أن الكتاب يقرأ، فلا يكون الجميع متساوين فى فهمه و استيعابه. بل على قدر ثقافة السامع أو القارئ يكون الفهم، و يكون الاستيعاب.

هذه حقيقة أولى لا جدال فيها ..

الحقيقة الثانية: أن القرآن عربى و فى أعلى درجات البلاغة. و هو بلغة القوم الذين نزل فيهم أولا.. و خاطبهم و تحداهم .. فمن الطبيعى أن يفهموه (وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) «۱»

و لقد فهموه، و أدركوا بلاغته، و عرفوا منها مصدره (فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ)، آمن به من استجاب لفطرته، و صد عنه من قامت الحوائل عنده دون الاستجابة لهذه الفطرة، و لكنه كان فهما قائما على ما أتقنوه من فنون المعرفة و كان أولها و أهمها: الناحية البلاغية اللفظية.

---

(۱) سورة إبراهيم/ ۴.

علم التفسير، ص: ۶۹

الحقيقة الثالثة: أن أهم ما جاء القرآن من أجله هو العقائد و الأحكام، و ما يتصل بها من مكارم الأخلاق، و من أجل توضيح العقائد و تدعيمها، و التدليل عليها، و تثبيت الداعين إليها، جاءت الآيات التى تتحدث عن دلائل قدرة اللّه فى خلقه، و الآيات التى تسرد قصص السابقين ...

أما الآيات التى تتحدث عن العقائد، كالإيمان باللّه و ملائكته، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر فهى آيات واضحة، يفهم مضمونها كل عربى، دون كبير عناء و بمجرد أن يسمعها أو يقرأها، حتى بعد أن ضعفت السليقة العربية فيهم، و ذلك فى حدود قدرته و تصوره، و أما آيات الأحكام و الأخلاق، فهى فى جملتها كذلك واضحة محددة، و تكفل الرسول أيضا بزيادة بيانها و توضيحها قولا و عملا ...

و مثل ذلك فى العقائد:

(إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ) (وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) (إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ) (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) .. (وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) .. إلى غير ذلك من الآيات التى يدرك العقل ما ترمى إليه.

و مثل ذلك فى الأحكام:

«و أحل اللّه البيع و حرم الربا» و «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه»، «يوصيكم اللّه فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين. إلى آخر الآيتين .. إلى غير ذلك من الآيات ..

و مثل ذلك فى الأخلاق:

«و بالوالدين احسانا و بذى القربى و اليتامى و المساكين و الجار ذى القربى» الآية. «ادفع التى هى أحسن».

فكانت هذه الآيات على قدر من الوضوح يكفى لالزام المخاطبين بمضمونها،

علم التفسير، ص: ۷۰

و بما دعت إليه من عقائد و أحكام، فإن كانت فى حاجة إلى زيادة تفاصيل تكفّل الرسول صلى الله عليه و سلم بها ..

و بقى بعد ذلك الآيات التى تتحدث عن المظاهر الكونية، و الآيات التى تتحدث عن قصص السابقين ..

و ينضم إليها كذلك الآيات التى تتحدث عن بعض صفات الله تفصيلا، كالاستواء و الوجه و اليدين، و المشيئة و الارادة .. الخ .. و يلحق بها الآيات التى جاءت غير واضحة و غير محددة .. مثل روح الله و كلمته. و مثل الم ...

و الر .. الخ

هذا النوع من الآيات هو فى الحقيقة موضوع الحديث الذى عنينا بتوضيحه فى هذه البحوث ...

و هو الذى تساءلنا عن مدى فهم الصحابة له، أو استيعابهم فهمه، و تحدثنا عن عوامل أثرت فى فهم الصحابة له و بقى آخر هذه

العوامل .. و هو القدر الثقافى الذى استقبلوا هذه الآيات به ..

بعثت إلى أمّة أميّة:

و هـذا يستدعى منا أن نعرف ما كان عليه العرب من ثقافة علميـة و تاريخيـة، استقبلوا بها الآيات الكونية و القصصيـة و بعض الآيات الأخرى المتشابهة ..

لقد جاء القرآن الكريم يصف العرب بأنهم أميون، و وصف الرسول بأنه أمي.

فيقول الله تعالى فى أول سورة الجمعة «۱»

هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ ۲

---

(۱) سورة الجمعة الآية الثانية.

علم التفسير، ص: ۷۱

و يقول فى سورة الأعراف

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ «۱»

و يقول تعالى فى سورة العنكبوت: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ ۴۸ «۲»

و يقول عليه الصـلاة و السـلام: (نحن أمـة أميـة لا نحسب و لا نكتب. الشـهر هكـذا و هكـذا) «۳» و أشـار بأصابعه، يعنى مرة تسعة و عشرين و مرة ثلاثين.

و يقول عليه الصلاة و السلام مخاطبا جبريل: (إنى بعثت إلى أمة أميين) «۴» أو (إنى بعث إلى أمة أمية)

و لعل أصح تفسير لمعنى كلمة أمية و أميين هو ما فسرها به الرسول صـلى الله عليه و سـلم و عناها حين قال لا نحسب و لا نكتب .. و هو ما وضحه الإمام الشاطى «۵» حين قـال: و الأـمى منسوب إلى الأـم، و هو البـاقى على أصل ولادة الأم لم يتعلم كتابا و لا غيره، فهو على أصل خلقته التى ولد عليها.

و ليس معنى هذا جهلهم التام بأمور الحياة، و بما يكتسب منها بالتجارب و العقل، بل معناه أنه لم يتعلم بطريق الكتابة و القراءة شـيئا، و هو الذى فسـرته الآية الأخرى عن وصف الرسول بالأمى «و ما كنت تتلو من قبله من كتاب و لا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون» و من أجل هذا جاء وصف الرسول فى القرآن من حاله، و دفعا لأى شك فى صحة رسالته و نزول القرآن من ربه. علم التفسير ۷۱ بعثت إلى أمة أمية: ..... ص : ۷۰

---

(۱) سورة الأعراف آية ۱۵۸.

(۲) سورة سورة العنكبوت آية ۴۸.

(۳) كما جاء فى صحيح البخارى فى كتاب الصوم عن ابن عمر رضى الله عنه.

(۴) كما جاء فى الترمذى فى أنزل القرآن على سبعة أحرف.

(۵) ص ۶۹ ج من الموافقات.

علم التفسير، ص: ۷۲

فالعرب الذين نزل عليهم لم تكن الكتابة و القراءة منتشرة عندهم انتشارها عند الأمم المتحضرة حولهم، و بالتالى لم يتمكنوا من دراسة العلوم التى كـانت معروفـة عنـد غيرهم من الفرس أو الروم فى ذلك الوقت، فكان كل ما يتناقلونه بينهم من الطب و الفلك و غيرهما،

لا يمكن تسميته علوما إلا تجاوزا، لأنه كان مكتسبا عن طريق تجاربهم و ملاحظاتهم الخاصة. المنبعثة من البيئة و حاجاتها و ظروفها. مما يعينهم على حياتهم البدوية، من الاستدلال بالنجوم على معرفة الجهات، و على تعيين الوقت، كما قال اللّه «و علامات و بالنجم هم يهتدون» و ما كانوا يداوون به مرضاهم بطريق التجربة، و التناقل فيما بينهم، مما يمكن أن تجد له شبيها الآن في البيئات البعيدة، المنعزلة عن المدينة، المحرومة مما وصل إليه العلم من تقدم ..

على أن هذه المعرفة المحدودة لم تكن عامة شائعة لدى العرب جميعا، بل كانت قاصرة على بعضهم أو خاصتهم، ممن كانت الحاجة تدعوهم إلى معرفتها، و لعل هذا الوصف (الأمية) قد غلب على العرب، حتى لم ير الرسول بدا من الاحتجاج به عند ربه، و هو يخاطب جبريل كما في الحديث السابق، كما صرح به أيضا، و هو بصدد معرفة أيام الشهر .. و لهذا جرى على لسان اليهود حين قالوا: (لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) يقصدون في كلامهم هذا .. العرب، و إن كان هذا مبدأ عاما عندهم في معاملة غير اليهود، لا يرون بأسا في نهب أموالهم .. لكن الآية تحكى حال اليهود الذين يعاملون العرب، و يطلقون عليهم هذا الوصف (الأميين) ..

و كذلك كان لهم بالنسبة لتاريخ الأمم قبلهم مما قصه القرآن، فلم يكن لهم به معرفة سابقة، و ذلك هو ما تخبر به هذه الآية الكريمة بعد أن سبقها ذكر قصة نوح (تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) «۱»، و في قصة مريم و زكريا: (ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ

---

(۱) آية ۴۹ من سورة هود.

علم التفسير، ص: ۷۳

الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ، أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) «۱».

حتى ليمكننا أن نقول إنه لما كان عدم معرفة الرسول بالكتابة و القراءة ارتكازا لحجة من حجج رسالته، و نزول القرآن عليه من عند الله، كان عدم معرفة قومه بالعلوم و بالتاريخ ارتكازا آخر لحجة من حجج رسالته، و كون القرآن منزلا عليه من الله، إذ لم يكن من قومه من يعرف ذلك حتى يقال إنه تعلمه منهم.

فحين أراد أعداؤه المشركون الطعن فيه، و في صحة نزول القرآن عليه، قالوا: إن ما يقصّه من أخبار الماضين إنما هو من تعليم هذا الرومى المثقف المهاجر إلى مكة، المقيم فيها، فنزل القرآن يرد عليهم: (وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ، وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) «۲».

و لو كان لدى العرب عامة علم بهذه الوقائع، أو لو كان لدى خاصتهم علم بها، لما لجأوا إلى اتهام الرسول بالتعلم من هذا الرومى، أو لكروا بعد رد الله عليهم هذا الرد، بأنه يتعلم من فلان العربى صاحب اللسان العربى. و لكنهم لم يجدوا عربيا عالما أمامهم بهذه القصص، حتى يسندوا إليه تهمة تعلم الرسول منه ...

و هكذا كانت أمية الرسول و أمية قومه و عدم المامهم بالعلوم من ممهدات الرسالة، أو من ركائز صدقها، و دلائل صحتها ..

و لعل في هذا الكفاية في الدلالة على خلو البيئة العربية التي نزل فيها القرآن، من العلم بتاريخ الأمم و الرسل السابقين، و كانت أرقى بيئة عربية في الجزيرة في ذلك الوقت.

فكل ما ساقه الله سبحانه- اذن- من قصص الأمم السابقة، عن رسلها و الصالحين من عباده، إنما كانت قصصا بكرا لم يعرفها العرب من قبل. بل استمدوا معرفتها من القرآن وحده ..

---

(۱) آية ۴۴ من سورة آل عمران.

(۲) آية ۱۰۳ من سورة النحل.

علم التفسير، ص: ۷۴

هذه نتيجة أحب أن يتذكرها القارئ لأن لها أهميتها عند ما يقرأ ما جاء في تفسير قصص القرآن، من أخبار زائدة من منطوق القرآن .. من أين جاءت و عمن رويت، لأنهم ما داموا قد علموا هذه القصص من القرآن. و في ثناياها أخبار طويت، لعدم الحاجة إليها في ابراز العبرة من القصة، فمن أين جاء العلم بها؟ هل سأل الصحابة عنها رسول الله و أجابهم؟ أو سكتوا، و اكتفوا، بالعبرة الظاهرة من القصة، دون أن يتابعوا تفاصيلها الخفية التي تركها القرآن؟ تلك التفاصيل التي رأيناها تثار فيما بعد، و يسأل عنها، لأن النفس البشرية فيها غريزة حب الاستطلاع، و هي تجري وراء هذه الغريزة، متى كان الجو صالحا و مساعدا. كما رأينا ذلك بعد عصر الفتوح و الاتجاه إلى الاستقرار و البحث، و لا سيما بعد دخول غير العرب في الاسلام و خاصة من اليهود و النصارى.

لم نجد الصحابة يتابعون هذه الأخبار التي طويت، أو هذه الفجوات التي تركت في القصة بسؤال الرسول عنها، و لم نجد فيما روى صحيحا عن الرسول، ما يشبع حب الاستطلاع الطبيعي لدى النفوس ...

فراغ سدوه بالاسرائيليات:

و من هنا وجد الفراغ الذي حاول المسلمون سده، بعد زمن الرسول، عن طريق علماء اليهود و النصارى، أو عمن ظنوهم علماء بالتوراة، و ربما لم يكونوا من العلماء، بل من النقلة المحرفين، الذين يحرفون و يزيدون، أو من عوامهم الذين يسمعون و ينقلون، و يستمع منهم المسلمون، حتى لتجد كتب التفسير محشوة بتفاصيل لهذه القصص، لم يذكرها القرآن و لكنها مأخوذة عن هؤلاء مما اشتهرت تسميته: بالاسرائيليات. و بعض هذه الاسرائيليات تجدها معزوة إلى ابن عباس و غيره من الصحابة و التابعين- كما قلنا من قبل- مما يوهم روايتها عن الرسول صلى اللّه عليه و سلم. و ما هي كذلك .. و إنما هذا هو مصدرها الذي أتت منه: أولا: اليهود الذين أسلموا و نصبوا من أنفسهم أو نصب منهم المسلمون معلمين، مخبرين بما لم يذكره القرآن من تفاصيل القصص، و ثانيا: الذين لم يسلموا و اطمأن المسلمون إلى أقوالهم ..

علم التفسير، ص: ۷۵

الآيات الكونية:

بقي معنا الآيات التي تتحدث عن مظاهر قدرة الله في خلقه: في الإنسان، و في السماء و الأرض، و تلفت النظر إلى التدبر فيها حتى يصل العقل من خلال ذلك إلى الإيمان بقدرة الله الواحد. هذه الآيات تتحدث عن سنن الله في كونه: و عن بعض الظواهر التي يراها الانسان، و يستطيع العربي العادي، أن يأخذ منها عبرة عامة. و هذا كاف في الهداية و الاتعاظ، و لكنها تحوي اشارات إلى حقائق علمية، تظهر لدارس القرآن، كلما تقدم العلم، و كشف شيئا من أسرار هذا الكون ...

و مما لا شك فيه أن العرب حين نزول القرآن لم تكن عندهم قدرة لتفسير هذه الآيات على الأساس العلمي الذي أمكن أو يمكن أن نفسر به بعضها الآن إذ لم يكن عندهم معلومات علمية يستقبلون بها هذه الآية كما يستقبلها اليوم بعض علماء الطب و الفلك و الزراعة و الجيولوجيا .. أو كما استقبلها بعض المسلمين العالمين بهذه العلوم في العصر العباسي و ما بعده

لم تكن عندهم طاقة لفهم الدقائق التي يفهمها هؤلاء العلماء اليوم، و لذلك لم يفهموها إلا فهما إجماليا أو لم يتناولوها بالشرح إلا على قدر جهدهم.

و كذلك علماء التفسير الذين فسروا القرآن حتى الآن تقريبا. إلا قليلا جدا.

اكتفوا بالتفسير اللفظي البلاغي النحوي، مع النظرة العامة للمظاهر التي تتحدث عنها الآية، و يفهمها المفسر و يبرز العبرة منها .. و ربما أضافوا للتفسير شيئا مما سمعوه من الاسرائيليات التي لبست عليهم، كما فسروا مظاهر الرعد و البرق و غير ذلك مما نراه و ننكره في

كتب التفسير التى بين أيدينا ..

و من المعروف أنه على قدر تفتح الذهن، و على قدر المحصول العلمى للانسان، يكون اتجاهه فى المعرفة و السؤال عما يتطلع إلى معرفته ..

فالريفى الجاهل فى القرية الذى لم يقرأ و لم يكتب لا يستطيع و هو يسمع الإذاعة و يشاهد التليفزيون أن يتجه ذهنه إلى السؤال عن دقائق صنع المذياع و التلفاز، كما كان يؤثر المرحوم الدكتور أحمد زكى أن يسميه، أو المرناء كما كان

علم التفسير، ص: ۷۶

يسميه المرحوم الأستاذ محمود تيمور. و لكنه ينظر نظرة هامة فى الجهازين و هما يؤديان عملهما. و يستدل من ذلك على قدرة العقل البشرى الذى صنعهما. و حتى لو ظهر منه سؤال- فلتة أو اعتباطا-: كيف يتم نقل الصوت و الصورة؟ فإن من غير المناسب أن يجلس العالم بذلك، فيشرح له دقائق هذه العملية، لأن عقله لا يستوعبها، و ليس لديه أساس علمى يمكن أن يقوم عليه هذا الشرح ..

. فالاشتغال بذلك- اذن- مضيع للوقت، و مجاف للحكمة. و لذلك يكون من الحكمة توجيه الجواب وجهة يحتملها عقله، و هذا هو ما سلكه القرآن الكريم.

سؤال عن الأهلة:

فقد روت لنا كتب التفسير فى أسباب نزول قوله تعالى: (يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ) ما يشبه هذا. قال معاذ بن جبل رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه و سلم: (ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ و يستوى، ثم لا يزال ينقص، حتى يعود كما بدا، لا يكون على حالة واحدة كالشمس) و جواب هذا السؤال عرفناه و نحن صغار ندرس حركة القمر الشهرية، و موقعه بالنسبة للشمس و الأرض، و رسمنا له الخريطة التى توضح أشكال القمر مع إظهار الجزء المنير منه، المواجه للشمس من ناحية، و ما يظهر لنا نحن سكان الأرض من هذا الجزء المنير الذى يؤدى إلى أشكال القمر التى يراها الناس جميعا، أعنى أن الجواب أصبح فى متناول الطلاب الصغار الآن ...

و لكنه وقت نزول القرآن، لم يكن من المناسب توضيحه للعرب، و ليست عندهم أوليات علمية عن الشمس و الأرض و القمر من هذه الناحية .. و لم يكن لدى الرسول صلى الله عليه و سلم كذلك علم بأسباب هذا التغير، لأن علمه ليس من مهمته. و كان من الممكن أن ينزل القرآن به، كما نزل بكثير من الأجوبة، التى كان لا- يعرفها الرسول، و لكنا نرى القرآن حين ينزل بالرد عليهم، يتجه وجهة أخرى، غير ما سأل عنها معاذ، و هى بيان فوائد حركة القمر لنا .. (قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ)؛ لأن هذا هو الذى كان يمكنهم فى ذلك الوقت فهمه ..

علم التفسير، ص: ۷۷

و لهذا قال علماء البلاغة فى هذا الجواب إنه من الأسلوب الحكيم .. أى الجواب بغير ما سأل عنه السائل، لصرفه عن موضع سؤاله، ايحاء له بأن كلا- من سؤاله و الجواب الحقيقى عنه غير مناسب، بل المناسب أن يسأل عما كان الجواب فعلا عنه .. و هو فائدة تغير القمر بهذه الأشكال التى نراها .. حتى قال بعض المفسرين فهما لقوله تعالى عقب ذلك مباشرة

وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها «۱» قالوا: إن ذلك يشبه أن يكون تقريعا لاتجاههم إلى ذلك السؤال، الذى لا يحتملون الاجابة الحقيقة عنه، و كان الأولى أن يقتصدوا فى الأسئلة، و لا يتعرضوا لما هو فوق طاقتهم العلمية .. فمثل هذا السؤال كمن أتى البيوت من ظهورها و قفز من نوافذها و سار إلى الشىء من غير طريقه المناسب له. و ليس هذا برا، و لكن البر أو الصواب هو اتقاء مثل هذه الأساليب، فى الأسئلة لعدم مناسبتها لكم ..

هكذا علل بعض المفسرين سر اتصال أجزاء الآية بعضها ببعض، و هو فهم فى الآية على كل حال، يقوم على حالة واقعة، هى عدم

معرفتهم بمسائل العلم التى تؤهلهم لادراك الجواب الحقيقى على سؤالهم ..

و هذا مثال من القرآن نفسه يوضح لنا ما نقول عن واقع الصحابة العلمى حين نزول القرآن ..

و النتيجة:

و الذى نريد أن نصل إليه من هذا كله:

أن الصحابة لم يكونوا مؤهلين بمعرفة عن تاريخ الرسل و أممهم فوق ما جاء فى القرآن. فكل زيادة فى هذه الناحية، إن ثبت ورودها عن الرسول قبلناها، و إلا أبعدناها عن تفسير القرآن، اللهم إلا إذا وجدنا حفريات و نقوشا تضيف لنا جديدا عمن تحدث عنهم القرآن ..

كما أن الصحابة لم يكونوا مؤهلين بمعرفة علمية عميقة أو شبه عميقة عن

---

(۱) البقرة/ ۱۸۹.

علم التفسير، ص: ۷۸

الإنسان، و مظاهر الكون أمامهم، و لهذا لم يخوضوا فيها بتفصيل، و لم يتحدثوا عنها، و إنما كانوا يكتفون بالعبرة، يأخذونها من منطوق الآية و من النظرة البسيطة إلى المظاهر الكونية أمامهم دون تعمق، فإذا جاء عنهم شىء فى ذلك فقد نقلوه من خارج البيئة الاسلامية، اسرائيلية أو غيرها ..

و قد جاء القرآن الكريم يخاطب العرب فى حالتهم تلك، بالأسلوب المناسب لهذه الحالة، فيأخذون منه قدرا يحرك فى نفوسهم الاتعاظ بما يحدثهم عنه، و يخاطب من هم أعلى منهم علما، و أدق نظرا، على درجاتهم المتفاوتة فى العلم و دقة النظر، فيكتسبون العبرة الظاهرة التى استفادها العرب الأميون، و لكنهم يزيدون عليها تأملات جديدة فى الآية على ضوء ما وصلوا إليه من علوم يقينية يجدون فى الآية إشارة لها و تحتملها ألفاظها ..

و من هنا أرى أن أولى الناس بتفسير الآيات الكونية إنما هم أهل العلم فى الطب و الفلك و الجيولوجيا و ما يشبه ذلك من علوم، على ألا- يتحدثوا عن آية إلا- باليقينيات من العلم، لا- بالفروض و النظريات. أما أرباب النحو و البلاغة فقد فسروها كما تدل عليه ألفاظها مع ما عندهم من علم عن الكون، استفادوه بالنظرة السطحية التى تشبه نظرة الصحابة، مع تفتح جاءهم على مرور الزمن حسب الجو العلمى الذى كانوا يعيشون فيه ..

و أعتقد أننا بهذا الذى أوردناه قد ألقينا ضوءا كاشفا عن حالة تفسير القرآن الكريم فى عصر الرسول، و عن المحصول الذى يمكن أن نخرج به من هذا، و عن العوامل المتعددة، التى جعلته محصولا يسيرا.

و من يدرى .. لعل فى ذلك جوانب من الخير كثيرة، أهمها: ترك الباب مفتوحا للعقول و على مر الزمن لتجتهد فى فهم القرآن على ضوء خبرتها و علمها، و تبرز لنا من أسرار الكون المكتشفة حديثا، ما أشارت الآيات إليه، و لم يدركه السابقون .. و هو خير يزيد المؤمنين إيمانا و يقينا ..

و من أراد أن يرجع إلى ما تركه الرسول صلى الله عليه من تفسير قليل.

فليرجع إلى أمهات كتب الحديث. باب التفسير ليقف على هذه الحصيلة القليلة، بجانب ما غصت به كتب التفسير بأجزائها و مجلداتها.

علم التفسير، ص: ۷۹

التفسير بعد عصر الرسول

اشارة

عصر الصحابة

و إذا كنا قـد عرفنا هـذا كله، فإن سؤالا يطرح نفسه علينا و هو: كيف كان الموقف بعـد وفاة الرسول صـلى الله عليه و سـلم من تفسير القرآن؟

و نستطيع أن نقول اجابة عن هذا السؤال: إن موقف الصحابة من فهم القرآن أيام الرسول كما عرفناه، و قد استمر بقوة الدفع بعد وفاته زمنـا توفرت الظروف فيه للاستمرار. و أقول توفرت الظروف فيه للاستمرار لأـن الظروف التى كانت فى أيام الرسول لم تستمر كثيرا بعد وفاته، كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد.

لقد كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه بعد الرسول من أكبر العوامل و أقواها للمحافظة على استمرار الوضع الذى كان أيام الرسول .. لأنه كان رضى الله عنه أكثر الصحابة شدة فى التزام الوضع السابق: فقال يجابه مانعى الزكاة «لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقـاتلتهم عليه» ثم رفض بكل شـدة أن يغير قيادة «أسامـة بن زيـد» للجيش الـذى كان قـد جهزه الرسول، و ولى اسامـة القيادة قبيل وفاته ..

و من هـذا المنطلق نستطيع أن نقول: إن أبا بكر رضـى الله عنه حافظ بشدة على الوضع الذى كان أيام الرسول بالنظر إلى الموقف من تفسير القرآن .. و لا سيما فيما يتصل بالمتشابه، و ما طوى من أحداث القصص التى ذكرها القرآن.

و هما أهم ما شغل العقول بالكلام و السؤال، لأن مجال القول فيهما كان متسعا .. و ذلك بخلاف ما يتصل بالعقائد المبدئية أو الكلية و الأحكام، فقد كانت الآيات فيهما واضـحة، و كانت السـنة النبوية العملية و القولية توضح المراد منه، فوق أن عملهم فى أيام الرسول جعل المراد من الآيات فى هـذا المجال، غير بعيـد عن أفهامهم فكانوا يجيبون عن الاسـئلة المتصـلة بهـذا الجانب، و هم متأكـدون من صحة ما يقولون، معتقدين أن هذا جزء من تبليغ الدين ..

علم التفسير، ص: ۸۰

و ذلـك بخلاـف مـا عـداه مما لم يرد فيه بيان نبوى، و لا تـدعو الحاجـة للخوض فيه فإنهم تورعوا عن الكلام فيه محافظة على النهج الذى ساروا عليه أيام الرسول .. و قد روى أن أبا بكر سـئل عن معنى آية من القرآن فقال: أى سماء تظلنى و أرض تقلنى، إذا قلت فى القرآن برأيى، أو بمـا لا أعلم. و قـد سـبق أن ذكرنا أن عمر رضـى الله عنه ضـرب واحـدا من المسـلمين ضـربا موجعا حتى كاد يؤدى بحياته و هو عبد الله بن صبيغ- لأنه كان يكثر من السؤال عن معنى- المرسـلات و العاصفات و الصافات، و لم يتركه حتى تاب و رجع عن هذا المسلك.

و مع هـذا روى أن أبـا بكر أجاب لما سـئل عن معنى (الكلالـة) الواردة فى موضـعين من سورة النساء، و أن عمر أيضا سأل عن معانى بعض الكلمات التى كانت خافية عليه كما سبق مثل (تخوف) فى قوله تعالى: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ» فى سورة النحل.

و هـذا يـدلنا على أن الكلاـم السـابق لأبى بكر (أى سـماء تظلنى) الـخ .. كان خاصا بناحيـة فى القرآن، و هى التى تتصل بالمتشابه أو بالمطوى من حوادث القصص، لأنه تحرج- جريا على النهج الرسولى- من الكلام فى هذه الناحية.

و لم يتحرج من تفسـير معنى الكلالـة الواردة فى آيتين من آيات المواريث، لأن ذلك يتصل ببيان ألفاظ أحكام عرفوها، و لا بـد لهم أن يبينوهـا .. أمـا تحرجه فيمـا تحرج عن الكلام فيه، فلأنه يحتاج إلى نقل صـحيح، و لم يكن هـذا النقل متوفرا لـديه، فعـدّ الكلام فيه حينئذ من أبواب الكلام بالرأى .. و هو لا يريد أن بخوض هذا المجال، تورعا منه، و تشبثا بالمنقول.

و كان سـلوك أبى بكر هو السـمت الغالب على الصـحابة فى عهـده و عهـد عمر تقريبا .. و امتـد بعـدهما و لكن عنـد الورعين الذين ألزموا أنفسهم حسن الاتباع

ثم بدأت الظروف تتغير:

فلو كان الاسلام ظل قاصرا على البيئة التى تركه الرسول فيها، لكان من الممكن أن يظل النهج الرسولى سائدا مسيطرا على الناس مدة طويلة

و لكن ذلك لم يكن، فقد اتسعت رقعة الاسلام، و دخله أناس يحملون

علم التفسير، ص: ۸۱

ثقافات و أفكارا، و نفسيات مختلفة، و اختلطوا بالصحابة فى المدينة، أو ذهب الصحابة إلى بلادهم، و لم يكونوا جميعا عربا، يفهمون العربية و القرآن بسليقتهم كالعرب، فاحتاجوا إلى بيان معنى ما يسمعون أو يقرءون، و لم يكونوا ملتزمين بالنهج الذى سار عليه الصحابة مع رسول الله ازاء القرآن و كان من الضرورى الاجابة عما يسألون أو يثيرون من شبهات، أو يطلبون من بيانات ..

و كان من هؤلاء الداخلين فى الاسلام جماعة لا- زال ماضيهم يشدهم إليه، فلم يكونوا مخلصين للدين الجديد، فأخذوا يثيرون الشكوك، و يزرعون الألغام فى طريق المسلمين المخلصين، حول القرآن و التعاليم الاسلامية بعامة ..

و كان بجوار هؤلاء نبت جديد فى البلاد العربية، أو بتعبير العصر، جيل جديد، لا شك أنهم كانوا أكثر تطلعا من الجيل السابق عليهم، و أكثر جرأة و تطلبا لفهم ما يغلق عليهم فهمه من القرآن الكريم.

كما أن الأحداث العنيفة التى أثارها النزاع حول الحكم فى وقت مبكر بعد وفاة الرسول، قد شغلت المسلمين بها، و أضعفت فيهم المثالية التى كانت سائدة من قبل، و أوجدت عند كل فريق رغبة فى التماس الحجة له من القرآن

و كان الموقف يقتضى الاقتصار على فهم الآيات بمقتضى أسلوبها العربى المفهوم لدى الصحابة أو تابعيهم من العرب، مع الاستعانة فى بعض الأحيان بما يكون قد روى عن الرسول .. ثم التوقف عن الخوض فيما لا يمكن الخوض فيه .. كآية متشابهة. أو حادثة مطوية فى قصة. أو ظاهرة كونية. كالرعد و البرق مثلا ..

و هذا بالفعل ما تمسك به الورعون من الصحابة و تابعيهم الذين التزموا النهج الأول. فكانوا يقلون من تفسير القرآن، و يتحرجون من الجرأة على الكلام فيه كأبى بكر، و يفوضون ما لم يعلموا رواية فيه عن الرسول، أو لم يكن ظاهرا واضحا عندهم، إلى علم الله .. معتبرين السؤال عنه بدعة، يجب على الانسان المؤمن البعد عنها. و هذا ما يبدو واضحا مما نعرفه من قول الامام مالك رضى الله عنه، لمن سأله عن معنى الاستواء، فى قوله: «الرحمن على العرش استوى» فقال الاستواء معلوم، و الكيف مجهول، و السؤال عنه بدعة.

علم التفسير، ص: ۸۲

كان هذا الجواب يمثل مسلك المتحفظين الذين يتهيبون ابداء رأيهم الخاص فى تفسير القرآن، و لا سيما الأمور المشتبهة فيه .. و لكن لم يكن من الممكن فرض هذا المسلك على المجتمع الاسلامى كله، مع الظروف التى طرأت عليه، و سبق أن أشرنا إليها، و التى ولدت تيارا جديدا فى هذا المجتمع، يفرض على العلماء فيه، أن يتحدثوا عما يثار من أسئلة، و عما تتطلع إليه النفوس من توضيح ما يشكل فهمه عليهم من القرآن، و الرد على بعض الشبه التى يثيرها المسلمون و غيرهم ممن اختلطوا بهم. حتى لا تظل هذه الشبه و هذه التساؤلات قائمة، تفعل فعل عوامل التعرية فى النفوس.

و هنا نجد الكثيرين ينشطون لسد هذه الثغرات، و ازالة هذه الشبهات، و ارضاء هذه التطلعات و لكنهم يسلكون الطريق الذى يكون أكثر تأثيرا على المجتمع أو الجمهور فيه، و هو طريق الرواية .. عن الرسول أو عن الصحابة ..

فإذا لم يجدوا .. نسبوا إلى الرسول أو الصحابة أقوالا .. وجد أن أكثرها غير صحيح النسبة بعد غربلته.

و كثيرا ما كانت هذه الأقوال مستمدة من الإسرائيليين الذين أسلموا، و لجأ إليهم بعض الصحابة أو التابعين و لا سيما فى قصص الأنبياء و الأمم السابقة- باعتبار هؤلاء الإسرائيليين أصحاب ثقافة قديمة، و عندهم كتب تحدثت عن هؤلاء الأنبياء .. و يمكنهم ايضاح بعض ما طواه القرآن من أحداث السابقين.

و کان بعض هؤلاء الإسرائیلیین المسلمین یتمتعون بثقة الصحابة و التابعین دینیا کما ذکرنا. و کانوا حین یسألون لا یمسکون عن الإجابة، بل یتحدثون بما یعرفون من قبل عن هذه القصص .. و السائلون یأخذون منهم الجواب و یتحدثون عن قصص القرآن .. و الآخرون ینقلون عنهم، و هکذا حتی یصبح کلام هؤلاء الإسرائیلیین روایة رواها فلان عن فلان .. و تلتصق بتفسیر القرآن، و تصبح جزءا مهما من هذا التفسیر ..

و هکذا .. أصبح من المتیسر لدی المتحدثین فی تفسیر القرآن أن یجدوا لدی کل آیة روایات تفسرها .. مع أن الرسول لم یترک إلا القلیل جدا من تفسیر القرآن ..

علم التفسیر، ص: ۸۳

و کان المتبع فی ذلک الوقت الحرص علی الروایة، و ذکر الأشخاص الذین اضطلعوا بها، تحرجا من التفسیر بالرأی الذی لم یکن ینظر إلیه نظرة سلیمة فی ذلک الوقت، مما اتاح فیما بعد للنقاد البصیرین بالرجال أن یتتبعوا الرواة و ینقدوهم، و یرفضوا ما یجدون فیه سببا للرفض ..

کما نجد فی تفسیر الطبری و أمثاله من سرد الروایات و لکن لم یکر علیها بالنقد، فترک القراء فی دوامة، و لا سیما من لم تکن عندهم خبرة بالرجال الذین رووا هذه الروایات، و هم الکثرة الغالبة جدا من القراء .. و هذه التفسیرات- فی رأیی- هی التی وضعت حجر الأساس فی نشر الروایات الإسرائیلیة و المدسوسة الموضوعة و ترویجها فی الأجیال المتعاقبة .. و لا یشفع لهم أنهم ذکروا سند الروایات. فلیس کل قارئ لها علیما بأحوال رواتها .. أو غیورا علی القرآن و الاسلام، یحرص علی تنقیتها من الدخیل فیها .. و قد فتح هؤلاء بابا واسعا لمن أتی بعدهم فی الاعتماد علی ما تقول هذه الروایات، دون ذکر السند و کأنه قضیة مسلمة و لا سیما فی التفاسیر الصغیرة، فرأینا الکثیرین ممن اشتغلوا بالتفسیر یتوسعون فی سرد هذه الأقوال الإسرائیلیة منها و غیر الإسرائیلیة. و زاد الطین بلّة أن الأحادیث الموضوعة راجت و کثرت، حتی کادت تطغی علی الأصیلة، «فالعملة الردیئة تطرد العملة الجیدة من السوق» و شارک بعض المسلمین المخلصین مشارکة فعالة فی هذا الوضع- و بحسن النیة مع الأسف- لیشدوا الناس إلی القرآن، کالأحادیث التی تذکر مع کل سورة لبیان فضلها و ثواب قارئها، ترغیبا فی قراءة القرآن لأن الناس فی ذلک الوقت کانوا قد عنوا بالجدل و العلوم الأخری- کما یقول وضاعو هذه الروایات- و انصرفوا عن العنایة بالقرآن.

و لست أرید أن أشغل القارئ هنا بنقل النصوص الدالة علی ذلک کله من الکتب التی عنیت بهذه المسائل لأن هذه القضایا أصبحت معروفة مسلما بها لدی المشتغلین بالتفسیر «۱»

---

(۱) و أهم الکتب الحدیثة التی تناولت هذا الموضوع- فی رأیی- هو کتاب التفسیر و المفسرون للشیخ المرحوم الدکتور محمد حسین الذهبی و البحث الذی قدمه لمجمع البحوث عن الإسرائیلیات فی-

علم التفسیر، ص: ۸۴

قاعدة تحتاج إلی مناقشة:

و مع أن المشتغلین بالتفسیر الذین عنوا بتنقیة الروایات، و بیان الصحیح منها و غیر الصحیح، قد أبلوا فی ذلک بلاء حسنا .. و قدموا لنا ذخیرة یمکن الاعتماد علیها. فإن هناک قاعدة من القواعد التی أقروها بصدد هذه الروایات، أعتقد أنه دخل منها الکثیر من غیر الصحیح، علی الروایات المفسرة للقرآن، و هی لهذا تحتاج إلی مناقشة ..

هذه القاعدة المعروفة المسلّم بها لدی النقاد جمیعا هی المتصلة بالروایة الموقوفة علی الصحابی التی لم یسندها إلی رسول الله صلی الله علیه و سلم حیث قالوا: إذا کانت هذه الروایة أعنی موضوعها من الأمور الغیبیة، و تکلم بها الصحابی، فمعنی ذلک أنه سمعها من

الرسول .. و لو لم يصرح بذلك، لأنه لا مجال للرأى و العقل فيها .. فهى فى حكم المرفوع للرسول ..

و هذا الكلام الذى قالوه يمكن أن يصدق، و لكن إلى حد ما، لأنى أعتقد أننا لو أخذناه قضية مسلمة و على اطلاقها، فإنه من الممكن حينئذ أن يدخل منها المدسوس على رسول الله. و لا سيما فيما يتصل بالتفسير ..

ذلك أن بعض الصحابة كانوا يطمئنون- و لو أحيانا لنكون أكثر دقة و احتياطا- إلى بعض المسلمين من أهل الكتاب، و إخبارهم ببعض الأمور من تفصيلات القصص و غيرها، فينقلون ذلك عنهم. و يروى تلامذتهم، أعنى التابعين عنهم .. و تصبح الرواية بذلك موقوفة على الصحابى .. فإذا أخذنا القاعدة السابقة قضية مسلمة فى مثل هذه الروايات نسبنا الى الرسول بذلك ما لم يقله، أو يكون هذا احتمالا على الأقل ..

و من الواجب أن نحتاط الاحتياط الشديد فى نسبة كلام الى الرسول عن مثل

القرآن. و إن كنت لا أتفق معه فى تحفظه فى بعض نواح من بحثه .. ثم بحث قدمه الدكتور الشيخ محمد أبو شهبه لم يستوعب أيضا الاسرائيليات فى القرآن. و إن كنت لا أتفق معه فى تحفظه فى بعض نواح من بحثه. و مجمع البحوث و الدراسات العليا بكلية أصول الدين معنيان بإتمام بحث الاسرائيليات فى التفاسير و هناك رسائل تعد فى هذا الموضوع لشهادتى الماجستير و الدكتوراة فى الكلية و هو اتجاه طيب.

علم التفسير، ص: ۸۵

هذا الطريق، لا سيما و نحن نعرف أن الصحابى كان يحرص الحرص كله، على أن يسند الرواية إلى الرسول، إذا كان حقا قد سمعها منه، ليزداد شرفا بالرواية عن رسوله من جهة، و ليكسب كلامه مهابة و توكيدا من جهة أخرى، و لا سيما فى مثل هذه الأمور الغيبية التى تحتاج لتدعيم و تقوية.

فامتناعه أو عدم تصريحه حينئذ، بروايته عن الرسول، مع الحالة التى كانت قائمة بالأخذ عن بعض مسلمى أهل الكتاب فى مثل هذه الأمور، يوجب علينا أن نحتاط، فلا نقبل رواية بهذا الشكل، أعنى الرواية عند الصحابى التى لم ينسبها صراحة إلى الرسول ..

و هذا- فى رأيى- يختلف عن قول الصحابى أو عمله فى حكم من الأحكام، لأنهم لم يكونوا يسمحون لأنفسهم بمعرفة شىء من ذلك، أو من العقائد، عن مسلمى أهل الكتاب .. و الرسول صلى الله عليه و سلم وضح كل ما يتصل بذلك قولا و عملا.، فإذا عمل أو تكلم الصحابة أو تابعوهم ممن كانوا فى المدينة أو خرجوا منها و كانوا على حال يوثق فيها بهم و بعلمهم، فإن من الجائز حينئذ أن نفهم أن قولهم فى الحكم أو عملهم، معتمد على عمل أو قول منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و إن لم يصرحوا بنسبته إلى الرسول .. و هذا ما كان يأخذ به الامام مالك رضى الله عنه فى مذهبه، مما سمى بقاعدة عمل أهل المدينة .. و إن نازعه فى ذلك بعض الفقهاء، ممن لم يسلموا للامام مالك بحجة عمل أهل المدينة .. و الاستناد إليه فى تقرير حكم من الأحكام ..

و قد يقول بعض الناس: و ما الضرر فى أخذ مثل هذه الروايات، أعنى الموقوفة على الصحابى فى أمور لا مجال للعقل فيها، ما دامت لا تتصل بتقرير عقيدة أو حكم شرعى، و لكنها زيادة تفاصيل لما ذكر مجملا من القصص أو الكون مثلا؟ ...

و أقول لهم: إن الضرر من هذا يرجع إلى تقييد عقولنا بفهم أو تفصيل خاص باعتبار أن ذلك صادر عن الرسول .. و قد تكون تلك الرواية متصلة بأحوال الآخرة فتدخل ضمنا فى تكوين عقيدتنا، أو فى تكميل الصورة عنها.

علم التفسير، ص: ۸۶

و قد تكون متصلة ببعض الظواهر فى الكون، و تأتى التجارب العملية بعد ذلك ببطلانها، فيمتد أثر ذلك على رسول الله!! و هذا كثير. ربما يكون هذا تشددا منى فى أمور قبلها السلف أو بعضهم و أقروها .. و لكنى أرى من الأولى لنا الآن بعد أن قاسينا ما قاسينا من الروايات الموضوعة و المدسوسة و الإسرائيلية، أن نقابل كل هذا البلاء الذى بلينا به فى أمر يتصل اتصالا وثيقا بالقرآن، و هو تفسيره

و توضیح معانیه و الوقائع التی جاءت فیه. أقول من الأولی لنا أن نقابل کل هذا بشیء من التشدد، حتی نجرّد التفاسیر مما علق بها، و شوّه فهمنا للقرآن، لیبقی القرآن وحده أمام عقولنا مع الأحادیث الصحیحهٔ المرفوعهٔ للرسول الواردهٔ فی کتب الأحادیث الصحیحهٔ.

یبقی شیء آخر یحتاج لمناقشهٔ

هو أقوال مشاهیر المفسرین، مثل علی و ابن عباس و ابن مسعود من الصحابهٔ رضی الله عنهم، و مثل عطاء و مجاهد و مقاتل و غیرهم من التابعین ممن یستشهد بآرائهم فی التفسیر.

هل ما یقوله هؤلاء فی فهم الآیهٔ کرأی لهم .. حین یصح النقل عنهم، و نسبهٔ القول إلیهم، یجب أن یؤخذ قضیهٔ مسلّمهٔ، لا یصح لنا العدول عنها، أو مناقشتها، باعتبار أن هؤلاء أقرب إلی نور النبوهٔ، و أکثر منا فهما للقرآن؟

و أقول مع تقدیری و إجلالی لهم- إن من المجازفهٔ أن نتقید بفهمهم فی الآیهٔ فلا نخرج عنه، و أن لکل من جاء بعدهم إلی ما شاء الله من الأزمان، أن یعملوا عقولهم فی فهم القرآن، و یستخرجوا من ألفاظه المعانی التی تؤدیها، ما داموا أهلا لهذا الفهم، دون تأویل بعید، أو شطط فی الفهم یصادم نصا، أو قاعدهٔ إسلامیهٔ، أو یتنافی مع روح الاسلام العامهٔ ..

و الکل یؤخذ منه و یرد علیه ما عدا رسول الله صلی الله علیه و سلم ..

و أعتقد أن هذا لا یلقی جدلا کثیرا لأن المفسرین الذین جاءوا بعد هؤلاء، لم یتقیدوا بآرائهم، و إن کانوا قد عنوا بنقلها فی صدر تفاسیرهم للآیهٔ ..

علم التفسیر، ص: ۸۷

تفرق الصحابهٔ فی البلاد و مدارس التفسیر

لقد تفرق أصحاب رسول الله صلی الله علیه و سلم فی البلاد. مکهٔ، و العراق، و مصر، و الشام و غیرها .. و کان منهم من عرف عنه العلم بتفسیر القرآن أو القول فیه .. کابن عباس و ابن مسعود و غیرهما .. و المسلمون جمیعا مشدودون للقرآن، مهتمون بمعرفته و تفسیره، کل علی قدر تطلعاته. و کان من الضروری أن یسألوا عما یریدون منه، لاجئین إلی من یرونه ثقهٔ فی ذلک ..

و لا یمکن أن نتصور فی هذا العصر أن أحدا من هؤلاء الموثوق بهم، قد خصص وقتا لتفسیر القرآن، کما هو الشأن فی أیامنا، و لکن التفسیر کان یحدث تبعا لأسئلهٔ تلقی، فکان تفسیرا متناثرا حسب الوقت، و الحاجهٔ .. کما لا یمکن أن نتصور أن التفسیر فی ذلک الوقت، کان کالتفسیر الذی نقرؤه فی کتبه، أو نسمعه من المتخصصین أو شبههم فی أیامنا ..

بل کان تفسیرا فی حدود ما سمع من الرسول، أو قیل إنه سمع منه، مع إضافهٔ شیء إلیه مما سمع من أهل الکتاب إن کان المفسر ممن یقبل ذلک، کما کان فی حدود الفهم العربی للألفاظ و التراکیب، و ما عرف من سبب نزول الآیهٔ.

و کانت تغلب علیه الروایهٔ، و یسیر فی حدودها .. و یتناقله الناس شفاها غیر مکتوب ..

«و اشتهر من الصحابهٔ عدد قلیل فی تفسیر القرآن، و أکثر من روی عنه علی ابن أبی طالب، و عبد الله بن عباس، و عبد الله بن مسعود، و أبی بن کعب.

. و أقل من هؤلاء: زید بن ثابت، و أبو موسی الأشعری، و عبد الله بن الزبیر» «۱».

و کان أبعد هؤلاء و أکثرهم أثرا فی التفسیر: ابن عباس و مدرسته فی مکهٔ، و ابن مسعود و مدرسته و تلامیذه فی الکوفهٔ، و أبی بن کعب الذی آثر المکث فی المدینهٔ

---

(۱) فجر الإسلام ص ۲۴۹ الطبعهٔ الثالثهٔ للمرحوم أحمد أمین.

علم التفسير، ص: ۸۸

و كون فيها مدرسته التفسيرية .. و كان لكل من هؤلاء الصحابة تلامذة، أخذوا عنهم أقوالهم فى التفسير .. و لهؤلاء التلاميذ، تلامذة نقلوا عنهم .. و كل ذلك كان فى الصدور، لم يعن أحد منهم إلا قليلا بتدوين ما تلقاه فى كتاب، إذ كانت كتبهم هى صدورهم .. يحدثون الناس بما سمعوه من أساتذتهم من تفسير لآيات القرآن .. و بما يضيفونه إلى ذلك، من رواية سمعوها من غيرهم بطبيعة الأمر ..

و كانت الأقوال فى تفسير الآيات كالهواء فى تنقلاتها بين الناس، ليس هناك ضبط لها، و لا بيان لصحيحها من غيره .. فاختلط فيها الصحيح القليل عن الرسول، بما وضع على لسانه، بما نقل عن معلومات أهل الكتاب .. مع تفسير للألفاظ و بيان لمعانيها حسب المفهوم العربى لها .. و لم يكن ذلك كله بشكل منتظم مرتب، و لكن على حسب الظروف و سؤال السائلين، أو رغبة الاستاذ لبيان آية من الآيات يقتضيها الحال ..

و قد كان الأمر كذلك بالنسبة لأحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم، إذ كان التفسير جزءا منها غير منفصل .. و ظل الأمر كذلك حتى نهض فى أواخر القرن الهجرى من المسلمين، رجال هالهم هذا الخلط الكثير فى الأقوال و الروايات، و اتجهوا إلى غربلتها، و تمييز الصحيح من غير الصحيح، بتتبع حال الرواة الذين رووها، و الوقوف على مدى الثقة فيهم .. و كان ذلك منهم حرصا على تنقية ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم من أقوال غير صحيحة الانتساب، باعتبار أن الأحاديث الصحيحة هى المرجع الأول و الأخير، سواء فى بيان معانى القرآن، أو فى بيان الأحكام، فوصلوا فى هذا المضمار إلى ما أرادوا، مما تميزت به صفحة الإسلام عن غيره من الأديان.

علم التفسير، ص: ۸۹

عرض التدوين

اشارة

و قد ظل التفسير كغيره من العلوم. شائعا فى الهواء، متنقلا بين الصدور حتى اتجهت الأذهان إلى تدوين هذه العلوم فى كتب، و منها التفسير، و ذلك فى مستهل القرن الثانى الهجرى، فانفصل التفسير عن الحديث بعلم خاص، و إن ظل علماء الحديث يذكرون ما روى فيه من أحاديث الرسول:

و يذكر المرحوم الاستاذ محمد الفاضل بن عاشور مفتى تونس السابق و من كبار علمائها «۱» «أن أول من ألف فى التفسير هو عبد الملك بن جريج المتوفى ۱۴۹ ه»

كما يذكر ذلك المرحوم الأستاذ أحمد أمين «۲» و إن كان لم يقل إنه أول من ألف، و يقول عن تفسيره و عنه «كان شأنه شأن المحدثين الأولين يجمعون ما وصل إليه من صحيح و غير صحيح، و قد ذكروا «أن ابن «۳» جريج لم يقصد الصحة، و إنما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح و السقيم» و لم يكن ابن جريج هو الذى ابتكر هذه المحاولة بل سبقه و زامله و اتى بعده آخرون على نفس الخطة مثل تفسير السدى، و مقاتل، و غيرهم ممن تحدث عنهم السيوطى فى كتابه «الإتقان» الباب الثمانون- طبقات المفسرين.

و لم تصل لنا هذه التفاسير فى كتب، و إن كانت آراء مؤلفيها قد نقلها غيرهم فى الكتب التى وصلتنا، و فى مقدمتها تفسير ابن جرير الطبرى ..

بينما يقول الفاضل بن عاشور: إن هناك تفسيرا مهما و جامعا لم يعرف فى المشرق كما عرف فى المغرب، و إن لم يكثر تداوله، و هو تفسير «يحيى بن سلام»

(۱) فی کتابه التفسير و رجالهٔ إصدار مجمع البحوث ص ۲۱.

(۲) فی کتابه ضحی الإسلامی ص ۱۴۲ الطبعهٔ الأولی نقلا عن الإتقان للسيوطی.

(۳) اسمه: عبد الملک بن عبد العزيز بن جريج من علماء مکهٔ و محدثيهم و أول من صنف الکتب بالحجاز أصله رومیّ نصرانی ولد سنهٔ ۸۰ ه و توفی سنهٔ ۱۵۰، لم يظفر بإجماع العلماء علی توثيقه فيما يرويه و رماه کثير منهم بالتدليس و روايهٔ الموضوعات ..

علم التفسير، ص: ۹۰

الذی کان أول التفاسير ظهورا فی النصف الثانی من القرن الثانی الهجری، و الذی سار فيه أيضا علی طريقهٔ جمع الروايات المتداولهٔ فی تفسير الآيهٔ، مما اقتضی جمع روايات متخالفهٔ فی تفسير الآيهٔ الواحدهٔ غير أنه کان يتعقبها بالنقد و الاختيار .. فبعد أن يورد الأخبار المرويهٔ، مفتتحا إسنادها بقوله «حدثنا» يأتی بحکمه أو برأيه مفتتحا بقوله «قال يحيی» إلخ ..

و هذه هی الطريقهٔ التی سار عليها الطبری فی تفسيره .. و هی طريقهٔ التفسير الأثری النظری، و فيها شیء من التجديد و الترقی عما سبقها، حيث يعتبر إيراد رأی المفسر، اختيارا لرأی أو روايهٔ من الروايات، و رفضا لما عداها، أو نهجا فی التفسير يرتضيه .. و يحيی بن سلام ألف تفسيره و روی عنه بالقيروان من بلاد المغرب، و توفی سنهٔ ۲۰۰ ه، و الطبری ولد سنهٔ ۲۲۴ ه فی المشرق فی طبرستان، و لکنه رحل إلی مصر، و الشام، و العراق، التی توفی بها سنهٔ ۳۱۰ ه، فهل يمکن القول بأنه اطّلع علی تفسير يحيی بن سلام و استفاد منه؟.

و يقول الفاضل بن عاشور إنه «توجد نسخهٔ من تفسير ابن سلام عظيمهٔ القدر نسخت منذ ألف عام، موزعهٔ الأجزاء بين المکتبهٔ العبدليهٔ بجامع الزيتونهٔ، و بين مکتبهٔ جامع القيروان، و من مجموعها يتکون نحو الثلثين منها، و يوجد جزء آخر منها عند بعض العلماء لعله يتممها»

فهذا التفسير- إذن- لم يطبع حتی الآن، و لا عجب فی ذلک علی أمهٔ هذه حالها من ميراثها .. فقد ظل تفسير الطبری بعد رواجه فی أوائل ظهوره و ترجمته للفارسيهٔ- مخطوطا مهملا، و إلی عهد قريب لم يکن متداولا، حتی عثر علی نسخهٔ کاملهٔ منه فی حيازهٔ «أمير حائل» «حمود بن الأمير عبد الرشيد» من أمراء نجد، من نحو سبعين سنهٔ فطبع عليها الکتاب «۱» و صار متداولا معروفا لدی الخاصهٔ و العامهٔ، و أيضا من أهم المراجع فی التفسير .. جمع إلی الروايهٔ النقد و الاختيار للرأی الذی يراه. و کان يخطئ المفسرين الذی يعتمدون علی مجرد الرأی و اللغهٔ .. و يعتبر تفسيره موسوعهٔ ضمت إلی الروايات المتعددهٔ، الثمينهٔ

(۱) التفسير و المفسرون للمرحوم الدکتور الذهبی ص ۲۰۸ نقلا عن کتاب المذاهب الإسلاميهٔ فی التفسير ص ۸۶.

علم التفسير، ص: ۹۱

و الغثهٔ، دراسات فی اللغهٔ، و نقد للروايات أحيانا، و أقوال السابقين و اختيار الرأی الذی يراه أخيرا ..

و قد جاء هذا التفسير الزاخر الضخم الموسوعهٔ شبيها بنهر کبير، ضم مع الماء العذب کثيرا من القش و النفايات، و علی القارئ و هو يسبح فی خضم هذا النهر أن يختار طريقه .. أو إذا أراد أن يشرب منه أن يعنی بتصفيهٔ الماء الذی يشربه.

. و لا شک أن هذا الکتاب و هو مخطوط قد عرف فی زمنه، و بعد زمنه، و اطلع عليه طلاب العلم و العلماء، و أخذوا عنه، کما کتب الکثيرون من کبارهم يشيدون به بما لم يظفر به کتاب آخر، و کانت هذه الإشادهٔ به من علماء المشرق و المغرب، و فی عصور متتاليهٔ، دليلا علی تداوله.

و قد حذا کثير من العلماء منهج الطبری فی التفسير، و إن زاد بعضهم عليه نقدا للروايات التی يذکرها حسبما عرف فی علم الجرح و التعديل لرواهٔ الأحاديث، کابن کثير و عمدتهم جميعا الاعتماد علی الروايهٔ المأثورهٔ فی تفسيرهم، و لا يمکن لنا تتبع ما کتب فی هذه

الناحيـة بالحصـر، و إن أمكن ذكر بعض التفاسـير المشـهورة، و إن تفـاوتت شـهرتها مثل: «بحر العلوم للسـمرقندى، و الكشف و البيان للثعلبى، و معالم التنزيل للبغوى، و المحرر الوجيز لابن عطية، و تفسير ابن كثير، و الجواهر للثعالبى، و الدر المنثور للسيوطى» «۱»

و تفسـير ابن كثير تفسـير متـداول بيننا، حائز للقبول، و يمتاز فى اعتماده على الروايـة بنقدها، و بيان قيمتها من الصـحة أو الضـعف، أو الغرابة أو الوضع ..

و قد قام بعض الفضلاء بتجريده و اختصاره ..

و كان بجوار هـذه التفاسير التى عرفت بأنها كتب التفاسير بالمأثور. كتب أخرى لم ينـح أصـحابها منحى الطبرى و إخوانه بل سـلكوا طريقا آخر- و كانوا ممن يميلون للاعتماد على العقل و الرأى- و عرفت هـذه الكتب باسم «التفاسير بالرأى»، و هذا يعنى عندهم عدم الاعتماد الكلى أو غالبا على الروايات و سردها، بل الاعتماد على التصرف العقلى و اللغوى و البلاغى و العلمى فى

---

(۱) المرجع السابق ص ۲۰۴.

علم التفسير، ص: ۹۲

اسـتخراج معانى الآيـات .. مع مـا صـح عنـد المفسـر و اختـاره من روايات للاستشـهاد بها، و كان من هؤلاء الـذين نحوا هـذا المنحى المعتزلـة .. لكنهم تغـالوا فى الاعتمـاد على الرأى، حتى أنزلوا القرآن على مـذهبهم الاـعتزالى، و اشـتطوا فى التأويل .. فمنهم من عنى بإعراب القرآن و استخراج معانيه عن هذا الطريق كالزجاج «القرن الثالث الهجرى» صاحب كتاب «معانى القرآن و إعرابه» «۱».

و منهم من عنى بـالوجه البلاـغى للقرآن، فبنى تفسـيره على هـذا الاتجـاه مثـل «تفسـير الكشـاف» لجار الله محمود بن عمر الزمخشـرى (۴۶۷- ۵۳۸) ..

منتصرا لمذهبه المعتزلى حين تجىء مناسبة ..

و كان هؤلاء يعيبون على أهل التفسير بالمأثور اعتمادهم على روايات غير صحيحة، و ساعدهم على هذا القول ما اعتمده البخارى من أحاديث قليلة فى تفسـير القرآن، حيث قال هؤلاء: إن ما عدا هذا مما ذكره المفسـرون، و اعتدوا به فى التفسـير، غير صحيح، و شوشوا عليهم و جرحوهم .. حتى لنجد المعتزلى الكبير إبراهيم النظام يقول:

«لا تستر سـلوا إلى كثير من المفسـرين، و إن نصـبوا أنفسـهم للعامـة، و أجابوا فى كل مسألة، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، و كلما كان المفسـر أغرب عنـدهم. كان أحب إليهم، و ليكن عنـدكم عكرمة، و الكلبى، و السدى، و الضـحاك، و مقاتل بن سليمان، و أبو بكر الأصم فى سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسـيرهم، و أسكن إلى صوابهم؟» و لا شك أنه كان لمذهب الاعتزال أثر فى هـذه النظرة .. و من هنـا انصـرف المعتزلـة إلى كتابـة تفسـير لاـ يعتمـد على هـذه الروايات، و إن شايعهم فى ذلك العقلانيون من غير المعتزلـة دون طعن على السابقين، فوجـدنا كتبا فى التفسـير لا تعتمد على الرواية اعتمادها على العلوم العقلية كالنحو و البلاغة و العلوم التى اكتسبها المسلمون من آثار ترجمة الكتب اليونانية الفلسفية و غيرها ..

---

(۱) شرح و حققه الدكتور عبد الجليل شلبى، و طبع تحت إشراف الأزهر .. على نفقة الشيخ خليفة بن زائد ولى عهد الإمارات.

علم التفسير، ص: ۹۳

فما دام منهج الاعتماد على الروايات قد جرحه المعتزلة هذا التجريح، و أصبحت الثقة به ضعيفة، فليعتمد هؤلاء على منهج جديد، يلبى حاجـة العقول فى عصـرهم و لا يعتمد على الروايـة، بل يعتمد على اللغة العربية و المعانى المسـتخرجة من حقيقتها و مجازها، بالاضافة إلى ما استفادوه من علم المنطق و غيره ..

و أقبلوا على القرآن يفسـرونه بهذا المنهج، و ينصـرون مذهبهم الاعتزالى بتأويل القرآن و إنزاله عليه كلما جاءت مناسبة تمس مذهب

السنة، أو الاعتزال، و استعملوا مهارتهم الكلامية فی ذلک، حتی أو غلوا فی التعسف فی تأويل بعض الآيات و فی الوقت الذی ساد فيه مذهب الاعتزال، و سانده الحلفاء العباسيون، كان هؤلاء يعتقدون أنهم فرسان الحلبة فی تفسير القرآن، و علم الكلام.

بينما أهل السنة ممن يؤثرون التفسير بالماثور وقفوا منهم موقف المعارض الذی يعتقد أن المعتزلة بمنهجهم هذا يعتدون علی كلام الله، و بعدت بينهم الشقة من هذه الناحية أيضا ..

و لكن بدأ جو المعتزلة فی الانكماش بعد تخلی الخلفاء عنهم، و بعد ظهور أبی موسی الأشعری الذی وقف بعلم و عناد ضد مذهبهم.

و بدأ أهل السنة فی العمل فی مجال التفسير و غيره بقوة، فكان من ذلک مؤلفات فی التفسير و غيره لعلماء فی المغرب و المشرق .. لا سيما بعد أن أقبلوا علی بضاعة المعتزلة من علم المنطق و الفلسفة و غيرهما، ليتخذوا منها أسلحة لبيان معانی القرآن، و لتأييد آرائهم .. و للرد علی مخالفيهم.

و فی هذا الجو ظهر الامام فخر الدين محمد بن عمر بن الخطيب الرازی الشافعی. و قدم فيما قدم من مؤلفات تفسيره الذی سماه «مفاتيح الغيب» فكان أساسا و عمدة لأهل التفسير بالرأی من غير المعتزلة، كما كان الطبری أساسا و عمدة لأهل التفسير بالمأثور.

و يصبح من حقهما و حق القراء علیّ أن أذكر نبذة عنهما و عن تفسيرهما فيما بعد ..

علم التفسير، ص: ۹۴

[أصل هذا التقسيم]

و أصل هذا التقسيم أو هذا الاصطلاح- الذی يقتضی إلقاء ضوء عليه، أصله قديم منذ عهد الصحابة الذين كانوا يتحرجون أن يتكلموا فی تفسير آية إلا إذا كانوا قد سمعوا عن الرسول شيئا فيها .. حتی لما سئل أبو بكر رضی الله عنه فی معنی آية لم يكن يروی عنها شيئا امتنع و قال عبارته المشهورة «أی أرض تقلنی و أی سماء تظلنی لو قلت فی القرآن برأيی».

فاتخذ الناس من هذا الكلام دليلا علی وجوب الاعتماد علی التفسير المأثور، بحيث لا يتكلم أحد فی التفسير إلا برواية رويت .. و كان هذا سببا فی بدء حياة التفسير، اعتمادا علی الرواية، و جمعوا فيها الغث و الثمين. كما عرفنا، و كانت مزرعة، نما فيها الكثير من الاسرائيليات، و الخرافات حول تفسير القرآن، و ذلک لأن الأحاديث لم تغط تفسير القرآن، فلجئوا لأقوال الصحابة و غيرهم، و لروايات أخری يفسرون بها.

بينما نظر آخرون إلی قول أبی بكر، نظرة غير هذه النظرة، و قالوا لا يعنی كلامه هذا أن نهمل عقولنا و معارفنا فی تفسير الآيات، من حيث اللغة، و المعنی الظاهر السافر و نخرج برأی حسب ما تؤديه الكلمات العربية، و الأسلوب العربی، و الله يقول «إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» فالموضوعات التی تحتاج إلی رواية، و هی التی لا يمكن للعقل أن يحكم فيها .. نرجعها للرواية .. و نقف عندها ..

لكن الآيات السافرة الظاهرة، التی تحكی قصة، أو تقول حكما، أو تحث علی نظر فی الكون .. الخ. مما لا يحتاج فهمها إلی رواية؛ نتولی فهمها بعقولنا، و معارفنا فی اللغة أو الأحكام، أو الكون .. بحيث لا نخرج عن قرآن صريح، أو حديث صحيح، هذا إذا لم يدفعنا فضولنا لمعرفة ما تركه القرآن من تفاصيل، بل قال بعضهم: إن النص إذا تعارض مع العقل، أوّلنا النص لما يوافق العقل، و الله يقول «أ فلا يتدبرون القرآن ..» و تفاسير هؤلاء سموها «التفاسير بالرأی»

علم التفسير، ص: ۹۵

و مثل هذا حدث فی الفقه أيضا حيث ظهرت مدرستان فقهيتان: مدرسة الحديث. و مدرسة الرأی، و اشتهر عن مالک رضی الله عنه أنه من مؤسسی المدرسة الأولی فی المدينة، و عن أبی حنيفة أنه مؤسس المدرسة الثانية فی العراق.

و حدث أيضا فی علم الكلام حيث انقسم المتكلمون فی علم التوحيد أو فی صفات الله .. إلی سلف: يحجمون عن التأويل فی مثل يد

الله، و عينه، و وجهه، و استوائه مما ورد فى القرآن، و يقولون: له يد .. لا كأيدينا .. و لا نقول أكثر من ذلك، و إلى خلف: رأوا أن مثل هذا الموقف لا يشبع نهم عالم، و لا يردّ شبهة متمرد، فلجئوا إلى التأويل بأن اليد معناها القدرة، ليسكتوا هؤلاء المتمردين .. معتمدين على الاستعمالات المجازية فى كلمة اليد فى الأسلوب العربى ..

و لا نعتقد أن أحدا منهم جاوز الهدف فى أيامه فى خدمة الاسلام، و لكن كان لكل منهم طريقة فى أداء هذه الخدمة حسبما رأى، على أن الذين اتجهوا إلى الاعتماد فى التفسير على الرأى لم يهملوا الأحاديث الصحيحة، بل ذكروها أيضا، و جالوا فى دائرتها، علما بأن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يفسر القرآن كله، و لم ترو أحاديث صحيحة يمكن بها تفسيره كله .. فالحاجة تدعونا- إذن- إلى الاعتماد على العقل و الرأى فى التفسير.

على أن الذين عابوا التفسير بالرأى لم يعيبوه إلا لبعض سقطات من بعض الذين تركوا الحديث، و اعتمدوا على عقولهم و على وجه من وجوه اللغة، غير ناظرين لما روى من حديث صحيح، و لا إلى الوجه الآخر فى اللغة، و لا إلى جو الآية .. بل نجدهم- أعنى أصحاب التفسير المأثور- أعملوا عقولهم فى التفسير، فإن أبا بكر رضى الله عنه، لم يكن يعنى إلغاء عقله نهائيا أمام القرآن و التوقف النهائى عن فهمه، إذا لم يرد فيه حديث، بل كان وقوفه أمام أمر يحتاج إلى رواية .. بدليل أنه و عمر و ابن عباس و باقى الصحابة، كانوا يرجعون فى الفهم إلى لغة العرب و استعمالاتهم، و قد سأل عمر عن معنى «الأب»، و عن معنى «تخوف»، و كان ابن عباس يفسر القرآن بما عرفه من كلام العرب

علم التفسير، ص: ۹۶

و شعرهم، و أبو بكر كان متورعا وقافا عند ما يؤثر عن الرسول حتى أنه عارض فى كتابة القرآن أولا، ثم اقتنع بكتابته .. فالخلاف الذى نشأ قديما بين المدرستين، كان خلافا بين زمنين، أو فى الحقيقة- إن شئنا الدقة- لم يكن خلافا جوهريا، بقدر ما هو خلاف شكلى، بدليل أننا يمكننا- بل رأينا مفسرين- أمكنهم الجمع بين الطريقتين أو بين الحسنيين .. و أما الأحاديث التى رويت فى النهى عن التفسير بالرأى فمطعون فيها و إن كان السابقون قد أخذوا بها، لكن الظاهر و المفهوم بداهة، أن المراد بالرأى الوارد ذمه فى الحديث لو اعتمدناه، إنما هو الهوى الذى لا يعتمد على أساس، و الذى يخرج القرآن عن معناه الأصيل و عن هدفه .. كما يحصل من تأويلات فاسدة، أو بعيدة كل البعد، يلجأ إليها أصحاب الهوى لخدمة أغراضهم، أو أغراض الذين يتزلفون إليهم ..

أما القول بالرأى: فى حدود اللغة و القواعد العامة، و النصوص الأخرى، فلا يمكن أن يكون محل تهديد من الرسول صلى الله عليه و سلم، و إلا لو كان محل هذا التهديد من الرسول، لعنى صلى الله عليه و سلم بتفسير كل آية و كل كلمة، حتى لا يترك مجالا لرأى من الآراء، و الرسول لم يؤثر عنه ذلك ..

و كيف و قد أمرنا الله بتدبره فى قوله تعالى «كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ» «۱»

و قوله تعالى أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها ۲۴ «۲»

و قوله إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۳ «۳»

و قوله فى ختام آيات كثيرة تعرض مظاهر خلق الله:

«إن فى ذلك لآيات للمؤمنين، أو لقوم يتفكرون، أو يتذكرون ..

---

(۱) ص/ ۲۹.

(۲) محمد/ ۲۴.

(۳) الزخرف/ ۲.

علم التفسير، ص: ۹۷

و هـذه كلها تأمر بالتدبر و الفهم لما يعرضه القرآن، و لا يمكن أن يتم ذلك إلا بالبحث العقلى دون انتظار لحديث يروى، و أين هذه الأحاديث؟

إن هـذا الاتجاه و هـذا التوقف فى تفسـير الآيـة على حديث من الرسول، فى أمور غير غيبية، لا يمكن أن يكون الباعث عليه إلا مجرد الورع و الخوف من الوقوع فى قول خطأ، يتحمل مسئوليته و مسئولية من يقتدى به طول الزمن ..

و إلا فلا يجوز أبـدا أن يكون منهجا لفهم القرآن، و إلا كنا قـد حسـبناه فى قمقم، و حجزنا هـديه عن الناس و منعنا تدبره، و معرفة ما يشير إليه من أسرار.

. فيها الهدى للناس، و لا يمكن أن نقول فى تفسير كتفسـير الإمام الطبرى و رأيه فى الآية، إن الطبرى لم يستعمل رأيه فى فهم الآية و نحمـد الله على أن هـذا الرأى لم يسيطر على علماء المسلمين جميعهم، بل قام أفـذاذ العلماء برده و التخلص منه، و أقبلوا على تفسير القرآن بمـا منحهم الله من عقـل و فهم و رأى، و لم يغفلوا مع ذلـك مـا ورد من روايـات صـحيحة، و كانوا حائزين لكل الشـروط، أو متسـلحين بكل الأسـلحة التى يجب أن يتسـلح بها كل من يريد التفسـير: من علوم اللغة و البلاغة، و معرفة الناسخ و المنسوخ، و أصول الفقه و ما ورد من أحاديث صـحيحة، و لا سيما فى آيات الأحكام، و آيات الغيب، و من أسباب النزول، مع ذوق يعينه على استشفاف المعانى. و مع تجنب شد الآيات وليّها نحو رأيه و مذهبه و هواه ..

فترك هؤلاء العلماء لنا كثيرا من التفاسير التى عرضوا فيها آراءهم و فهومهم للقرآن، و ما يتصل به من علوم و معارف، مع اسهاب، أو توسط، أو اختصار، فكان لنا من ذلك كله ذخيرة ضـخمة، و وردا يقصـده كل طالب علم .. و ما يزال القرآن مقصـد العقول و الهمم، يتناولونه بالتفسير من خلال ما وهبهم الله من فهم له و تدبر لآياته .. ليس هناك ما يصد عن هذا المورد العذب، إلا سوء الفهم أو سوء القصـد، أو تحميـل للألفـاظ مـا لا تحتمله، و خروج بها عن الظاهر إلى معان باطنيـة بعيـدة، و جعلها رموزا لأشـياء يعرفونها هم .. كما حصل من كثير من الباطنية و المغرقين من الصوفية، و كما

علم التفسير، ص: ۹۸

يحصل الآن من بعض الـذين تعرضوا للتفسير، و قـد كان هـذا المورد أو النهر الخضم العظيم، مجالا واسـعا لكل من أنس القدرة على العوم فيه، بما تيسـر له من علم و أدوات، فبعضـهم خاضه بما أتقنه من علوم العربيـة، و بعضـهم أضاف إلى ما عرفه من علوم الدين، ما علمه من علوم الكون كالرازى، و بعضهم ركز فيه على الجانب الذى يتقنه، فجعله معرضا لعلم الفقه و الأحكام .. و هكذا.

يقول السيوطى «۱»: «ثم صـنف بعد ذلك قوم برعوا فى علوم، فكان كل منهم يقتصـر فى تفسيره على الفن الذى يغلب عليه، فالنحوى تراه ليس له هم إلاـ الإـعراب و تكثير الأوجه المحتملـة فيه، و نقل قواعـد النحو و مسائله و فروعه و خلافياته كالزجاج و الواحـدى فى البسيط، و أبى حيان فى البحر و النهر.»

«و الأخبارى ليس له شغل إلا القصص و استيعابها، و الأخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة، أم باطلة كالثعلبى»

«و الفقيه يكاد يسـرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، و ربما اسـتطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية و الجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبى»

«و صاحب العلوم العقلية كالفخر الرازى قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء و الفلاسـفة و شـبهها. و خرج من شىء إلى شىء، حتى يقضى على الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية»

«و المستبدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات و تسويتها على مذهبه الفاسد»

«و الملحد لا تسأل عن كفره و إلحاده فى آيات الله»

و يعتبر هذا ملخصا لنظرة السيوطى إلى التفاسير التى ظهرت و اطلع عليها فى أيامه (۱۸۴۹- ۹۱۱ ه)

(۱) فی کتاب الاتقان الباب الثمانون ص ۱۹۰ ج ۲ طبعة حجازی.

علم التفسیر، ص: ۹۹

کتب التفسیر

اشارة

و أری من المستحسن أن أمر بک سریعا علی کتب التفسیر التی ألفت حتی عهد السیوطی لمجرد التعریف بها و بمؤلفیها فی سطور .. سواء من ذلک کتب التفاسیر بالمأثور أو کتب التفاسیر بالرأی- المعتزلی منها و غیر المعتزلی:

[التفسیر بالمأثور]

۱- جامع البیان فی تفسیر القرآن للطبری (۲۲۴- ۳۱۰) و هو عمدة التفاسیر

۲- بحر العلوم «للسمرقندی المتوفی سنة ۳۷۳ ه لا یزال مخطوطا

۳- «الکشف و البیان» للثعلبی أو الثعالبی المتوفی سنة ۴۲۷ ه لا یزال مخطوطا

۴- معالم التنزیل: للبغوی المتوفی سنة ۵۱۶ ه مطبوع ..

۵- المحرر الوجیز لابن عطیة الأندلسی الغرناطی المتوفی سنة ۵۴۶ و هو ند تفسیر الکشاف. و أکثره قبولا لدی العلماء

۶- تفسیر القرآن العظیم للحافظ ابن کثیر البصری ثم الدمشقی ولد سنة ۷۰۰ ه و توفی سنة ۷۷۴ و کان محبا لابن تیمیة و آرائه

۷- الجواهر الحسان فی تفسیر القرآن للثعالبی المغربی المتوفی سنة ۸۷۶ و دفن بالجزائر ..

۸- الدر المنثور فی التفسیر بالمأثور للسیوطی المولود سنة ۸۴۹- و المتوفی سنة ۹۱۱ فی منزله بروضة المقیاسی و هو مختصر من کتابه «ترجمان القرآن» الذی ذکر فیه أحادیث التفسیر بأسانیدها و فی الدر المنثور حذف الأسانید، و اختصر علی المتن ..

و هذه هی الکتب التی اختارها المرحوم الشهید الدکتور الذهبی فی کتابه «۱» عن التفسیر بالمأثور و هی تقریبا عالة علی الطبری ..

---

(۱) التفسیر و المفسرون ج ۱ ص ۲۰۴.

علم التفسیر، ص: ۱۰۰

[التفسیر بالرأی]

و هناک کتب تفسیر غیر هذه تعتبر من التفسیر بالرأی المحمود و هی تفاسیر أهل السنة و هی:

۱- مفاتیح الغیب للإمام فخر الدین الرازی (۵۴۴- ۶۰۶ ه) و سنفرده بحدیث خاص ..

۲- البحر المحیط لابن حیان الأندلسی الغرناطی (أثیر الدنیا أبو عبد الله محمد بن یوسف) ولد سنة ۶۵۴ ه و قد عنی فیه بوجوه الإعراب و القراءات، و ینقل عن السابقین ما یراه

۳- تفسیر البیضاوی (ناصر الدین أبو الخیر عبد الله) المتوفی سنة ۱۶۸۵ و ۶۹۱ ه و هو تقریبا مختصر من تفسیری الکشاف و الرازی ..

۴- تفسیر الخازن (علاء الدین أبو الحسن علی بن محمد) البغدادی الشافعی، ولد بدمشق ۶۷۸ ه و توفی سنة ۷۴۱ ه و قد نقله عن البغوی و السابقین و حشاه بالاسرائیلیات و الخرافات و الأکاذیب. و کان هذا عیبه مع أنه جید الرأی و العبارة ..

۵- تفسیر النسفی: (أبو البرکات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفی الحنفی توفی سنة ۷۰۱، و قد اختصره من الکشاف تقریبا مهملا

كلام الزمخشرى فى الاعتزال .. و هو معروف حتى لطلاب العلم لأنه مقرر عليهم بالأزهر ..

۶- غرائب القرآن: للنيسابورى. (نظام الدين الحسن بن محمد الحسين الخراسانى النيسابورى) توفى حول سنهٔ ۸۵۰ ه و قد اختصره من تفسير الرازى مع الكشاف و غيره بتصرف ..

۷- تفسير الجلالين: جلال الدين المحلى الشافعى و جلال الدين السيوطى الشافعى أيضا بدأه المحلى من أول الكهف إلى سورهٔ الناس و هو مولود بمصر سنهٔ ۷۹۱ ه و توفى ۸۶۴ ه ثم جاء السيوطى المتوفى سنهٔ ۹۱۱ ه مفسرا من أول البقرهٔ لآخر الاسراء على منهج المحلى .. و عليه حاشيهٔ الصاوى و الجمل و معروفهٔ لدى طلاب العلم و غيرهم ..

علم التفسير، ص: ۱۰۱

۸- السراج المنير: للخطيب الشربينى القاهرى الشافعى المتوفى سنهٔ ۹۷۷ ه و قد ذكر فيه أنه اقتصر على أرجح الأقوال. مع إعراب، و قراءات و إسرائيليات ..

۹- إرشاد العقل السليم: لأبى السعود التركى. ولد بقريهٔ قريبهٔ من القسطنطينيهٔ سنهٔ ۸۹۳ ه و برز فى العلم حتى تولى الافتاء و مكث بها نحو ۳۰ سنهٔ و يلقبه المفسرون «بشيخ الإسلام» و توفى بالقسطنطينيه سنهٔ ۹۸۲ ه و دفن بجوار قبر أبى أيوب الانصارى المعروف هناك .. و هذا التفسير يمتاز بحسن الصياغهٔ و الكشف عن أسرار البلاغهٔ القرآنيهٔ، و أسلوبه يحتاج إلى تأن فى فهمه و دقهٔ فى قراءته ..

و لا أظن أن السيوطى قد اطلع على هذا التفسير فقد ألف بعد وفاته و هو بمصر، و أبو السعود فى تركيا و يعتبر تفسير الرازى غالبا أساسا لهذه الكتب ..

أما تفاسير المعتزلهٔ: و يسميها أهل السنهٔ: بالتفاسير البدعيهٔ، نظرا لأن أصحابها تعسفوا فى تأويل بعض آيات القرآن على مذهبهم تعسفا شائنا غير مقبول فى أحيان كثيرهٔ. بتنزيلهم القرآن على مذهبهم، و قواعده الخمسهٔ.

و من أشهر كتبهم المتداولهٔ ما ذكرناه من قبل و هو:

۱- معانى القرآن و إعرابه للزجاج

۲- الكشاف لجار الله محمود الزمخشرى ولد فى سنهٔ ۴۶۷ و توفى سنهٔ ۵۳۸ ه و هو معروف متداول ..

۳- تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار (أبو الحسن بن أحمد الهمذانى الأسدآبادى الشافعى شيخ المعتزلهٔ المتوفى ۴۱۵ ه .. و هو مطبوع فى مجلد واحد كبير

و لا يرى فى هذا الكتاب من عيب إلا المغالاهٔ فى الانتصار لمذهبه الاعتزالى. و ما عدا ذلك فهو عظيم ..

۴- أمالى الشريف المرتضى أو غرر الفوائد و درر القلائد: و هو أبو القاسم على ابن الطاهر أبى أحمد الحسين، ينتهى نسبه إلى جعفر الصادق إلى الحسين بن على رضى الله عنهم .. كان شيخ الشيعهٔ فى العراق و مع ذلك يعتنق مذهب

علم التفسير، ص: ۱۰۲

المعتزلهٔ، و الكتاب يضم إملاءات الشريف المرتضى فى ثمانين مجلسا فى التفسير و الحديث و الأدب، فهو لم يتعهد بتفسير القرآن كله كغيره من المفسرين، بل من خلال نظرته و تفسيره لهذه الآيات التى تعرض لها و هى غالبا آيات فى العقيدهٔ التى ينزلها على مذهبه كان تفسيره و قد ولد سنهٔ ۳۵۵ ه و فى سنهٔ ۴۳۶ ببغداد.

النظرهٔ إلى تفاسير المعتزلهٔ:

نظرا للخصومهٔ الشديدهٔ التى كانت قائمهٔ بين المعتزلهٔ و أهل السنهٔ، رأينا الأخيرين يطلقون على تفاسير المعتزلهٔ، أنها تفاسير بدعيهٔ، و راج هذا الإطلاق برواج مذهب أهل السنهٔ، و سيطرته على العقول، و تراجع مذهب المعتزلهٔ، و انكماش القائلين به، حتى لم يعد لهم كيان خاص بهم. حتى رأينا المرحوم الشهيد الدكتور الذهبى .. يدرج هذه التفاسير ضمن التفاسير البدعيهٔ، تأثرا برأى أهل السنهٔ فيهم

..

و المعتزلـة- بالرغم من آرائهم التى ذهبوا إليها و تخالف مذهب أهل السـنة- كانوا مخلصـين فى اتجاههم لهذه الآراء لخدمة الاسـلام على الصورة التى رأوها ..

و قد استنفدوا كل وسائلهم للدفاع عن مذهبهم .. و إن كانوا قد استعملوا سلطة الخلافة فى تدعيمه و التنكيل بمخالفيه، كما حصل فى فتنة القول بخلق القرآن، و ما جرى فيها من تصرفات شاذة لا يقبلها العقل و لا الدين ..

لكن خصومـة أهل السـنة لهم كانت شديـدة شدة خصومة المعتزلة لهم- و حين مال الميزان لصالح أهل السـنة انقضوا على المعتزلة و آرائهم و سـفهوهم و سـفهوها، و من ذلك تسـمية تفاسـيرهم بالبدعيـة، أما نحن فى أيامنا، فلا يجوز أن نتأثر بهـذه الخصومة، بعد أن ركـدت ريحها، و ذهب زمنها، و بالتالى نناى بجانبنا عن كتب المعتزلة و آرائهم جملة .. بل ننظر إليها من حيث الموضوع غير متأثرين و لا وارثين لخصومة أهل السنة لهم ..

ففى هذه الكتب و التفاسير ما لا يحصى من الفوائد العلمية. و آراؤهم الخاصة تحت نظرنا، يأخذ بها من يأخذ و يتركها من يترک ..

و من هذه التفاسير، تفسير الكشاف و هو موضع القبول جدا لدى المشتغلين

علم التفسير، ص: ۱۰۳

بالتفسير .. و كذلك غيره .. و إذا كان تفسير الطبرسى الشيعى قد أخذ مكانه لدينا، فلا يليق بنا إغفال كتب المعتزلة ..

تفاسير الألف الثانى من الهجرة

اشارة

هذه التفاسير التى ذكرناها كانت من نتاج العقول فى الألف الأول الهجرى.

. و هو كما ترى حافل بالمؤلفات و منها التفاسـير .. و كان آخرها تفسـير أبى السعود التركى «ارشاد العقل السليم» فقد ألفه صاحبه فى النصف الثانى من القرن العاشر.

فإذا استعرضنا تآليف أو تفاسير الآلف الثانى فإننا سنجد فى مقدمتها:

تفسـير روح المعانى: لشهاب الدين محمود الألوسى الحنفى البغدادى. الذى ولد سنة ۱۲۱۷ ه فى بغداد و توفى سنة ۱۲۷۰ ه، و استفاد فيه بكل ما سـبقه من تفاسـير، و اختار منها ما أراد، مع عناية بنقل عبارة أبى السـعود غالبا معبرا عنه بشيخ الاسلام، كما يعبر عن الرازى بالإمام. و له شخصـيته حين يذكر الآراء، و يقارن بينها، و يختار منها، مع تفنيده لآراء المعتزلة و الشيعة، و مع ذكره لآراء أهل الفلك و الفلسـفة، و إقرار مـا يرتضـيه، و مع عنـايته بالمسائـل النحويـة و الفقهيـة و الكلاميـة، و نقـده الشديـد و رفضه للاسـرائيليات، و الأخبار المكذوبـة، فجمع فيه الألوسـى ما اعتبره زبـدة آراء السابقين .. و إنه لكـذلک، فقـد وجد مائدة السابقين مبسوطة أمامه، فانتقى منها ما قبلته نفسه، و هضـمه عقله، و قدمه بشىء قليل أو كثير من التوسع حسب المقاسات .. لكنه عنى بما لم يعن به غيره من التفسير الصوفى و الإرشـادى الرمزى، بصـورة تصـوره بـأنه من أهـل العلم بهـذا التفسـير و الرضـا به .. مع أنه تفسـير مرفوض من الأغلبيـة الساحقـة من المسلمين.

. و عسير الهضم على عقولهم ..

و كان هـذا آخر التفاسـير الجامعـة المعروفـة على النسق القـديم، و السائرة على منهجها، الـدائرة فى فلكها .. و يعتبر لـذلک من أوسـع المراجع المهمة فى التفاسير، و أوفرها قصدا و اعتدالا ..

علم التفسير، ص: ۱۰۴

ملاحظة عامة:

و الظاهرة العامة فى هذه التفاسير منذ نشأتها .. عنايتها بالإعراب و الوجوه البلاغية و القراءات و الأحكام الفقهية و خلافاتها و أدلتها أحيانا، كما لوحظ عليها ذكر الروايات و الاسرائيليات و القصص الخرافية البعيدة عن العقل .. مما يعتبر عيبا كبيرا فى هذه التفاسير .. و إن كان قليل جدا من المفسرين من ذكر هذا و عقّب عليه بالنقد .. سواء فى الأحاديث أو غيرها من الروايات التى لا أصل لها إلا الاسرائيليات ..

و لذلك فإننى أرى أن الفكر الاسرائيلى قد غزا الثقافة الاسلامية من منبعها، و شوش عليها و أساء إليها، حتى لنرى الكثير من العقول- حتى عقول العلماء- فيها أثر كبير لهذا الغزو الغريب الذى كان يجب على مفكرينا و علمائنا أن يتنبهوا له و يتحاشوه .. و لكن هذا ما كان. و ظهر أثره جليا فى عصرنا، عصر العلم و الحساسية الدينية، و هجوم الكثيرين على الاسلام و كتبه، مما يلقى علينا الآن عبئا كبيرا فى تطهير كتبنا من أثر هذا الغزو الذى بات يشكو منه الكثيرون و يستهجنونه ..

[كتب تفسير للفرق الاسلامية]

و إذا كنا قد عنينا بذكر كتب تفسير لأهل السنة، فليس معنى هذا أنها الوحيدة فى الميدان. فهناك فرق دينية متعددة. الشيعة الامامية، و الزيدية، و الخوارج ..

و كل هذه الفرق تعتمد على القرآن و تعتز به، و تتخذ منه أساسا لمذهبها، و من الطبيعى أن ينشط علماء هذه الفرق، و يكتبوا تفسيرا لأتباعهم، لكن كل علماء فرقة، ينتهزون فرصة وجود آية يمكن أن تخدم مذهبهم فيؤولوها لما يريدون، و بعضهم كالشيعة اشتطوا فى تفسير بعض الآيات بما لا يقبله العقل.

. و لكنه بالنسبة للأتباع مقبول، و هم معصوبو العقول. يقبلون كل كلام يذكى فيهم روح المذهب و لو كان غير معقول ..

و لكن مما لا شك فيه أنهم فيما عدا هذه الآيات يفسرون تفسيرا موضوعيا

علم التفسير، ص: ۱۰۵

كغيرهم من المفسرين السنيين. و أمامنا تفسير كمجمع البيان للطبرسى الشيعى، نجد فيه مرجعا طيبا للبحوث التفسيرية، من حيث الإعراب و القراءات و اللغة، و المعنى، يمكن الاعتماد عليه كما يمكن كشف الآراء الشيعية و تجنبها ..

و بجوار هذه توجد تفاسير أخرى، إشارية رمزية صوفية، تناول أصحابها فيه القرآن بالروح الصوفية و اعتبروا كلماته الصريحة رموزا و إشارات لأشياء قائمة فى أذهانهم .. و استعملوا عبارات خاصة بهم، ربما تثير الالتباس و الشكوك عند غيرهم من غير الصوفية ..

و لذلك لا أستحسن للعاديين اقتناء هذه التفاسير، و لا قراءتها، إلا لمن هم فى وجد كوجد الصوفيين الذين ألفوها، و يكونون على دراية برموزها ..

و يكون لديهم القدرة على تمييز الغث من السمين ..

و لا- أود أن أثقل عليك هنا بذكر هذه التفسيرات، و مؤلفيها، فهى لا تعنينا كثيرا، و من أراد أن يستزيد .. فيمكنه أن يراجع كتاب «التفسير و المفسرون» ج ۲، ۳ للمرحوم الشهيد الدكتور الذهبى، فقد ذكر هذه الكتب على صورة مرتبة منسقة تسهل مراجعتها .. جزاه الله خيرا ..

و كنت قد و عدت سابقا بأن أقدم لك دراسة مختصرة عن عمدة التفاسير بالمأثور و مؤلفه «جامع البيان» و هو الامام الطبرى، و ها أنا ذا أبر بوعدى و أقدمه لك، على أن أقدم لك بعده عمدة التفاسير بالرأى الإمام فخر الدين الرازى و تفسيره «مفاتيح الغيب» الذى أعتبره أول و أقدم تفسير علمى ..

علم التفسير، ص: ۱۰۶

ابن جرير الطبرى و تفسيره

اشارة

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى الذى ترک لنا تفسيره المسمى ((جامع البيان عن تأويل آى القرآن)) المشهور باسم تفسير الطبرى. بجوار ما تركه من مؤلفات قيمة فى التاريخ و غيره.

و كانت ولادته سنة ۲۲۴ ه فى بلدة آمل عاصمة اقليم طبرستان بإيران و هى كلمة مؤلفة من مقطعين «طبر» آلة من آلات الحرب التى اشتهرت بصنعها المنطقة و «ستان» معناها أرض أو منطقة، أو بلاد مثل «كردستان»- افغانستان.

(أى بلاد الكرد و بلاد الأفغان). فنسب إلى المقطع الأول «الطبرى» و اشتهر به ..

و قد عاش نحوا من خمس و ثمانين سنة حيث توفى سنة ۳۱۰ ه فى بغداد و دفن «۱» بها .. أعنى أنه عاش فى أزهى عصور الاسلام تقدما و انتاجا على كل المستويات الفكرية. و كان من الطبيعى لإنسان موهوب من صغره، محب للعلم، متفان فيه، كالطبرى .. أن يجد ضالته و غذاءه العقلى فى هذا العصر الذى يعيش فيه، لكن ذلک لم يتم له بسهولة .. فالعواصم الفكرية العلمية التى تزخر بالعلماء كانت بعيدة عن موطنه الأصلى، فكان لا بد له من الارتحال إليها بعد أن درس على علماء منطقته، و كان أبوه «جرير» من ورائه يمهد له الطريق و ييسر له السبل، منذ أن لمس فى ابنه الصغير نبوغا غير معهود فسافر إلى بغداد و الكوفة، ثم ارتحل إلى مصر و الشام، ثم استخفه الحنين إلى رؤية موطنه، فذهب إليه و لم يطل المقام فيه، فرجع إلى بغداد، و عكف على التدريس و التأليف، حتى آخر يوم من أيامه، برغم ضعفه و كبر سنه ..

و لقد كان فى كل بلد يحل فيه، يلتقى بفطاحل علمائه، يأخذ عنهم،

---

(۱) مما يذكره التاريخ أن الحنابلة أو أهل الحديث غضبوا عليه لمخالفته لهم فى رأى، فرموا بيته بالحجارة و حاصروه فلم يستطع الخروج حتى مات، و لم يستطيعوا الخروج بجثته من بيته فاضطروا لدفنه فيه!!!

علم التفسير، ص: ۱۰۷

و يعطيهم، و لم يكن علم هؤلاء الاكابر قاصرا على فرع دون فرع، بل كانوا كالموسوعة، التى تجد فيها الوانا شتى من المعارف .... من تفسير و قراءات و حديث، و علم برجاله، و رواياته، و نحو و بلاغة، و فقه، و أدب، و تاريخ.

فأخذ عنهم الطبرى هذه الموسوعة، و استوعب هذه العلوم، و برع فيها، و إن اختلفت درجة هذه البراعة .. و لم يكن ذلک غريبا على رجل كالطبرى، فقد وهب حياته للعلم، و تخفف من كل اثقال الحياة و تبعاتها، حيث قضى حياته دون زواج. مع استعداد كبير للرضا بالحياة و شظفها، فكان انتاجه متساوقا مع نبوغه و فهمه و تفرغه، فترک كثيرا من المؤلفات التى أوصلها بعضهم الى نحو الثلاثين، و اشتهر منها مؤلفان: «تاريخ الأمم و الملوک»، «و جامع البيان فى تأويل آى القرآن» الذى يقع فى ثلاثين جزءا و هو الذى يهمنا الحديث عنه الآن.

مقدمات سبقته:

و لكن قبل أن نتحدث عن هذا التفسير، لا بد أن نتحدث حديثا موجزا عما سبقه من مقدمات أدت إليه، فإن مثل هذا التفسير الجامع الكبير، لا يمكن أن ينشأ دفعة واحدة، دون محاولات و مقدمات، ساعدت على ولادته عملاقا ..

فقد وضع هذا التفسير فی النصف الثانی «۱» من القرن الثالث الهجری تقریبا، و لم یکن معنی ذلک أن السنین التی زادت علی المائتین و الخمسین قبله لم یکن فیها تفسیر، بل کان فیها تفسیر و مفسرون، اشتهروا بقولهم فیه، فی کل عاصمهٔ من عواصم العالم الاسلامی: فی مکهٔ، و المدینهٔ، و بغداد، و الکوفهٔ، و البصرهٔ، و دمشق، و مصر. و غیرها من بلاد الأندلس و الشمال الافریقی، و کان الراغبون فی التفسیر یرحلون إلی هؤلاء المشهورین و یأخذون عنهم ..

لکن التفسیر کان شأنه کشأن کل علم اسلامی فی نشأته، نشأ صغیرا مبعثرا، ثم تجمع و کبر بمرور الزمن، و بذل الجهود.

و نحن نعرف أن عصر التدوین للعلوم الاسلامیهٔ بمعناه الواسع، لم یظهر إلا فی أیام الدولهٔ العباسیهٔ، و کانت هناک تدوینات سبقت هذا العصر، فی عهد

(۱) ذکر الدکتور أحمد الحوفی عنه: أنه ألفه قبل کتابه فی التاریخ و أنه قرأه علی تلامیذه سنهٔ ۲۸۲ ه و أملاه علیهم من سنهٔ ۲۸۳ ه إلی سنهٔ ۲۹۰ ه کتاب الطبری ص ۱۰۸ أعلام الاسلام.

علم التفسیر، ص: ۱۰۸

الأمویین و ما قبله، لکنها لم تأخذ المظهر القوی، الذی أخذته فی عهد العباسیین، الذی نضجت فیه العلوم الاسلامیهٔ المتنوعهٔ و دونت، و کان منها علم التفسیر ..

و کانت الصفهٔ البارزهٔ للذین تعرضوا لتفسیر القرآن، تهیبهم من القول فیه بآرائهم و اعتمادهم علی ما وصل إلیهم من روایات یتناقلونها، منها الصحیح و منها الضعیف أو الموضوع أو المستمد من الاسرائیلیات .. و لم یصل إلینا من هذه التفاسیر شیء منسق، و إن کنا عرفنا بعض أصحابها. مما تناقله الرواهٔ عنها فی الکتب التی بین أیدینا ..

و قد أثر هذا الجو علی الطبری، فکانت عنایته البالغهٔ بالروایهٔ، و إن لم یمنعه هذا من أن یدلی برأیه موافقا لها أو مخالفا، فکان تفسیره یمثل دائرهٔ معارف ضخمهٔ فی کل العلوم التی کانت سائدهٔ فی هذا العصر و تتصل بتفسیر القرآن، و ذلک بسبب نبوغ الطبری و اتساع دائرهٔ معارفه و استفادته من الجو العلمی الذی عاش فیه ..

علی أن هذا التفسیر العظیم الذی أخذ شهرهٔ واسعهٔ، و تقدیرا عظیما من کبار العلماء عند ظهوره حتی لیقول أبو حامد الأسفرائنی المتوفی سنهٔ ۴۰۶ ه- ۱۰۱۵ م عنه «لو سافر رجل إلی الصین حتی یحصل کتاب تفسیر محمد ابن جریر لم یکن ذلک کثیرا» أقول إن هذا التفسیر علی عظمته اندثر و نامت نسخه فی بعض المکتبات الخاصهٔ .. فمرت قرون و هو مندثر، دون أن یعرفه أحد، اللهم إلا بعض نماذج، و ورقات مبعثرهٔ، کانت تشیر إلیه، و تثیر تلهف العلماء علیه .. حتی نجد المستشرق «نولدکه» یکتب فی سنهٔ ۱۸۶۰ م بعد أن اطلع علی نماذج من هذا التفسیر، «لو حصلنا علی هذا الکتاب لاستطعنا أن نستغنی عن کل کتب التفسیر المتأخرهٔ علیه، و لکنه یبدو للأسف. مفقودا بالکلیهٔ، و لقد کان مثل کتاب التاریخ الکبیر لنفس المؤلف نبعا لا ینضب استمد منه المتأخرون حکمتهم «۱».

(۱) نقلا عن کتاب مذاهب التفسیر لجولد تسهیر تعلیق المرحوم الدکتور عبد الحلیم النجار ص ۱۰۸ المطبوع ۱۹۵۵ بمطبعهٔ السنهٔ المحمدیهٔ ..

علم التفسیر، ص: ۱۰۹

و قد اراد الله لهذا الکتاب العظیم أن یبعث من جدید فی عهد النهضهٔ المطبعیهٔ إذ وجدت منه نسخهٔ خطیهٔ کاملهٔ- کما یقول «جولد تسهیر» فی مکتبهٔ أمیر حائل. و أمکن الاعتماد علیها فی طبعه بالقاهرهٔ فی أوائل هذا القرن.

و یقول العلامهٔ الاستاذ محمود شاکر فی مقدمته التی کتبها لهذا التفسیر الذی حققه و علق علیه هو و أخوه العلامهٔ المحدث المرحوم الشیخ أحمد شاکر (و النسخ المخطوطهٔ الکاملهٔ من تفسیر الطبری لا تکاد توجد، و الذی منها فی دار الکتب (المصریهٔ) اجزاء مفردهٔ

من الجزء الأول، و الجزء السادس عشر، و منها مخطوطة واحدة كانت فی خمسة و عشرين مجلدا، ضاع منها الجزء الثانی و الثالث .. و هی علی ما فيها تكاد تكون أصح النسخ و هی محفوظة بالدار تحت رقم ۱۰۰ تفسير

و يقول جولد تسهير: كما طبعت منه بعد ذلك طبعة منقحة سنة ۱۹۱۱، و يقول الدكتور الحوفی الذی كتب عن الطبری فی سلسلة أعلام العرب ((طبع سنة ۱۹۲۱ م بالمطبعة اليمنية بالقاهرة، و بمطبعة بولاق سنة ۱۹۲۳ م، و يطبع بدار المعارف الآن بمصر تحقيق الأستاذ محمود شاكر)

و كم فی بطون المكتبات الخاصة و العامة من ذخائر لنا ثمينة، مثل هذا التفسير لما يقيض لها من يكتشفها أو يطبعها بعد ..

و لا بد لی من كلمة تقدير أقدمها للجهد العظيم الذی بذله الأخوان «شاكر» فی تحقيق هذا التفسير و التعليق عليه .. فی طبعة ممتازة تقوم بها دار المعارف بمصر و أصدرت منها ۱۶ مجلدا انتهت إلی قوله تعالی «أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِينَ بَدَّلُوا) من سورة إبراهيم الجزء الثالث عشر من القرآن. و توقف حتی الآن (۱۹۸۲ م) كما أخبرنی الاستاذ محمود

لقد قام المحققان مشكورين بتخريج الروايات التی وردت فيه، و هذا أمر مهم جدا للقارئ .. و بتحقيق الألفاظ، و نسبة الأشعار، و الأقوال إلی أصحابها، و المراجعة علی النسخ الخطية و المطبوعة، و أهم من ذلك فتح مغاليق الجمل، بما عنا به من ترقيم و فواصل، و ذلك لكثرة ما جاء فی كلام الطبری من

علم التفسير، ص: ۱۱۰

جمل اعتراضية استطرادية، و فواصل طويلة، تعرقل القارئ عن متابعة القراءة، أو تحول بينه و بين الفهم الصحيح ..

و الواقع أن للطبری أسلوبا خاصا يحتاج إلی مزيد من الصبر و الأناة، و التتبع الدقيق لمعانيه، حتی إذا ألفه الانسان، سهل عليه بعد ذلك أمره .. مثله مثل بعض كتابنا المعاصرين الذين لهم أسلوبهم الخاص الذی يحتاج إلی قليل من الصبر علی قراءته حتی يتعوده القارئ .. و لعل خير ما يعبر عن ذلك هو الاستاذ محمود شاكر العالم الدقيق حين يقول فی مقدمته:

كان يستوقفنی فی القراءة كثرة الفصول فی عبارته، و تباعد أطراف الجمل، فلا يسلم لی المعنی، حتی أعيد قراءة الفقرة منه، مرتين أو ثلاثا .. و كان سبب ذلك أننا ألفنا منهجا من العبارة، غير الذی انتجه أبو جعفر، و لكن تبين لی أن قليلا من الترقيم فی الكتاب، خليق أن يجعل عبارته أبين، فلما فعلت ذلك فی أنحاء متفرقة من نسختی، و عدت بعد إلی قراءتها، وجدتها قد ذهب عنها ما كنت أجد من المشقة.

علی أن الذی كان يجده الاستاذ شاكر .. وجده من قبله المفسرون الذين نقلوا عن الطبری فی غير زماننا، مثل السيوطی و ابن كثير و أبو حيان و القرطبی.

و لذلك وقعوا فی بعض أخطاء فی فهم المراد. كما يقول الاستاذ شاكر نفسه:

«و لما راجعت كتب التفسير وجدت بعضهم ينقل عنه فينسب إليه ما لا أجده فی كتابه، فتبين لی أن سبب ذلك .. هو .. هذه الجمل التی شقت علی قراءتها، يقرؤها القارئ، فربما أخطأ فهم أبی جعفر .. و ربما أصاب»

و إذن ففی أسلوب أبی جعفر فی تفسيره شیء من الصعوبة، ليست قاصرة علی الذين تعودوا منا الأسلوب المعاصر، بل أيضا علی القدماء من العلماء المفسرين أنفسهم، مما كان سببا فی أنهم أخطئوا فهم المراد من أبی جعفر.

و قد وقع لی كثيرا ما وقع للأستاذ محمود شاكر حين قراءة هذا التفسير، فكنت أعانی الكثير فی فهمه، و تتبع أفكاره، و وصل كلامه بعضه

علم التفسير، ص: ۱۱۱

ببعض. و كنت أضيق ذرعا بكثرة استطراداته و انتقاله حين الكلام علی فكرة أو موضوع، إلی كلام آخر بين كلامه، و إن كان له صلة به إلا أنه يمزق المعنی، و يشتت الفكر بين الفكرة الأصلية، و بين ما استطرد إليه و أضافه، حتی وجدت الجزء الأول من هذا التفسير

المحقق، فسهل على كثيرا مما كنت أجده من صعوبة، كما وفر أيضا من الوقت.

و لأجل أن اشرككك معى فى هذا .. أضع أمامك هذا النموذج من كلام الطبرى فى تفسير قوله تعالى «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» و مثله «يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ» و «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» بعد أن استعرض بعض الأقوال قال «۱»:

«و الصواب فى ذلك من القول و التأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء فى كلام العرب إظهار المستهزئ للمستهزئ به من القول و الفعل ما يرضيه ظاهرا، و هو بذلك من قوله و فعله به مورثه مساءة باطنا. و كذلك معنى الخداع و المكر.

فاذا كان ذلك كذلك «۲»- و كان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق فى الدنيا الاحكام. بما أظهروا بألسنتهم، من الاقرار بالله و برسوله، و بما جاء به من عند الله المدخلهم فى عداد من يشمله اسم الاسلام، و ان كانوا لغير ذلك مستبطنين- احكام المسلمين المصدقين اقرارهم بألسنة أنهم مصدقون، حتى ظنوا فى الآخرة أنهم إذا حشروا فى عداد من كانوا فى عدادهم فى الدنيا أنهم واردون موردهم و داخلون مدخلهم. «و الله جل جلاله- مع اظهاره ما قد أظهر لهم من الأحكام الملحقة بهم فى عاجل الدنيا. و آجل الآخرة إلى حال تمييزه بينهم و بين أوليائه، و تفريقه بينهم- معدّ لهم من أليم عقابه و نكال عذابه ما أعد منه لأعدى أعدائه، و شر عباده، حتى ميز بينهم و بين أوليائه، فألحقهم من طبقات صحيحة بالدرك الأسفل- كان معلوما أنه جل ثناؤه بذلك من فعله بهم- و إن كان جزاء على أفعالهم، و عدلا ما فعل من ذلك بهم،

---

(۱) ص ۳۰۳، ۳۰۴ ح تحقيق شاكر

(۲) من هنا جملة اعتراضية استطرادية تطول نحو عشرة أسطر إلى قوله كان معلوما ..

علم التفسير، ص: ۱۱۲

لاستحقاقهم اياه بعصيانهم له- كان بهم- بما أظهر لهم من الأمور التى أظهرها لهم أمن الحاقه احكامهم فى الدنيا باحكام أوليائه و هم أعداء، و حشره إياهم فى الآخرة مع المؤمنين، و هم به من المكذبين- إلى أن ميز بينهم دينهم- مستهزئا و بهم ساخرا .. الخ»

فانت ترى فى هذا النموذج كثرة الاستطرادات و بعد أجزاء الجملة بعضها عن بعض بسطور بلغت نحو عشرة- فى احداها .. و قد وضحت لنا الفواصل التى وضعها الاستاذ محمود شاكر إمكان الربط بين الجملة الواحدة و لذلك علق فى الهامش بقوله «أكثر الطبرى الفصل بين الكلام فى هذه الفقرة و سياق العبارة هو كما يلى «فإذا كان ذلك كذلك كان معلوما أنه جل ثناؤه بذلك من فعلهم بهم. . كان بهم مستهزئا و بهم ساخرا» و ما بين الكلام فى هذين الموضوعين فصل للبيان.

و ترك الفصلة الطويلة جدا و هى من أول قوله «فاذا كان ذلك كذلك ..

كان معلوما. و بين جزءى الجملة ما يزيد عن عشرة أسطر جاء بها لزيادة التوضيح- و لكن من الصعب جدا على القارئ العميق أن يصل إلى فهم هذه الفقرة .. و لا سيما فى الطبعات التى لا توجد فيها هذه الفواصل ..

لكن لا تظن أن هذه الظاهرة تعم الكتاب كله بل هى قليلة، و بجوار هذا القليل تجد الأسلوب المشرق الذى يمكن ادراكه بسهولة حين يدلى برأيه بعد نقله للروايات الكثيرة فى موضوع الآية ..

موقف الطبرى و موقفنا من الروايات:

اشارة

و لقد كان الطبرى يورد هذه الروايات، و هو عالم بما فيها من تناقض أو كذب أو ضعف، ثم ينقدها أحيانا، و يأتى أيضا بالكثير منها و يتركها بلا نقد.

و بعض النقاد يذهبون إلى تبرئة ساحة أبى جعفر من النقد، لسياقه هذه الروايات دون نقدها، قائلين إنه ذكر لك السند، و عليك أنت أن تبحث عن صحته أو كذبه أو ضعفه .. الخ، راوين العبارة المشهورة بين علماء الحديث

علم التفسير، ص: ١١٣

(من أسند لك فقد حملك) يعنون أن من ذكر لك سند الرواية فقد برئت ذمته، و حملك أنت مسئولية البحث عن صحته ..

و مع أن هذا الكلام صحيح فى حد ذاته، و ربما كان محتملا للخاصة أو خاصتهم فى زمنه إلا أنه يحمّل القراء عامة أمانة فوق طاقتهم، فليس كل قارئ عارفا بالرجال، أو بأساليب النقد، حتى يستطيع التمييز بين المقبول و غير المقبول، و ليس كل قارئ عنده الرغبة أو الأمانة التى تحمله على التوقف حتى يتبين.

على أن هذا إن كان ممكنا فى زمن كثرت فيه الكتب المطبوعة المتداولة التى عنيت بالرواة و نقدهم و بيان غثهم من سمينهم، فإنه لم يكن متيسرا من قبل شيوع هذه الكتب.

و من أجل هذا كان تدوين هذه الروايات التى كانت متداولة على ألسنة الناس فى أيامه- و معروف بين العلماء أنها كانت بضاعة القصاص للتكسب و الرواج عند العامة- أقول كان رفعها إلى مقام التدوين، و وضعها بجانب كلام الله على أنها تفسير له، مما ساعد كثيرا على إشاعة الخرافات و الأضاليل فى نفوس المسلمين ملصقة بتفسير كلام الله.

بل إنى أقول أكثر من هذا فيما يتصل بالروايات التى نقدها، و هى أمنية تمنيت أن لو كانت قد تحققت فى ذلك الزمن المبكر من وضع التفسير، كنت أتمنى أن لو اقتصر الطبرى و أمثاله على الروايات الصحيحة فى تفاسيرهم، و جردوها من الروايات الباطلة التى كروا عليها بالنقد .. لأنها كانت ستموت فى زمنها، أما بعد أن دونت و وضعت بجانب التفسير. فقد فتحوا الباب للقصاص و أصحاب الهوى أن يطلعوا عليها، و يستندوا إليها، فى حكاياتهم للعوام لجذب انتباههم، و كسب إعجابهم .. و ابتزاز أموالهم .. كما نرى الكثير فى أيامنا ممن يدورون فى الأرياف، و بين العوام، أو متخلفى الثقافة، يتحدثون فى التفسير أو الدين و يستولون على ألبابهم بهذه الروايات الخيالية الخرافية، دون خوف من الله، و لا حرج من أصحاب العقول و الفهم. و لا مراعاة لما يجب أن يكون عليه

علم التفسير، ص: ١١۴

تكوين الأمة العقلى و الفكرى حتى انجرف فى هذا التيار بعض العلماء من الوعاظ و الخطباء ...

و لقد روى لنا كيف أن الخرافيين ممن كانوا يعتمدون على هذه الروايات الكاذبة، كانوا يستولون على قلوب العامة، و يهيجونهم ضد العلماء الذين ينكرون هذه الروايات، حتى يوجعوهم ضربا و إهانة، و مع ذلك عنى الطبرى بتدوينها!!

إننا نجنى من هذا و ذاك الآن الكثير من المر، و الكثير من التهجم على الاسلام و كتابه .. و لقد كونت هذه الروايات جانبا خرافيا فى عقول المسلمين، تحتاج إلى كثير من الجهد و الوقت فى القضاء عليه، و بعض المتمردين على الدين- من المسلمين أنفسهم- مع الأسف ممن تأثروا بمؤثرات غريبة، يتخذون من هذا تكأة لرفض الدين كلية، و مع أنهم مبطلون، إلا أنهم أصحاب هوى، يستغلون نقطة الضعف عند عدوهم لينقضوا عليه، و نحتاج نحن إلى دفاع و جهد كبيرين، لتطهير عقول الناس من هذه الخرافات، و الروايات الإسرائيلية المضللة.

و لقد كان من الأولى لهؤلاء السلف الطيبين أن يكونوا بعيدى النظر، فيريحوا أنفسهم و الأجيال التى بعدهم من هذه الخرافات و الأضاليل، و يذكروا لنا ما صح سنده و ما رأوه بعقولهم الناضجة؟ و يتركوا غير ذلك يموت مع الزمن.

نعم كان من الأولى .. و لكن ما ذا نفعل الآن و هذا هو الذى كان .. و لعل لهم عذرا و أنت تلوم ..

واجبنا الآن هو التجريد:

إن هذا يحملنا الآن مسئولية ضخمة و إن لم تكن مستحيلة أو صعبة ..

و لكنها تحتاج إلى همة و غيرة و جهد يتكاتف فيه العلماء مع الحكومات التى تعنى بهذه الناحية ...

هذه المسئولية هى تجريد هذا التفسير و أمثاله من كل رواية غير صحيحة ..

سواء أ كانت إسرائيلية أم موضوعة .. و إخراج الكتاب بعد ذلك للناس

علم التفسير، ص: ۱۱۵

بريئا من هذه العيوب .. ثم جمع كل النسخ الأصلية من الأسواق و وضع ما أمكن منها فى المكتبات العامة ليطلع عليها الخواص من الباحثين كما يحظر النقل منها لما لم ينقل فى التجريد ..

بذلك نقضى على هذه الخرافات و الاسرائيليات من العقول، و لا بد بجوار ذلك من جهد آخر .. هو عدم السماح بطبع أى كتاب آخر فيه شىء من هذه الأضاليل .. فقد تسربت من كتب التفسير و كتب التاريخ كذلك إلى كتب أخرى بعناوين أخرى و تحتاج إلى المتابعة المستمرة ..

و إذا كانت هناك رقابة على المطابع فى الأمور السياسية، فمن الواجب أيضا أن تفرض هذه الرقابة فى مثل هذه الأمور، التى تتدخل تدخلا قويا فى تكوين عقلية المسلمين و إلى أجيال .. و تفسد تصوراتهم عن القرآن و عن الحياة ..

و هذا شىء ليس بالقليل، بل هو من الخطورة بمكان، و سبق أن أشرنا اليه ..

و لا أظن أن فينا من يعارض مثل هذا المشروع بحجة صيانة التراث أو حجج أخرى. فالتراث سيظل لمن يريد الاطلاع عليه. على أننا سوف نقدم التراث الفعلى حقيقة، و لا نحرم المطلعين من شىء له فائدة، بل نحول بينهم و بين سموم هذه الخرافات و نقيهم شر أضا ليلها .. و نشجع المطلعين على الاطلاع. و نقدم الكتاب فى حجم أقل كثيرا من حجمه الحالى .. و بثمن أقل من ثمنه مما يغرى بالشراء و الاطلاع .. رأى أضيفه إلى ما سبق من قبل ..

دفاع أو اعتذار:

و لقد أحسن الأستاذ محمود شاكر الدفاع عن الطبرى أو الاعتذار عنه، لما رواه من الأحاديث و الروايات الغريبة و المنكرة التى لم يكن من المستحسن روايتها .. فذكر فى هامش صفحتى ۴۵۳، ۴۵۴ من الجزء الأول، دفاعا لا أعتقد إلا أنه مجرد التماس عذر له، فهو يقول:

«تبين لى مما راجعته من كلام الطبرى أن استدلال الطبرى بهذه الآثار التى يرويها بأسانيدها لا يراد به إلا تحقيق معنى لفظ أو بيان سياق عبارة، إلى أن يقول: «و هذا مذهب لا بأس به فى الاستدلال».

علم التفسير، ص: ۱۱۶

و يقول: «فاستدلال الطبرى بما ينكره المنكرون، لم يكن إلا استظهارا للمعانى التى تدل عليها ألفاظ هذا الكتاب الكريم، كما يستظهر بالشعر على معانيها، فهو إذن استدلال يكاد يكون لغويا .. الخ».

و هذا الذى يقوله العلامة محمود شاكر لا بأس به فى الدفاع، لكنه مع ذلك ليس قاطعا ..

فما كان أغنانا عن هذه الروايات، و عندنا ما يكفى فى الدلالة على معناها من كلام العرب من شعر و نثر، على أن الاسرائيليات- و ما شابهها- لا تقطع بمعنى لفظ فى القرآن الكريم .. و فيها ما فيها من الخطر على فهمه، ثم إننا نجد الروايات الإسرائيلية على ما فيها من تناقض تتدخل لفهم شىء مغيب عنا، لم يعن القرآن ببيانه فجاءت هذه الروايات تفسر المراد منه، و هو ليس من باب الاستدلال على معنى الكلمة عند العرب، كما يستدل بالشعر .. و اكتفى هنا بمثال.

ما المراد بالشجرة:

ففی ص ۵۱۸ من الجزء الأول یروی الطبری عن ابن عباس قولا فی المراد بالشجرة فی قوله تعالی (وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ)، بأنها: البر، او السنبلة.

و یعدد الروایات عن ذلک القول، و یروی فی احداها صراحة أن أهل التوراة یقولون: هی البر، ثم روی روایات أخری عن المراد بالشجرة، و منها روایة ثانیة عن ابن عباس نفسه بأنها: الکرمة (ص ۵۱۹ فقرة ۷۳۰ و ما بعدها)، ثم یروی روایة ثالثة و أخیرة بأنها: التینة ص ۵۲۰ فقرة ۷۴۰.

و قد أتی بهذه الروایات التی شغلت حیزا کبیرا بعد ما ذکر قبلها: «الشجرة فی کلام العرب: کل ما قام علی ساق و منه قوله جل ثناؤه «وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ یَسْجُدانِ» یعنی بالنجم ما نجم من الأرض من نبت، و بالشجر ما استقل علی ساق» فذکر بذلک المراد بالشجرة فی کلام العرب. ثم بدأ فی بیان المراد منها عند أهل التأویل، و ذکر هذه الروایات الغریبة التی تعتبر کلها خبطا بدون دلیل و لا بینة.

علم التفسیر، ص: ۱۱۷

فما الفائدة- اذن- من کل هذا السرد، و هو لا یکشف عن معنی الکلمة عند العرب؟!

إنه حقیقة- أعنی هذا السرد- یکشف لنا عن نموذج من تفکیر الناس فی فهم القرآن فی ذلک الزمن .. لکننا کنا نود أن لو طوی عنا هذا النموذج، الذی لا أساس له من کلام العرب، و لا من بینة یوثق بها، ما دام یحمل معه هذه الخرافات.

و نلاحظ أن الطبری روی فی هذه الروایات روایتین عن ابن عباس. روایة تقول المراد بالشجرة: البر، و روایة أخر تقول: إنها الکرمة!! فهل کان لابن عباس رأی، أو رأیان، أو لم یکن له رأی البتة؟. و لکن الرواة قالوا عن لسانه! و من أین لابن عباس بهذا الرأی أو ذاک؟ ذلک ما کنا نحب أن یضعه أبو جعفر فی حسابه و یریحنا و یریح نفسه .. و مع هذا التعب کله فی سرد الروایات لمعرفة المراد بالشجرة، نجد الطبری فی النهایة یضرب صفحا عن هذه الروایات کلها، و لا یثق بشیء منها، و کأنها معرض تحف قدیمة بالیة، و یشق الطریق إلی الرأی الذی یرتضیه- معه- أهل العلم و العقل المتزنون، و هو نموذج لخطته فی التفسیر حین یکشف عن رأیه.

و الحق أنها خطة ممتازة تکشف عن عقلیته الفذة، العقلیة العلمیة المؤمنة التی لا ترضی بالکلام الجزاف، و التی تحافظ علی العقول أن یملأها الحشو و الخرافة و ما لا جدوی منه .. و حبذا لو التزم هذه الطریقة فیما سرده من روایات. اقرأ معی رأیه فی المراد من الشجرة بعد سرد الروایات:

قال أبو جعفر (یعنی نفسه و هذه طریقته): و القول فی ذلک عندنا أن الله جل ثناؤه أخبر عباده أن آدم و زوجته أکلا من الشجرة التی نهاهما ربهما عن الأکل منها فأتیا الخطیئة التی نهاهما عن إتیانها بأکلهما ما أکلا منها بعد أن بین الله جل ثناؤه لهما عین الشجرة التی نهاهما عن الأکل منها، و أشار إلیها بقوله: «و لا تقربا هذه الشجرة» و لم یضع الله جل ثناؤه لعباده المخاطبین بالقرآن دلالة علی أی أشجار الجنة کان نهیه آدم أن یقربها، فلم ینص علیها باسمها، و لا بدلالة

علم التفسیر، ص: ۱۱۸

علیها. و لو کان لله فی العلم بأی ذلک، من أی رضا، لم یخل عباده من نصب دلالة لهم علیها، یصلون بها إلی معرفة عینها، لیطیعوه بعلمهم بها، کما فعل ذلک فی کل ما العلم به له رضا.

فالصواب فی ذلک أن یقال: إن الله جل ثناؤه نهی آدم و زوجته عن أکل شجرة بعینها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلی ما نهاهما الله عنه، فأکلا منها، کما وصفهما الله جل ثناؤه به، و لا علم عندنا بأی شجرة کانت علی الیقین، لأن الله لم یضع لعباده دلیلا علی ذلک فی القرآن، و لا فی السنة الصحیحة، فأنی یأتی ذلک؟ و قد قیل: کانت شجرة البر، و قیل: کانت شجرة العنب، و قیل، کانت شجرة التین، و جائز أن تکون واحدة منها.

و ذلک علم، إذا علم، لم ینفع العالم به علمه، و إذا جهله جاهل لم یضره جهله به «۱» ه ..

هذا هو الذی یستریح إلیه العقل و القلب. و هو یکفینا جدا فی فهم کلام الله، و لو اقتصر أبو جعفر علیه لکان خیرا له و للمسلمین .. و

هـذا النموذج من التفسير هو الـذى أدعو الى الاقتصار عليه فيما دعوت إليه من تجريد تفسير الطبرى مع ضـميمة ما يوجد من حديث صحيح.

خطته فى المبهمات:

و الخطـة التى سار عليها الطبرى فى تفسيره من عـدم الجرى وراء معرفـة أشـياء مبهمة لم يبينها القرآن و لا السـنة، و لا ضـرر من عدم معرفتها، هذه الخطة هى المثلى فى تفسير القرآن، و قد سار عليها، و هاجم الذين يتعبون أنفسـهم فى الجرى وراء معرفة نوع الشـجرة، كما قرأت سابقا، كما هاجم الـذين يحاولون معرفـة الـذى كان على مائدة عيسـى: أسـمك أم غيره؟ فى أواخر سورة المائدة، و معرفة عـدد الـدراهم التى بيع بهـا يوسف: أ هى عشـرة أم عشـرون أم أكثر؟ .. و أمثال ذلك فى القرآن، ملتزما قاعـدة: [العلم بها غير نافع، و الجهل بها غير ضار].

و لو كان العلم بها نافعا لبينه الله .. و بذلك سد الباب على الفضوليين الذين

---

(۱) ص ۵۲۰، ۵۲۱ ج ۱ تحقيق الأخوين: شاكر ..

علم التفسير، ص: ۱۱۹

يخبطون فى مثل هذه الأمور خبط عشواء، و يضيعون أوقاتهم فيما لا يفيد. و هذا من أجود التفاسير و أنقاها ..

و مع ذلك تجده يذكر الروايات المتعددة حول هذه الأشياء التى ينكر الجرى وراءها!!

و إننى أعتقـد أن هـذه الروايات كانت رائجة فى أيامه، فذكرها ليكر عليها بخطته، و يبين أنه لا فائدة من الاشـتغال بها .. لكنها بذلك اكتسبت البقـاء عبر القرون، تطغى على التفكير، و تحتل مكانا لها فيه. بل تأخـذ صـفة الصـدارة و تطرد الفكر السـليم. فما تسأل إنسانا الآن عن نوع هذه الشجرة، إلا قال لك قولا مما نقله الطبرى و استهجنه، و قليل من العلماء من يقف عند خطة الطبرى و يقتدى به فيها، لأن الفضول كثيرا ما يؤدى بأصحاب العقول ..

و جـاء الخطر الأكبر من أن بعض من جاء بعـد الطبرى من المفسـرين، ربما اقتصـر على ذكر نوع الشـجرة، كأن ذلك أمر ثابت، يقرؤه الطالب المبتدئ فى الأزهر أو غيره، و يقرؤه أنصاف العوام، فيأخذونه قضـية مسـلمة. ترتسم فى عقولهم من الصـغر، لتسـتمر غالبة على تفكيرهم فى الكبر!! و اسأل من شـئت من العلماء الآن عن نوع الشـجرة، تجد منه الجواب سريعا بتحديدها .. فإذا قلت له: من أين لك هذا؟ قال: كتب التفسير التى درسناها، دون التأكد من صحة ما ذكرته هذه الكتب عن طريق حديث صحيح .. و هكذا جاء الخطر على العقول.

شىء لا بدّ من التنبيه عليه:

لقد لاحظت فى تفسير الطبرى و فيما اشـتهر عنه بين العلماء أشـياء لا بد من الوقوف عندها لتمحيصـها .. و قد يدعو تتبعها إلى الإطالة فلذلك اكتفى بواحدة منها ..

فالعلماء و الدارسون يضـعون هذا التفسـير على قمة التفسير بالمأثور، و كثير منهم يرد سـبب هذه التسـمية إلى عناية الطبرى بالروايات الكثيرة التى تشغل الحيز الأكبر منه.

علم التفسير، ص: ۱۲۰

و لكن بقليل من التتبع لآراء الطبرى و تفسيره الخاص به، نجد أنه لم يلتزم بهذه الروايات عند ما أخذ يبدى رأيه فى تفسير الآية، يذكر أولا ـ معنى الكلمات عنـد العرب، ثم اعرابها مع ذكر الشواهـد على ذلك من شـعر أو نثر، ثم يـذكر الروايات الواردة فى تفسـير الآيـة،

صحيحة و غير صحيحة، ثم يكر على هذه الروايات أحيانا بالنقد أو النقض، ثم يأخذ في بيان رأيه في تفسير الآية، غير ملتزم بما ذكره، إلا إذا كان صحيحا ثابتا، و يبدى رأيه فيما يؤخذ منها من أحكام، غير متقيد غالبا برأى امام فقيه معين، مع أنه كان شافعيا، حتى قيل عنه إنه كان صاحب مذهب فقهى خاص به، اندرس لعدم شيوع تلاميذ له ينتصرون لآرائه، و يجادل مع ذلك المتكلمين من أصحاب المذاهب الكلامية، ملتزما خطة السلف مدافعا عنها.

و معنى ذلك كله .. أن الرجل كان له رأى و اتجاه بارزان، و تفسيره الخاص به الذى يبدؤه بقوله: «قال أبو جعفر .. أو يقول: و الرأى عندنا، أو التأويل عندنا أو مثل ذلك. و يبين هذا الاتجاه الاستقلالى بوضوح ..

فهو لم يكن- اذن- أسير الروايات الكثيرة التى ذكرها، و لا أسير أقوال العلماء الذين سبقوه، لأنه أحيانا يرد عليهم و ينقض قولهم .. فهو مفكر مستقل، له رأيه فى معنى الآية، و فيما يستنبط منها من أحكام، و آراؤه فى غاية الاتزان العقلى، و لا سيما عند ما يتناول بعض الأشياء التى كثر الجدل فيها، كالأشياء التى ذكرناها و كالمتشابهات مثل اليد و العين الخ ..

و الطبرى بهذا يوضع فى مقدمة أهل الرأى فى التفسير، إذا فهمنا الرأى على أنه الذى ينتهى إليه الانسان بعد دراسة عميقة متجردة من الأهواء، التى تعصف بعقول العلماء، و تحملهم على لى عنق الكلمات القرآنية لتوافق أهواءهم أو مذاهبهم ..

فالذين يفهمون إذن أن تفسير الطبرى من التفسير بالمأثور، بسبب كثرة الروايات الواردة فيه، غير دقيقين فى الفهم، لأنه لم يتقيد بهذه الروايات و لم يكن أسيرا لها ...

علم التفسير، ص: ۱۲۱

أما إذا فهمنا (الرأى) على أنه اخضاع الآيات للمذاهب الخاصة، و الشطط فى تأويلها، و عدم التقيد بالحديث أو تأويله كذلك، فإن الطبرى ليس من هذا النوع، و لا يعد تفسيره على هذا من التفسير بالرأى، لأن الرجل التزم خطة التحفظ فى التأويل، و الحفاظ على منهج السلف، و الدفاع عنه، فيما يتصل بالله و صفاته، و المتشابهات عموما فى القرآن ... و كل ما تتوقف معرفته على أخبار موثوق بها عن الله سبحانه، أو عن الرسول صلى الله عليه و سلم.

و لو قلنا بناء على هذا إن تفسيره تفسير بالمأثور لكنا محقين .. لأنه لم يتأثر بالمذاهب الكلامية التى سادت المجتمع الاسلامى فى عصره، و لكنه التزم الخطة السلفية المأثورة عن الصحابة ..

الرأى المذموم:

و لو تأملنا قليلا فيما ورد من كراهة الصحابة للرأى فى التفسير، و ما ورد فى ذلك من ذم، لفهمنا أن الرأى المذموم فى التفسير هو الذى يخضع للأهواء و لعصبية المذاهب، و لم يقم على دراسة محايدة متأنية. أما الرأى الذى يبديه الإنسان فى التفسير مستندا إلى معانى كلام العرب، و إلى ما ورد من حديث صحيح، غير متأثر بمذهب مستحدث أو عصبية طارئة، حتى يصل إلى المفهوم الذى يستريح إليه عقله و قلبه، فذلك لا يمكن أن يذم بحال من الأحوال- كما قلنا من قبل-، و إلا ما كان هناك معنى لدعوة القرآن المسلمين لتدبر آياته و الاتعاظ به، و أخذ أحكامهم منه ..

و قد تحدث عن ذلك الامام الطبرى فى مقدمة تفسيره، كما تحدث فى هذه المقدمة، عن أمور لا بد من الاحاطة بها لكل من يفسر القرآن مثل اتفاق معانى القرآن، و ما اتفقت فيه ألفاظ العرب و العجم، و اللغة التى نزل بها القرآن، و نزوله على سبعة أحرف، و ما قيل فى النهى عن تأويل القرآن بالرأى، و فى الحض على العلم بتفسير القرآن، و آراؤه فى المفسرين الخ ..

بقيت كلمة لا بد من بيانها فى ختام هذا، و هى كلمة (تأويل) التى جعلها الطبرى فى عنوان كتابه: ((جامع البيان عن تأويل آى القرآن)) و التزمها عند ما يأخذ فى ابداء رأيه فى الآية ..

علم التفسير، ص: ۱۲۲

هل تأخذ هنا معنى غير معنى كلمة تفسير التى استعملها غيره من المفسرين.

و الجواب. لا .. فإن المراد بها هو المراد بكلمة تفسير.

و يكفى هذا دون الدخول فى تفاصيل ما قيل عن معنى كلمة تأويل الواردة فى القرآن من معان أخرى لم يقصدها الطبرى فى استعماله لها ..

علم التفسير، ص: ۱۲۳

الإمام فخر الدين الرازى و تفسيره

اشارة

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين البكرى الطبرستانى الرازى.

و شهرته فخر الدين أو ابن الخطيب الشافعى.

ولد سنة ۵۴۴ ه و توفى سنة ۶۰۶ ه. و كان ميلاده فى مدينة «الرى» و نسب إليها على غير قياس النسب فقيل الرازى ..

و قد نسب إلى هذه المدينة بهذه النسبة كثير من علمائها، مثل أبى بكر بن زكريا الرازى الطبيب العربى المعروف، و مثل أبى بكر الرازى الفقيه الحنفى المعروف بالجصاص، و أبو الحسين بن فارس بن زكريا الرازى صاحب كتاب المجمل فى اللغة، و محمد بن أبى بكر الرازى مؤلف «مختار الصحاح»، و قطب الدين الرازى و هو مؤلف شرح الشمسية و سماها «الرسالة القطبية» المعروفة فى الأزهر .. و توفى سنة ۷۶۶ ه

و لكن أشهر هؤلاء جميعا لدى عامة المسلمين و خاصتهم هو الامام فخر الدين الرازى صاحب التفسير .. و ما ذلك إلا لأن مؤلّفه و تفسيره مرتبط بكلام الله و خدمته، و بيان معانيه للمسلمين، و هكذا كل كتاب و كل مؤلف يرتبط بكتاب الله و يخدمه ..

العصر الذى عاش فيه و ألف كتابه

كان عصرا مليئا بالفتن الداخلية. و الهجوم الخارجى على المسلمين، و كان مثار هذه الفتن إما طمعا فى الملك، و إما طمعا فى وجاهة و سيادة مذهب، كما حصل بين الفرق الاسلامية .. المعتزلة، و أهل السنة، و الشيعة، و الرافضة من جهة، و فيما بين هذه الفرق نفسها من مذاهب «حتى عدا ابن السبكى تسعا و عشرين فرقة نازلها الرازى و انتصر عليها «۱»»

---

(۱) الامام فخر الدين الرازى- للدكتور على محمد حسن العمارى ص ۲۹.

علم التفسير، ص: ۱۲۴

و هذا يصور لك مدى ما كان يموج به عصر الرازى من خلافات و فتن ..

ثم تميز هذا العصر من ناحية أخرى بالإقبال على الدراسات العلمية من المنطق و العلم الطبيعى و الفلسفة، و علم ماوراء الطبيعة، و الهندسة و الفلك و الموسيقى، بجانب الإقبال على الدراسات الدينية و العربية ..

كما تميز باعتزاز المعتزلة بمعرفة الفلسفة و المنطق، و تعاليهم بها على غيرهم ..

و ادعائهم بأن العالم المتمكن لا يكون كذلك، إلا إذا جمع بين علوم الدين و هذه العلوم. و قد ظل المعتزلة مسيطرين بأفكارهم و إنتاجهم زمنا، حتى شعر أهل السنة بما يشبه عقدة النقص، فأقبلوا على هذه العلوم التى احتكرها المعتزلة و أضرابهم زمنا، فاغترفوا منها، لينازلوا المعتزلة و يكونوا أندادا لهم ..

و کان ممن اتجه هذا الاتجاه الإمام فخر الدین الرازی منذ شبابه. فتعلم علی والده، و کان من کبار علماء عصره و هو «ضیاء الدین أبو القاسم الرازی» و کان فقیها أصولیا متکلما صوفیا خطیبا محدثا أدیبا.

و أضاف إمامنا فخر الـدین إلی ما أخذه عن والده علوم عصـره، من الفلسـفة و المنطق و علم الفلک و الطبیعة علی علمائها، و اسـتعان بذلک کله علی خدمة دینه.

و تجلیـة معانی القرآن و أسـراره بالطریقة التی رآها مناسـبة لعصـره .. حتی یبز المعتزلة و غیرهم فیما یدعونه- من أنهم خدمة الدین و القرآن .. و الکاشفون عن معانیه و أسراره- و یلجمهم ..

؟؟؟ وضع ثقافته الاسـلامیة الواسـعة المتنوعة فی خدمة القرآن، هادفا؟؟ إلی أن یبرز ما فیه من الحکمة و المعرفة حسبما تفیده دراسة الفلسـفة و الکلام و العلوم الأخری، و لذلک کان یوغل فی بیان معانی القرآن و ما تدل علیه العبارات، و لو سار شوطا بعیدا فی العلوم التی یبرز بها هذه الناحیة ..

و إنک لتجد صورة من هذا حین فسـر قوله تعالی «رَبِّ الْعالَمِینَ»، و اندفاعه لیبین العوالم المتعددة التی خلقها الله .. فی السموات و فی الأرض .. مما یخیل للقارئ أنه ابتعـد کثیرا عن القرآن، و هو لم یبتعد، و إنما یفسـر «العالمین» بما وقف علیه من علم، یجلی به حکمة الله فی مخلوقاته ..

علم التفسیر، ص: ۱۲۵

فذلک أولی عنده و أجدی من حصر التفسیر فی مباحث لفظیة و بلاغیة ..

تبرز اعجاز القرآن البلاغی، بینما یوجـد فی القرآن آیات کثیرة تتحدث عن الکون، و تبرز الإعجاز العلمی للقرآن، و لا بد من بیانها و الکشف عنهـا، بواسـطة ما نعرفه من علوم .. و لـذلک اسـتغل الرازی ما عرفه من علوم لیجلی بها أسـرار القرآن، و معجزاته العلمیـة فی الکون. بالاضافة إلی معجزته البلاغیة مما أشار القرآن إلیه أو تکلم بصـراحة عن آیات الله فی کونه، و لا یجلی هذه الآیات، و یبرزها، و یصل إلی أغوارها إلا العلم. فإذا قال الله «رب العالمین» فما هی هـذه العوالم التی خلقها الله و هو ربها؟ لا تسـتطیع البلاغة أن تبرز لنا هذا و تبینه، بل العلم هو الذی یقدم لنا هذه العوالم أجلی بیان علی قدر اتساعه ..

و هو کل یوم یزداد اتساعا».

و سار الإمام فی دروسه علی هذا المذهب أو هذه الطریقة التی اختطها، برغم ما لقی من استغراب و معارضة من الذی ألفوا القدیم من التفسیر .. أو کما یقول: الذین ألفوا من أنفسهم التعلقات الفارغة عن المعانی، و الکلمات الخالیة عن تحقیق المعاقد و المبانی».

و کان مصـمما و مقتنعا بهذه الطریقة لخدمة القرآن، فبدأ یفسـر علی أساسـها سورة «الفاتحة» و اتسع فی تفسیرها و الاستنباط منها بما آتاه اللّه من علوم، تبرز قـدرة الله و حکمته فی خلقه، أو فی کونه العلوی و الأرضـی. فعنـد ما یتعرض مثلا لتفسـیر «رب العالمین» یبین أن الوجود لیس محصورا فی عالمنـا الـذی ضـبطت أحواله، لأـن الخلاء الـذی لا نهایـة له خارج هـذا العالم .. یمکن أن یشـتمل علی الآلاف من العوالم الأـخری .. بـل إن الانسـان لو اقتصـر علمه علی أن یحیـط من هـذا العـالم فقـط بعجائب المعادن، و یعرف عجائب أحوال النبـات، و عجائب أقسام الحیوان، لنفـد عمره فی أقل القلیل من هـذه المطالب، فلا ینتهی إلی غورها، مع أن ذلک کله ینـدرج تحت قوله تعالی «رَبِّ الْعالَمِینَ» «۱»

---

(۱) باختصار من کتاب التفسیر و رجاله للشیخ محمد الفاضل بن عاشور ص ۷۳، ۷۴.

علم التفسیر، ص: ۱۲۶

و فی مقدمة تفسیره یقول: «اعلم أنه مر علی لسانی فی بعض الأوقات أن هذه السورة الکریمة (الفاتحة) یمکن أن یسـتنبط من فوائدها و نفائسـها عشـرة آلاـف مسألـة فاسـتبعد هـذا بعض الحسـاد، و قوم من أهـل الجهـل و الغی و العنـاد، و حملوا ذلک علی ما ألفوه من

أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعانی و الکلمات الخالیة عن تحقیق المعاقد و المبانی، فلما شرعت فی تصنیف هذا الکتاب، قدمت هذه المقدمة، لتصیر کالتنبیه علی أن ما ذکرناه أمر ممکن الحصول قریب المنال» «۱».

رأی علماء عصره و غیرهم فیه و رأیه فیهم:

و نظرا لأن هذا النسق فی التفسیر لم یکن مألوفا فیما کتب من تفاسیر، و کان تفسیر الرازی هذا أول تفسیر دعمه صاحبه بالعلوم التی أتقنها من فلسفة و طب و فلک. الخ .. انتقده کثیر من العلماء حتی نجد أبا حیان صاحب تفسیر «البحر المحیط» الذی ولد بعد وفاة الرازی بخمسین سنة تقریبا یقول فیه بعد أن اطلع علیه: «جمع الإمام الرازی فی تفسیره أشیاء کثیرة لا حاجة لها فی علم التفسیر، و لذلک قال بعض العلماء: فیه کل شیء إلا التفسیر.

و هذه النغمة کانت موجودة فی زمن الرازی نفسه سمعها ورد علیها بشدة بقوله: «ربما جاء الجهال و الحمقی و قال: إنک أکثرت فی کتاب الله تعالی من علم التهیئة و النجوم، و ذلک علی خلاف المعتاد .. فیقال لهذا المسکین: إنک لو تأملت فی کتاب الله حق التأمل لعرفت فساد ما ذکرته.

و کان ذلک بلا شک ناشئا من شدة عنایته بالرد علی الفلاسفة فیما قالوه- و اعتقد أنه یمس القضایا الدینیة، و اجتهاده فی أن یبرز حکمة الله و هدیه القرآنی عن طریق کشف ما أشار الله إلیه فی القرآن من مظاهر النفس و الکون .. مقدما بذلک أدلة أخری علی إعجاز القرآن غیر الإعجاز البلاغی الذی تکلم فیه الکثیرون و اقتصروا علیه ..

---

(۱) مقدمة تفسیره ج ۱ ص ۳۲۲ عن «التفسیر و المفسرون» ج ۱، ص ۲۹۶.

علم التفسیر، ص: ۱۲۷

و کان شدید العنایة بالربط بین الآیات بعضها مع بعض و بین السور کذلک.

کما کان معنیا بالرد علی المعتزلة، و بتجلیة مذهبه الشافعی و مناصرته علی غیره من المذاهب، حتی ألف کتابا خاصا بسیرة الإمام الشافعی و مناقبه، و لم یهمل الرازی مع ذلک المسائل النحویة و البلاغیة و الأصولیة بل أدلی فیها بدلوه، و قد کان إماما فی الفقه و له آراؤه فیه، حتی قیل إنه من المجتهدین، و لکن ضیعه تلامذته، و إن کان شافعیا و أبلی بلاء حسنا فی نصرة مذهبه و الدفاع عن الشافعی و تجلیة مذهبه .. و قد ألف فی علوم عدة و ترک فیها کتبا منها المطالب العالیة، و البرهان فی الرد علی أهل الزیغ، و المحصول، و فی الحکمة أی الفلسفة: الملخص و شرح الاشارات، و عیون الحکمة، و قام بشرح الوجیز فی الفقه للإمام الغزالی .. و له کتاب فی مناقب الإمام الشافعی ..

هل أتم تفسیره؟

و قد شاع بین العلماء و قرروا أنه لم یتم کتابة تفسیره کله، و تولی إتمامه بعض تلامذته و ذکروا أسماءهم .. حتی أن ذلک دون فی طبعته التی أخرجتها المطبعة البهیة المصریة فی اثنین و ثلاثین جزءا. بتحقیق بعض العلماء مستدلین ببعض عبارات وردت فی التفسیر تدل علی أن المفسر غیر الرازی .. و أن مجموع ما فسر ضم بعضه إلی بعض فکان تفسیرا للقرآن کله سمی «مفاتیح الغیب» و نسب للرازی. بینما هو توقف عند سورة الانبیاء.

و المجال هنا لا یتسع لمناقشة هذا تفصیلا، لذلک اکتفی بتصدی أخینا و زمیلنا العالم الباحث الدکتور علی محمد حسن العماری لهذه النقطة فی کتابه «الامام فخر الدین الرازی» الذی أجازته أیضا لجنة القرآن و الحدیث بالمجلس الأعلی للشئون الاسلامیة الذی تولی طبع الکتاب

فقـد ذکر وجهـۀ نظر القائلین بأن الرازی لم یتم تفسیره، بأسانیدهم التی اعتمدوا علیها مما جاء فی التفسیر نفسه ثم تولی الرد مفصـلا علی هذه الأسانید، مسلما بأن تفسیر سورة الواقعۀ لیس للرازی. کما ورد فی کلام العلماء الناقدین .. و ان کان نسق التفسیر لم یختلف فیها عما کتبه الرازی ..

علم التفسیر، ص: ۱۲۸

و قـد انتهی الـدکتور العماری بعـد سـرد أدلته و الرد علی مخالفیه إلی ترجیـح أن الکتاب کله للرازی ما عـدا سورة الواقعـۀ و قال ص :۱۸۳

«لقـد ترجـح عنـدی بعـد هـذا التردد الطویل بین أخبار أصـحاب التراجم، و التفسـیر الکبیر للرازی أن هذا الإمام الجلیل قد أتم تفسیر القرآن کله، ثم لأمر لعله من صـنع التتر الـذین اغاروا علی خوارزم سـنۀ ۶۱۷ ه بعد وفاة الرازی بإحدی عشـرة سـنۀ، ضاع جزء من هذا الکتاب یغلب علی الظن أن یکون تفسیر سور متفرقۀ کتفسـیر سورة الواقعۀ، فجاء شمس الدین الخویی (المتوفی سنۀ ۶۳۹ ه)، و وضع لهذه السور تفسیرا، و ربما کان قد وضع تفسیرا کاملا للقرآن، و أدخل بعض أجزائه فی تفسیر الرازی»

و قـد قیل أیضا من الناقدین أن نجم الدین القمولی المتوفی سـنۀ ۶۲۷ ه کان له أیضا جهـد فی تتمـۀ هذا الکتاب .. و یلاحظ الدکتور علی العمـاری أن نسق تفسـیر سورة الواقعـۀ التی سـلم الجمیع أنه لیس للرازی لاـ یختلف عن نسق الرازی فی تفسـیره، ممـا یجعـل من الصعب علی الفاحص أن یمیز بین هذا و ذاک عن طریق الأسلوب و المنهج ..

و لیس هـذا بغریب، فهمـا من تلامـذته المتأثرین به، و حین کتبا، کان ما کتباه علی نسق أسـتاذهما. لم یکن بینهما فرق .. مما یصـعب علی القارئ الفاحص التمییز بین الأسلوبین ..

هل نقول إنه تفسیر علمی:

یمکن أن یقال ذلک بجوار کونه تفسـیرا موضوعیا لغویا فقهیا عقـدیا، فقـد اسـتعان علی تجلیۀ معانی ألفاظ القرآن بما عرفه من علوم فی زمنه .. و هـذا و إن عابه القدماء الذین ألفوا أن یکون التفسیر علی غیر هذا الوجه و قالوا فیه ما قالوا، إلا أننا لا نجاریهم علی طول الخط، فلیس ما قالوه- من أنه فیه کل شـیء إلا التفسـیر- صـحیحا، ففیه ما درج علیه المفسرون قبله و بعده من تفسیر یقوم علی الناحیۀ البلاغیۀ و النحویۀ و الفقهیۀ مع عنایته بالربط بین الآیات، و الرد علی المعتزلۀ.

علم التفسیر، ص: ۱۲۹

ثم فیه زیادات نافعۀ لکل من یرید التوسع فی معرفۀ أسرار القرآن و الکون، لیخرج من هذا بالعبر النافعۀ المؤیدۀ لإیمانه ..

و إذا کان الفقهاء قـد أخذوا ما جاء من آیات فی الأحکام الفقهیۀ و هی لا تتعدی نحو مائتی آیۀ، فأقاموا علیها علم الفقه و الأحکام .. فإنه قـد جاء فی القرآن آیات تتحـدث عن الکون و الانسان و الحث علی النظر فیها أکثر بکثیر جـدا مما ورد فی الأحکام .. و هی فی حاجۀ إلی تجلیۀ بالنظر فی علوم الکون و الانسان و الاستعانۀ بها فی إیصال أسرار القرآن للناس ..

و المهم فی هذه الحالۀ ألا یوغل المفسـر فی سـرد تفصیلات کثیرۀ، تجره إلی تفصیلات لا حاجۀ إلیها کثیرا .. فلنأخذ من تفسیر الامام الرازی ما نأخـذ من کتب التفسـیر الأخری، و لنأخذ منه ما یزید عن ذلک إن أردنا، مما یزیدنا علما و یقینا و إدراکا لأسـرار الکون، و عظمۀ الخالق. فهو أشبه بموسوعۀ أو مائدۀ یختار الجالس علیها ما یشاء من ألوان الطعام و الغذاء ..

و یمکن أن نعد هذا التفسـیر أساسا لا تجاه المرحوم المفسر «الشیخ طنطاوی جوهری» الذی ألف تفسیره علی هذا النسق أیضا، مستغلا ما وصل إلیه العلم و الفلک من فتوحات جدیدۀ ..

و مما لا شک فیه أن هذین التفسـیرین و أمثالهما لیسا لعامۀ القراء، و لکنها لخاصۀ الخاصۀ، فیکفی المسلم العادی ما یعلمه من المعنی العام للآیـۀ، و ما فیها من هدایـۀ دون الـدخول فی تفاصـیل .. مما تکفلت به أخیرا تفاسـیر مختصـرۀ طبعت علی هامش المصـحف، أو

وضعت مستقلة

و لقد کان مما یلفت النظر أن تقوم ضجة من العلماء حول ما ذکره الرازی و استطرد إلیه من علوم، فی الوقت الذی لم تحظ فیه الاسرائیلیات و الخرافات بمثل هذه العنایة و النقد، فظلوا یتناقلونها فی تفسیراتهم، مما نراه فی کتب التفسیر التی بین أیدینا .. و التی ألف بعضها بعد عصر الرازی .. و یشکو الجمیع منه الآن مر الشکوی ..

علم التفسیر، ص: ۱۳۰

النهضة الحدیثة للتفسیر

فی بدایة القرن الرابع عشر الهجری، و نهایات القرن التاسع عشر المیلادی بدأ تحول کبیر فی طریقة التفسیر. بدأ من مصر و علی ید الإمام الشیخ محمد عبده.

و قد کانت التفاسیر کما عرفنا- من أول أمرها تدور حول أبحاث لفظیة نحویة أو بلاغیة أو قراءات، و حول روایات، أغلبیتها الکبری خرافات، و إسرائیلیات. و أحادیث لا أصل لها- و جاء تفسیر الفخر الرازی فغلبت علیه العلوم العقلیة الفلسفیة و الفلکیة، فدون منها الکثیر عند ما یری مناسبة لذلک فوق المباحث الأخری .. و قد کان آخر هذه التفاسیر المتداولة بیننا هو تفسیر الألوسی المتوفی سنة ۱۲۷۰ ه جامعا لما رأی جمعه و إثباته من التفاسیر السابقة علیه ..

و حین ظهر الشیخ محمد عبده بنضجه العقلی، کانت کل هذه التفاسیر أمامه، فلم یتقبل طریقتها کما هی، و إنما نحا منحی جدیدا فی التفسیر، فی دروسه التی ألقاها ببیروت حین نفی إلیها، ثم عاودها حین عاد لمصر، و بدأ دروسه فیها من أول القرآن علی الطریقة التی رآها تبرز هدایته و أثره فی النفوس، حتی یستعید المسلمون بهدایته سیرتهم الأولی، فی القوة العلمیة و السیاسیة .. و یتحقق بذلک منهجه فی الإصلاح، الذی تأثر فیه بمنهج أستاذه جمال الدین الأفغانی ..

فالقرآن هو الذی نهض بالمسلمین الأول، و هو الذی ینهض بالمسلمین الآن، متی تشربوا هدایته، کما تشربها السابقون ..

علی هذا الأساس بدأ تفسیره للقرآن، هادفا إلی إبراز هدایته للنفوس، بعیدا عما جری علیه المفسرون السابقون، مما کان یذهب ببهاء المعانی، و روح الهدایة.

و یضیع الهدف المقصود منه «هدی للمتقین».

یقول السید محمد رشید رضا فی مقدمته لتفسیر المنار و هو الذی تشرب روح الأستاذ الإمام:

علم التفسیر، ص: ۱۳۱

«کان من سوء حظ المسلمین أن أکثر ما کتب فی التفسیر، یشغل قارئه عن هذه المقاصد العالیة، و الهدایة السامیة، فمنها ما یشغله عن القرآن، بمباحث الأعراب، و قواعد النحو، و نکت المعانی. و مصطلحات البیان، و فیها ما یصرفه عنه بجدل المتکلمین، و تخریجات الأصولیین، و استنباطات الفقهاء المقلدین، و تأویلات المتصوفین، و تعصب الفرق و المذاهب، بعضها علی بعض، و بعضها یلفتها عنه بکثرة الروایات، و ما مزجت به من خرافات الاسرائیلیات، و قد زاد الفخر الرازی صارفا آخر عن القرآن، و هو ما یورده فی تفسیره من العلوم الریاضیة و الطبیعیة و غیرها، من العلوم الحادثة فی الملة علی ما کانت علیه فی عهده- مما قلده فیه بعض المعاصرین، و هی تصد قارئها عما أنزل الله القرآن لأجله»

«و صحیح أنه لا بد من وسائل فهم القرآن من فنون العربیة و اصطلاحات الأصول، و معرفة سنن الله فی کونه، و ما صح من أحادیث رسول الله، و لکن الاغراق فی ذلک، و اللجوء إلی الروایات الباطلة الخرافیة، أمر یذهب بهدایة القرآن» ۱ ه مختصرا ثم یقول فی نهایة ما أورده حول هذا «فکانت الحاجة شدیدة إلی تفسیر تتوجه فیه العنایة الأولی إلی هدایة القرآن علی الوجه الذی یتفق مع الآیات الکریمة المنزلة فی وصفه»

علم التفسير، ص: ۱۳۲

دور السيد رشيد رضا في هذا التفسير

اشارة

السيد محمد رشيد رضا من قرية القلمون جنوب طرابلس لبنان .. و قد زرت بيته فيها، و أنا أزور ابن أخيه العالم الفاضل السيد عاصم رضا- عليه رحمة الله- في الستينات .. و قد درس على علماء بلده «طرابلس» حتى أكمل دراسته هناك، و اطلع على أحد أعداد مجلة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها محمد عبده مع جمال الدين من باريس، فتأثر بما كتبه الشيخ عبده فيها و اشتاق إلى لقائه، ثم حانت له الفرصة، فشد رحاله إلى مصر سنة ۱۳۱۵ ه ۱۸۹۷ م. ليلتقي فيها بالإمام ..

و عقب وصوله إلى مصر في رجب سنة ۱۳۱۵ ه اتصل فورا بالإمام .. و كان أول اقتراح له عليه أن يكتب تفسيرا للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجدنا روحها في مقالات (العروة الوثقى) ... فاعتذر بأن العمر لا يتسع لتفسير كامل، فاقترح عليه أن يقرأ درسا في التفسير. فكان يعتذر باستمرار عن الكتابة و عن الدروس .. و كان يصده عن الكتابة- كما ذكر- أن القارئ لا يستفيد كثيرا من الكتاب كما يستفيد السامع. و إذا وصل الكتاب لأيدي هؤلاء العلماء، و فيه غير ما يعلمون، لا يعقلون المراد منه، و إذا عقلوا منه شيئا، يردونه و لا يقبلونه، و إذا قبلوه حرفوه إلى ما يوافق علمهم و مشربهم.

و كان يعتذر عن الدروس بأنه- على عكس بعض الناس- تؤثر فيه حال المخاطب «و لذلك لا أتكلم بشيء عن حالة الاسلام، عند ما أجتمع بهؤلاء العلماء، لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية، و إذا كان هناك من يلقى بالا لما أقول يفتح الله على بكلام كثير.

و يقول السيد رشيد: و لم أزل به حتى أقنعته بقراءة التفسير في الأزهر، فاقتنع، و بدأ الدرس بعد ثلاثة أشهر و نصف- أي في غرة المحرم سنة ۱۳۱۷ ه مايو ۱۸۹۹ م، و انتهى منه في منتصف المحرم سنة ۱۳۲۳ ه مارس- ۱۹۰۵ م عند تفسير قوله تعالى «وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً» من الآية ۱۲۵ من سورة

علم التفسير، ص: ۱۳۳

النساء، فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنوات، إذ توفي لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها.

و كان يتوكأ على تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير، فيذكر عبارته، و يقرها أو ينتقدها، ثم يتكلم بما فتح الله به عليه، مما فيه هداية و عبرة.

و كان يختار هذا التفسير لإيجازه، و لأنه لا يدخل في مباحث لفظية أو غيرها، مما لا يجب أن يدخل الإمام فيه، أثناء تفسيره. و يقول السيد رشيد:

«و كنت أكتب أثناء الدرس مذكرات، أودعها ما أراه أهم ما قاله، و أحفظ ما أكتب لأبيضه، و أمده بكل ما أتذكره وقت الفراغ، ثم تلقى اقتراحا من قراء «النار» التي أصدرها فور وصوله، أن ينشر فيها هذا التفسير، فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ۱۳۱۸ ه ۱۹۰۰ م و ذلك في المجلد الثالث من المنار، و كنت أولا أطلع الاستاذ على ما أعده للطبع كلما تيسر لي ذلك، بعد جمع حروفه في المطبعة .. فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات.

على أنه لم يكن كله نقلا عن الاستاذ، و معزوا إليه، بل كان تفسيرا للكاتب من انشائه، اقتبس فيه من تلك الدروس جل ما استفاده منها .. و بعد أن توفاه الله صرت أرى أن من الأمانة ألا أعزو إليه إلا ما كتبته عنه أو حفظته ..

و أقول: قال ما معناه ..

و لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه، بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، و في تحقيق بعض المفردات و المسائل

الخلافية، و الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، و فى بعض الاستطرادات لتحقيق مسألة خاصة تشتد حاجة المسمين لتحقيقها، أو بعض المشكلات التى أعيا حلها، بما يطمئن به القلب» «١».

و لعلك ترى بعد هذا السرد الموجز، كيف كانت أهمية دور السيد رشيد فى بروز هذا التفسير، سواء فى الدروس أو بعد ذلك حين طبع .. أو فى السير فيه بعد وفاة الإمام إلى آخر سورة يوسف على نسق الإمام ..

---

(١) من مقدمة السيد رشيد تفسير المنار ج ١.

علم التفسير، ص: ١٣٤

[مقدمة الإمام لتفسيره]

اشارة

هذه المقدمة الموجودة فى أول التفسير، و إن كان السيد رشيد قد اقتبسها من دروس الإمام بفحواها، إلا أنها تعبر- بلا شك- عن روح الامام و اتجاهه، و نظرته لتفسيره، و التفاسير القديمة ..

و لذلك أحببت أن أضع أمامك منها- بقدر الإمكان- بعض الفقرات المهمة- و لو باختصار، باعتبارها معبرة عن رأيه ..

فمما يراه الإمام «أن التفسير الذى نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين، يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا و حياتهم الآخرة»

و التفسير له وجوه شتى:

أحدها: النظر فى أساليب الكتاب و معانيه، و ما اشتمل عليه من بلاغة، كما فعل الزمخشرى فى الكشاف.

ثانيها: الإعراب .. و قد توسع فيه أقوام.

ثالثها: تتبع القصص. و قد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ و الاسرائيليات من غير تمييز بين غث و سمين.

رابعها: غريب القرآن.

خامسها: الأحكام الشرعية من عبادات و معاملات و الاستنباط منها.

سادسها: الكلام فى أصول العقائد و مقارعة الزائغين.

سابعها: المواعظ و الرقائق.

ثامنها: ما يسمونه بالإشارة و قد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية. و من ذلك التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محى الدين بن عربى، و هو للقاشانى الباطنى الشهير، و فيه من النزعات ما يتبرأ دين الله و كتابه منه ..

و بعد أن يورد الإمام هذه الأنواع و الوجوه، يقول:

و قد عرفت أن الإكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد، يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهى.

علم التفسير، ص: ١٣٥

ثم يبين منهجه فيقول:

لهذا كان الذى نعنى به من التفسير، هو ما سبق ذكره، أى فهم الكتاب من حيث هو دين و هداية جامعة لبيان ما يصلح به أمر الناس فى دنياهم، و فى آخرتهم. و يتبع ذلك بلا ريب بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى، و تحقيق الإعراب عند الحاجة إلى ذلك،

و تبیین بعض قواعد الأصول مما لا یشغل القارئ عن المعانی ..

و یقول: إن الأحکام العملیة التی نسمیها فقها، هی أقل ما جاء فی القرآن. و فیه من التهذیب و دعوة الأرواح إلی ما فیه سعادتها، ما لا یستغنی عنه من یؤمن بالله و الیوم الآخر .. و ما هو أجدر بالدخول فی الفقه و الفهم الحقیقی. و لا یوجد إلا فی القرآن.

ثم یبین أن للتفسیر مراتب:

أدناها: أن یبین إجمالا ما یشرب القلب عظمة الله و یصرف المؤمن عن الشر.

و هذا متیسر لکل أحد.

و أعلاها: یتم بوسائل ..

أولها: فهم حقائق الألفاظ و استعمالاتها وقت نزول القرآن، دون التقید و الاکتفاء بقول فلان و فلان، فإن دلالات بعض الألفاظ قد تغیرت عما کانت علیه وقت التنزیل، مثل کلمة «تأویل» التی کان أصل دلالتها: العاقبة و المآل أی ما یؤول إلیه الأمر. و کثیرا ما یفسر المفسرون کلمات القرآن علی ضوء الاصطلاحات التی حصلت بعد القرون الثلاثة الأولی!!

ثانیها: الأسالیب.

ثالثها: علم أحوال البشر.

رابعها: العلم بوجه هدایة البشر کلهم بالقرآن .. فمن نشأ فی الاسلام و لم یعرف حال الناس قبله، یجهل تأثیر هدایته ..

خامسها: العلم بسیرة النبی و أصحابه ..

ثم یقول: فعلم من هذا أن التفسیر قسمان:

علم التفسیر، ص: ۱۳۶

۱- قسم جاف مبعد عن الله و کتابه، و هو ما یقصد به حل الألفاظ و الإعراب الخ .. فهذا لا یسمی تفسیرا، و إنما هو ضرب من التمرین فی الفنون، کالنحو و المعانی و غیرهما ..

۲- التفسیر الذی قلنا: إنه یجب علی الناس علی أنه فرض کفایة، و هو ذهاب المفسر إلی فهم المراد من القول، و حکمة التشریع فی العقائد و الأحکام، علی الوجه الذی یجذب الأرواح و یسوقها للعمل، و یتحقق به کون القرآن «هدی و رحمة»، ثم یقول الإمام: و هذا هو الفرض الأول الذی أرمی إلیه فی قراءة التفسیر ..

ثم تکلم عن التفاسیر الموجودة، و نقدها نقدا مرا، و تکلم عن نظرتنا للقرآن، و اتخاذه أحجبة، و حمایة من الجان لمن حمله، و إحداثنا الضوضاء حول قارئیه بصوت حسن لحسن الصوت، لا لفهم المعنی و الألفاظ کما هو معروف، و بهذا صرنا کما یقول- فی جاهلیة أشد من الجاهلیین و الضالین فی زمن النبی صلی الله علیه و سلم.

و إننا نعتقد أن المسلمین ما ضعفوا و زال ملکهم إلا بإعراضهم عن هدایة القرآن، و لن یعودوا إلی عزهم إلا بالرجوع إلی هدایته، و الاعتصام بحبله.

و بهذا انتهت المقدمة التی اقتبسها السید رشید رضا من کلام الإمام.

و علی هذا الأساس، و تحقیقا للهدف الذی یرمی إلیه الإمام من إصلاح، أقبل علی إلقاء دروسه فی التفسیر، فصار أول معلم من معالم التغییر و التحول، لا فی منهج التفسیر فحسب، و لکن فی حیاة الأمة نفسها ..

حینما تأثر بهدایته و طریقته و دعوته الکثیرون سنة بعد سنة، و صار صاحب مدرسة تجدیدیة فی الفکر الدینی عموما لا فی التفسیر وحده ..

و قد قیض الله له تلمیذه السید رشید رضا، و أتی به من لبنان أو من الشام کما کانت تسمی، لیقوم بهذا الدور العظیم، و یقیم صرح مدرسة الإمام التجدیدیة .. و یواصل رسالته و یمکنها بعد وفاته، بواسطة مجلة المنار، و مدرسة الدعوة و الإرشاد، و الخطب و

الدروس، و كانت مدرسة الإمام كشجرة

علم التفسير، ص: ۱۳۷

عظيمة، ذات ثمر حلو شهى، لا تثمر ثمرتها، و تؤتى أكلها، إلا بعد سنوات من غرسها ..

و لقد تعهدها السيد رشيد، حتى اتسع ظلها، و كثرت ثمارها .. فغيرت مجرى التفكير الدينى فى العالم الاسلامى، لا فى مصر وحدها .. و هى تضرب بجذورها الأصيلة لأفكار السيد جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق و الغرب الاسلامى .. حيث امتدت فروعها فظهر زعماء الاصلاح و التحرر فى المغرب العربى، و المشرق الاسلامى .. على المنهج الاصلاحى الذى اختطه جمال الدين و تلميذه محمد عبده ..

[فى الجزائر]

فكان الشيخ عبد الحميد بن باديس فى الجزائر الأب الروحى لحركة التحرير الجزائرية، معتمدا فى بث نهضته و دعوته على القرآن الكريم، و تفسيره على المنهج الذى ارتضاه محمد عبده فى مصر، فظل يلقى دروسه فى التفسير على مدى نحو خمس و عشرين سنة، حتى اختتم تفسير القرآن، و قام احتفال فى مدينة «قسنطينة» فى الثالث عشر من شهر ربيع الثانى ۱۳۵۷ ه- ۱۹۳۸ م .. كما يقول المرحوم زميله الشيخ محمد البشير الابراهيمى. و للأسف لم يلتقط أحد هذا التفسير و يدونه، و لكن الذى بقى من تفسير ابن باديس هو ما كان ينشره أحيانا هناك فى «مجلة الشهاب» و يسميها «مجالس التذكير»، و قد جمعت و نشرت فى كتاب بعنوان «تفسير ابن باديس» أو «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» جمع و ترتيب و إعداد و مراجعة و تعليق الاستاذين محمد الصالح رمضان الجزائرى، و الدكتور توفيق محمد شاهين المصرى الأزهرى، نشر دار الكتاب الجزائرى. فى مجلد يضم نحو ۵۰۰ صفحة ..

[فى الهند]

و قد تعجب إذا عرفت أن أثر هذه المدرسة امتد حتى وصل للهند و كان له أثره فى تحريك المسلمين، أو فى إشعالهم لطلب التحرر لبلادهم من الاستعمار الانجليزى ..

علم التفسير، ص: ۱۳۸

و لم يكن الأمر إلا شرارة مست قلب شاب تخرج فى المعاهد الهندية، ثم جاء إلى مصر يزورها، و يتعرف على الحركات الدينية و الوطنية بها- سنة ۱۳۲۶ ه- ۱۹۰۸ م بعد وفاة الإمام محمد عبده- و هو فى سن العشرين، و التقى بالسيد رشيد، و أعجب بمنهجه، و طريق دعوته، و بمدرسة الدعوة و الارشاد التى افتتحها، و لم يمكث بمصر طويلا، و لكن العلاقة توطدت بينه و بين السيد رشيد. و كانت المراسلات العلمية و الاسلامية الوطنية بينهما متواصلة.

[أبو الكلام أزاد]

اشارة

هذا الشاب هو مولانا أبو الكلام أزاد، الذى صار فيما بعد صاحب الإمامتين- كما كان يدعى فى الهند- إمامة فى الدين، و إمامة فى السياسة، حين قاد حركة التحرير فى أشد أوقاتها أثناء الحرب العالمية الثانية، و تولى المفاوضات مع الانجليز، باسم الهند و الحزب الوطنى، الذى كان يرأسه طوال مدة الحرب ..

و مع أن «أزاد» زار تركيا، و بلادا عربية أخرى، إلا أن الشرارة التى مست عقلة و قلبه كانت من مصر، من مدرسة الإمام الدينية. فعاد

للهند متأثرا بهذه المدرسة، حتى ألف جماعة هناك، على نسق جماعة أو مدرسة الدعوة و الإرشاد التى انشأها السيد رشيد، و قر عزمه على أن يتخذ من الاسلام و روحه، الوسيلة لإلهاب روح التحرر فى نفوس المسلمين، فأصدر مجلتين:

الهلال ثم البلاغ، لتقوما بهذه المهمة، و كان ينشر فيها تفسيرا للقرآن على النسق الذى تشيع به، بجوار مقالاته الأخرى .. و بدأ بالهلال فى ۱۲ يونيو ۱۹۱۲ م- ۱۳۳۰ ه ثم لما صودرت، أصدر «البلاغ» فصادرها الانجليز ..

يقول علامة الهند السيد سليمان النّدوى: «لا شك أن مجلتى الهلال و البلاغ لأبى الكلام أزاد، قد كونتا الذوق القرآنى لدى الشبان المسلمين، و فتحتا نوافذ جديدة أمام الجيل الجديد، و عرضتا الآيات القرآنية بأسلوب بلاغى، يتسم بالحكمة، و جودة الصناعة، مما أنار القلوب بنور الإيمان و اليقين، و كشفتا معانى القرآن و سمو قول الرحمن»

علم التفسير، ص: ۱۳۹

«اتجاهه لكتابة تفسير»

و حين لمس «أزاد» إقبال المسلمين على التفسير فى المجلة اتجه إلى كتابته و نشره فى كتاب، و كان عبارة عن ترجمة محكمة سهلة العبارة الأوردية، ثم تفسير بعض ما يحتاج لتفسير على الهامش .. بحيث تكون الترجمة حاوية على المعنى الذى يريد إيصاله للقراء دون توقف .. أما التفسير فعلى الهامش لمن أراد زيادة و توسعا ..

و قد تعطل هذا المشروع بسبب اعتقال السلطة الانجليزية لمولانا أزاد مرات و تبديدها لمسودات ترجمته و تفسيره، و بين تأرجح العمل بين القلة و الكثرة سار العمل شوطا كبيرا ..

و قد نشر من ترجمته و تفسيره إلى سورة النور .. و جاءت الفاتحة فى الطبعة الأخيرة فى مجلد خاص يضم أكثر من خمسمائة صفحة باللغة الأوربية.

[كيف كان منهجه]

كان منهجه و مشربه فى التفسير هو منهج الإمام محمد عبده، و تلميذه رشيد رضا، فى القصد رأسا إلى العبرة و الهداية المحركة للقلوب. حتى إنه اعتمد على القرآن كما قلنا فى إثارة المسلمين أكثر و أكثر لمحاربة المستعمر، و مقاطعته فى كل شيء، مما اعتنقه غاندى بعد ذلك، و سماه بما ترجمناه «حركة العصيان المدنى» حين انضم الهندوس للمسلمين فى حركة المقاطعة متأخرا ..

و قد كتب مقدمة لترجمته و تفسيره سماها «التفسير و المفسرون» اشتملت على نظرته للتفاسير السابقة، و كيف حجبت عن المسلمين هداية القرآن، بمباحثها اللفظية، و أخبارها الإسرائيلية، و مناقشاتها الفقهية و الكلامية و بالعلوم اليونانية .. و هى تماما مثل نظرة الإمام محمد عبده .. و تكلم عن التفسير بالمأثور، و التفسير بالرأى، و وضح المراد من «الرأى»، كما وضح هدفه من عمله.

و كتب هذه المقدمة و هو فى سجن «ميرت» شمال دهلى فى ۱۶ نوفمبر سنة ۱۹۳۰ م

علم التفسير، ص: ۱۴۰

و قد دعا لتأليف جماعة تسمى «جماعة القرآن»- على نسق «جماعة الانجيل»- لخدمة القرآن، طباعة، و تفسيرا، و ترجمة إلى اللغات المختلفة، لتنتشر دعوة الاسلام فى العالم، و لكن ذلك لم يتحقق .. حتى توفى فى فبراير سنة ۱۹۵۸ دون أن يتم التفسير الذى أراده ... و كان فى شوق شديد لإتمامه، لكنه لم يجد الفراغ الكافى ..

و له بحث قيم دقيق و محقق بالشواهد و الأدلة التاريخية و الأثرية حول ذى القرنين ذكره بمناسبة تفسيره لقصة ذى القرنين فى سورة الكهف .. يعتبر من أدق و أصح ما كتب حتى الآن عن شخصية ذى القرنين، و هو الامبراطور «غورش» أو «قورش» الايرانى مؤسس أول امبراطورية ايرانية، احتفل شاه إيران السابق بمرور ۲۵ قرنا على تأسيسها منذ عدة سنين ..

و من أراد المزید حول أزاد و تفسیره و آرائه فی التفاسیر القدیمة، و منهجه و إصلاحه الدینی بالقرآن، فلیرجع إلی ما کتبته مفصلا فی کتابی «مولانا أبو الکلام أزاد» المصلح الدینی و الزعیم السیاسی «۱» ..

و المهم من ذکر هذا کله أن نسجل هنا .. أن مدرسة الإمام فی التماس الهدایة من القرآن، و الاصلاح الدینی و الدنیوی علی أساسه قد امتد أثرها حتی وصل إلی الهند بفضل مولانا أبی الکلام أزاد، و لم یقتصر علی البلاد العربیة .. و علی أساس هذا قامت الحرکات التحرریة فی البلاد العربیة و الاسلامیة ..

[فیما بعد الإمام]

و قد سری أثره فی تلامذته الذین أعجبوا بآرائه، و کان أولهم تلمیذه الوفی المخلص السید محمد رشید رضا، الذی سجل کل ما یختص به من تاریخ، و من أقوال و آراء .. فأبقی الشیخ عبده حیا فی النفوس، مؤثرا علی مدی السنین.

و إذا کانت آراؤه الاصلاحیة الدینیة و منهجه قد وجد لهما معارضة فی حیاته، و قام علماء زمنه فی وجهه شأن ما یجری لکل مصلح، فقد مات هؤلاء

---

(۱) طبع فی جزءین الأول- المصلح الدینی، و الثانی الزعیم السیاسی، إصدار المجلس الأعلی للشئون الإسلامیة.

علم التفسیر، ص: ۱۴۱

جمیعا، و بقیت القاعدة: «البقاء للأصح» تعمل عملها حتی جاء الوقت الذی یفخر فیه العلماء بالانتساب لمدرسته .. و یشرفون بتردید آرائه .. و السیر علی منهجه المفید فی التفسیر ..

الشیخ محمد مصطفی المراغی شیخ الأزهر

اشارة

و لقد کان الشیخ الإمام المراغی شیخ الأزهر سابقا، أوفی العلماء فی اتباع منهجه فی هدایة الناس بالقرآن و تفسیره و إن لم یکن قد ترک تفسیرا منتظما للقرآن، فقد ظهر طابعه هذا، فیما تناوله من دروسه للملک السابق من تفسیر بعض آیات القرآن و سوره .. کتفسیر سورة لقمان، و الحجرات، و بعض آیات أخری، جمعت و طبعت فیما بعد.

و عاصر الإمام المراغی و جاء بعده علماء ساروا علی المنهج نفسه فی تفسیر القرآن تفسیرا یهدف إلی تربیة الروح، و إیقاظ القلب، و بعث الهمة فی النفوس عن طریق تعریفها بمعانی القرآن و أهدافه و مرامیه، دون الدخول فی تفاصیل ..

و کانوا فی الوقت نفسه یلبون حاجة ماسة فی نفوس المثقفین، لفهم القرآن، دون الدخول فی اصطلاحات و مباحث تصرفهم عن المعنی- فظهر تفسیر الشیخ أحمد مصطفی المراغی الاستاذ بکلیة دار العلوم، کما قام بعض العلماء الأجلاء بإلقاء محاضرات بالتناوب فی قاعة الشبان المسلمین، أو فی قاعة دار الحکمة فی تفسیر القرآن، و کان الحضور إلیها مفتوحا، کما اتجه بعض العلماء و الدارسین لکتابة تفسیر مختصر علی هامش المصحف، یقدم المعنی العام لقارئه .. و کان أفضل ما کتب فی ذلک «تیسیر التفسیر» للشیخ عبد الجلیل عیسی عضو مجمع البحوث علیه رحمة الله .. و أتبعه بکتابة تفسیر میسر مختصر، علی هامش المصحف أیضا سمی «بالمصحف المیسر» و قدم فیهما خدمة جلیلة أخری تیسر لقارئی القرآن- دون استعانة بقارئ آخر- قراءته فی الکلمات المرسومة بالرسم العثمانی، المخالف لما علیه الرسم حسب الإملاء الحدیثة الآن .. و وضع ذلک فی أسفل الصفحة، فمثلا «یا صالح» تکتب هکذا «یصلح»، فکتبها الشیخ

علم التفسير، ص: ۱۴۲

عبد الجليل أسفل الصفحة برقم خاص «يا صالح» و «الصلاة» بالرسم العثمانى كتبها «الصلاة» و «الصلحت» كتبها «الصالحات» و بذلك قدم خدمة كبرى لقارئى القرآن .. و جمع بين المحافظة على الرسم العثمانى، و تسهيل القراءة على قارئى القرآن ..

و مع هذا تفسير الاستاذ محمد فريد وجدى على هامش المصحف أيضا، و إن كان عليه بعض المؤاخذات، و تفسير «القوصى» للاستاذ أحمد نصار القوصى .. «و التفسير الواضح» للدكتور الشيخ محمود حجازى عليه رحمة الله، و فيه يذكر الآيات، ثم يتبعها بشرح مبسط سهل.

و تلا ذلك كله تفسير كتبه المرحوم الاستاذ «سيد قطب» و هو أوسع من هذه التفاسير، لكن لم يتعرض فيه لمباحث لفظية أو مجادلات تصرف عن سياق المعنى، و انصبابها فى نفس القارئ، و قد صاغه صياغة أدبية فنية، و حرص على إبراز المعانى بصورة مؤثرة، و أعانه على ذلك اسلوبه الفنى الشيق، مستعينا ببعض الأحاديث و أسباب النزول الصحيحة .. و قد أخرجته «دار الشروق» فى ستة مجلدات كبيرة بالقطع الكبير، و الطباعة الجيدة، و لقى هذا التفسير قبولا عند الجميع و سماه «فى ظلال القرآن»

و بجوار هذا «منتخب التفسير» الذى توفر على كتابته بعض العلماء، و على مراجعته و صياغته لجنة منهم مختصرة، كنت واحدا من أعضائها، تحت رعاية «وزارة الأوقاف» و كان الفضل فى البدء به «للاستاذ أحمد طعيمة» وزير الأوقاف سابقا و استمر المشروع بعده، حتى خرج فى مجلد واحد سمى «المنتخب فى تفسير القرآن، و قد روعى فى التفسير الاختصار المركز فى إيراد معنى الآية فى ضعف حجمها غالبا و بأسلوب سهل و آراء معتمدة، لا تثير جدلا و لا شكوكا، لأن الهدف منه، كان ترجمته للغات الأجنبية، و لكن مع الأسف لم يتحقق هذا الهدف برغم المحاولات التى بذلت حتى الآن .. علم التفسير ۱۴۲ الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر ..... ص : ۱۴۱

يخرج مجمع البحوث. «التفسير الوسيط» لعامة القراء، يقوم به صفوة من العلماء تحضيرا و صياغة، و هو ليس بالطويل كالتفاسير القديمة، و ليس بالمختصر كتفاسير الهامش، و لكنه بين بين ..

علم التفسير، ص: ۱۴۳

و يقدم غذاء طيبا للقارئ الذى يحرص على فهم القرآن فى سهولة و اختصار وقت .. و قد نسيت أن أذكر أن فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت بذل جهدا فى التفسير مشكورا، سواء كان فى المحاضرات التى أشرت إليها، أو فى ندوات أخرى، و قد خرج له كتاب فى تفسير ثلث القرآن تفسيرا موضوعيا سهلا، لم يتبع فيه طريقة الأقدمين، و لكنه ساق تفسيره فى خطة جديدة، و بأسلوبه الشيق، و هو مطبوع متداول أيضا ..

و هكذا نرى أن اتجاه العلماء الآن فى التفسير، قد استفاد و تأثر بمنحى الشيخ عبده فيه، و أصبح هو الاتجاه الغالب.

[طريقة تدريس التفسير]

و مع ذلك فإن الطريقة التى لا تزال متبعة فى تدريس التفسير بالأزهر و غيره هى الطريقة التقليدية القديمة، و الكتاب المقرر على الطلاب كتاب من هذه التفاسير القديمة، كالنسفى و الجلالين أو غيرهما .. و المدرس ملزم بملازمة الكتاب و تفهيمه للطلاب، و يتخرج الطالب عالما و هو متشبع بهذه الطريقة التقليدية، و بالأقوال و الروايات الواردة فى هذه التفاسير، مع ضعفها أو بطلانها .. دون أن يأخذوا وجبة روحية من القرآن و تفسيره ..

و كنت و أنا أدرّس التفسير بالأزهر و فى الخارج طوال المدة التى اشتغلت فيها بالتدريس، أعانى ضيقا فى الجمع بين دراسة الكتاب، و تفهيم الطلاب ما جاء فيه، من نحو، و قراءات، و آراء، و روايات، و هذا يأخذ جل الوقت أو كله، و بين الطريقة التى أنا مقتنع بها، و هى طريقة الشيخ عبده فى استخلاص العبرة و ربط الآيات بالحياة و مشكلاتها .. مما يتشوق إليه الطلاب .. و يخرجون منه بفائدة و

وجبة معنوية من القرآن ..

لكنى استطعت أن أخصص وقتا قصيرا للمباحث اللفظية، ثم أصرف كل الوقت للدراسة التى أراها مفيدة ..

و كنت أشبه الدراسة التقليدية بدراسة عالم الطبيعة لجسم الإنسان فى المعمل، مما يضطره لفك أجزائه، و التحدث عنها، جزءا هنا و جزءا هناك،

علم التفسير، ص: ۱۴۴

دون العناية بالنظر إلى الجسم كله، و ما فيه من تنسيق، جعله يؤدى مهمته فى الحياة .. و يظهر صنع الله المتقن .. و برغم حاجة المفسر إلى بعض الأبحاث اللغوية و التركيبية، فإنه من الخطأ و ضياع الهدف أن يصرف الجهد كله فى هذا.

. كما يحصل فى دراستنا للتفسير من كتبه المقررة و غير المقررة ..

[كتابى للتفسير]

و لكى أربّى طلابى على الطريقة التى أحبها، و كان ذلك فى أواخر الأربعينات- عملت على أن أكتب التفسير على ما أحب، و أنشره فى جريدة «منبر الشرق» لصاحبها و رئيس تحريرها المرحوم المجاهد الشيخ على الغاياتى، لكى يضم الطلاب لما يسمعونه فى الدرس، قراءة له فى كلام مكتوب، يمكنهم الاحتفاظ به ..

و بدأت ذلك فى سنة ۱۹۵۰، أسبوعيا و حكمنى المقرر على الطلاب، فبدأت من أول سورة الجاثية، و سرت فى هذا لمدة سنة، حتى منتصف سورة الأحقاف ثم سافرت للعمل فى الخارج .. و توقفت عن كتابة التفسير.

و لكنه كان دائما يشغل بالى و يؤرقنى، فعدت إليه بعد قرابة ثلاثين سنة، أنشره فى جريدة «السياسى» الأسبوعية، التى تصدر عن «دار التعاون» سنة ۱۹۷۹ و ما زال حتى الآن .. حيث توفر لدى الآن تفسير سور الجاثية، و الأحقاف، و محمد و الفتح، و الحجرات، ثم المجادلة، و الحشر، و الممتحنة، و الصف، و الجمعة، و المنافقون، و التغابن .. و الكتابة و النشر مستمران ..

و قد نشرت دار التعاون «تفسير سورة الجاثية» فى كتاب، و البقية تأتى إن شاء الله و بفضله .. و قد سبقت فى كتابتى للتفسير على هذا النسق، كل الذين كتبوا التفاسير المختصرة و المتوسطة فيما بعد.

[تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى و التفسيرات العلمية]

اشارة

و برغم الموجة الحديثة فى التفسير التى بعثها الشيخ محمد عبده، و برغم التأثر الشديد بها، فى أوساط العلماء و القراء بوجه عام، رأينا عالما فاضلا أستاذا فى «دار العلوم» يضع تفسيرا مطولا- جعل همه فيه بيان عجائب الكون مما أشار إليه الله فى كتابه الكريم، على أساس ما وصلت إليه العلوم الزراعية، و الطبية،

علم التفسير، ص: ۱۴۵

و الحساب، و الهندسة، و الفلك و علوم البحار و غيرها من العلوم .. فما تأتى مناسبة تتصل بالزراعة مثلا إلا تحدث فيها بما وصل إليه علم الزراعة و النبات الخ.

و ما تأتى مناسبة لذكر البحار، و ما فيها من أسماك و أحجار و لآلىء، إلا و تدرج إلى بحث البحار، و ملوحتها، و مساحاتها، و خواصها و الأسماك و أنواعها و خواصها .. الخ. حتى لنراه يستعين بالصور فى بيان أنواع الأسماك .. و هكذا فى بيان اللؤلؤ و المرجان و كيفية تكوينه.

و کان یعتقـد أن من الواجب علیه أن یبین فی هـذا التفسیر ما یحتاجه المسـلم من الأحکام و الأخلاق و عجائب الکون، فأثبت فیه من نظریات العلوم و حقائقها ما یشوق المسلمین إلی الوقوف علی الحقائق البینات فی الحیوانات و النبات و الانسان الخ.

و کان یتعجب من أن آیات الأحکام لا تعـدو فی القرآن (مائة و خمسـین آیة) کما یقول، و مع ذلک تقوم علی هذه الآیات، البحوث الفقهیة، التی شـغلت العلماء، و ألفوا فیها هذه الکتب الکثیرة، بینما فی القرآن من آیات العلوم ما یربو علی سـبعمائة آیة و خمسـین، و مع ذلک لا یعتنی علماء المسـلمین بالوصول إلی فقهها و دقائقها. حتی لیقول فی أسـلوب حماسـی یستنهض همم المسلمین لطریقته»: فما بالکم أیها الناس بسبعمائة آیـة فیها عجائب الدنیا کلها؟ هذا زمان العلوم، و هذا زمان ظهور نور الاسـلام، و هذا زمان رقیه یا لیت شعری لما ذا لا نعمل فی آیات العلوم الکونیة، ما فعله آباؤنا فی آیات المیراث»؟.

ثم یقول:

«و لکنی أقول: الحمـد لله الحمـد لله. إنک تقرأ فی هـذا التفسیر خلاصات من العلوم و دراسـتها، أفضل من دراسـة علم الفرائض، لأنه فرض کفایة، فأما هذه فإنها للازدیاد فی معرفة الله و هی فرض عین علی کل قادر، إن العلوم التی أدخلناها فی تفسیر القرآن، هی التی أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فی الاسلام، فهذا زمان الانقلاب، و ظهور الحقائق»

علم التفسیر، ص: ۱۴۶

و بهذه الصورة تجده متحمسا غایة التحمس لمنهجه، لأنه یؤدی للمسـلمین فرض عین علیه و علیهم، لترقی الأمة فی عقیدتها و معرفتها بربها، و فی حیاتها.

و لم یعتمـد فیما ذکره و أفاض فیه من أنواع العلوم إلا علی الحقائق و النظریات العلمیـة السائـدة یـذکرها، ثم فی النهایة یسـتخرج منها العبرة التی من أجلها ساق الله الآیة و هی الایمان بقدرة الله و عظمته فی تدبیره لخلقه ..

و قد شـرع فی هذا التفسـیر علی طلبته بدار العلوم أولا، ثم سار فیه حتی أتمه فی خمسة و عشرین جزءا کبارا، و طبع حال حیاته بمصر من ۱۳۴۱ ه إلی سنة ۱۳۵۱ ه ۱۹۲۲- ۱۹۳۲ م، و لم یلق الإقبال الـذی یسـتحقه، ربما لتغلغل منهج الشـیخ عبده فی النفوس، و قد ولد علیه رحمة الله ۱۲۸۷ ه- ۱۸۷۰ م و توفی ۱۳۵۸ ه- ۱۹۴۰ م .. مخلفا وراءه هـذا العمل العظیم الـذی قام به، مهما تختلف فیه الآراء من جهة فائدته فی التفسیر و بیان معانی القرآن ..

الفخر الرازی و الشیخ طنطاوی

و إننی أعتقد أن الهدف الذی دفع الفخر الرازی لکی یسـتعمل علوم عصره فی إظهار هدایة القرآن و بیان عظمة الله، هو الهدف الذی دفع الشـیخ طنطـاوی لتفسیره .. و الفرق بینهمـا، هو الفرق بین العلوم فی عصـر الرازی، و العلوم فی عصـر الشـیخ طنطاوی .. فما ذکره الشـیخ طنطـاوی من علوم، متقـدم کثیرا عمـا ذکره الفخر الرازی منهـا، کتقـدم العلوم الآن عن عصـر الرازی .. و لا شک أن الفائـدة و العبرة من معلومات العلوم الآن، أکثر و أغزر مما کانت فی عهد الرازی ..

و الذی أخذ علی الرازی فی توسعه فی ذکر العلوم، یؤخذ علی الشیخ طنطاوی .. و الذی یعجب بالرازی، یعجب أکثر بالشیخ طنطاوی ..

و قـد أخـذ علی الرازی من قبل أنه یشـتت الـذهن و القلب، و یبعـدهما عن هـدی القرآن، و العیش فی جوه، إلی مباحث علمیـة لا بدّ للانسان من الترکیز علیها عند قراءتها .. و هو ما یؤخذ علی الشـیخ طنطاوی أیضا، کما یؤخذ علی غیرهما من المفسـرین الذین اشتغلوا بالمباحث اللفظیة و الفقهیة و المجادلات

علم التفسیر، ص: ۱۴۷

الکلامیة .. هؤلاء شتتوا الذهن بشیء، و الآخرون شتتوه بشیء آخر ..

و كلاهما قرر المحدثون أنه إبعاد لقلب الانسان و شغل له عن الهداية بالقرآن ..

لكن مما لا شك فيه أن التشتيت بالعلوم التى تظهر دقيق صنع الله، يأتى فى النهاية بفائدة كبيرة فى تعميق الإيمان، لو صبر الانسان و جمع بين أول الموضوع و آخره .. و كل مفسر قد أدى خدمة لفهم القرآن على طريقته فى تقديم خدماته جزاهم الله خيرا ..

علم التفسير، ص: ۱۴۸

القرآن و العلم

اشارة

و لعل هذا يجرنا إلى بحث موضوع «القرآن و العلم»، و القرآن من الدعوات الأساسية التى دعا إليها و اعتمد عليها دعوته للعلم بشتى أنواعه.

و لذلك فنحن نتقبل فى أى تفسير بعض الحقائق العلمية، التى تبرز ما أشار إليه القرآن، و ما رمى إليه من ذكر الدلائل الكونية، و لكن الكثير منه فى التفسير يشتت الذهن فعلا، و ينقله إلى جو آخر. فالقليل منه نافع، و الكثير يشوش الذهن و يبعده عن جو القرآن و سياقه .. هذا إذا لم نشد الآيات، و نلو عناقها، لتقبل تفسيرا علميا فيه كثير من التفتت ان لم يكن التفتت نفسه ..

فيصبح غير مقبول نهائيا ...

و كلا التفسيرين، يمكن أن نقول عنهما: تفسيرا علميا، لكثرة ذكر العلوم و الاستدلال بها فيه ..

و أحب أن أذكر هنا و أؤكد أن هناك فرقا كبيرا، بين أن نستعين بالعلم، لتوضيح معنى آية أو جملة أو إظهار إعجاز القرآن، و بين أن تؤول الآية أو الجملة أو الكلمة تأويلا تعسفيا، لتكون مطابقة لما يقال من أنه علم ..

فمثلا قوله تعالى «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» حين يأتى المفسر و يقول إن العالمين جمع عالم، و تكون بمعنى العوالم المخلوقة من انسان و هو أشرفها و غيره، و يأخذ فى ذكر هذه العوالم الأخرى و ما فيها من أسرار، و تنظيم دقيق، كعالم الأرض و السماء، ثم عالم النبات و الحيوان و الحشرات. و الأسماك، و النجوم و الأفلاك الخ .. و يبين أن الله خلق هذه العوالم، و أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، لأنه ربها، و متولى أمرها، و راعيها و حافظ حياتها. لتؤدى دورها، ثم يمتد بحثه عن هذه العوالم الأخرى المشابهة لعالمنا كما بحث العالم المؤمن الاستاذ الغمراوى «۱» يكون قد خدم القرآن بهذا دون خروج على نصه»

---

(۱) كما جاء فى كتابه الذى جمع فيه بحوثه العلمية القرآنية «الاسلام فى عصر العلم» فى الفصل الأول من الكتاب الرابع «الأعجاز العلمى للقرآن» ص ۲۲۱.

علم التفسير، ص: ۱۴۹

أو قوله تعالى «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها» فيتحدث عن الثمرات و تنوعها و خاصيتها، و يبين على ضوء العلم سر قدرة الله فى خلق هذه الثمرات، و فى مختلف المناطق، و لكل منطقة ثمارها و الوانها الخ .. مقتصدا فى بيان ذلك، بحيث لا يفسر الآيات عنوة على معنى، أو يفسر تفسيرا مخلا .. بل إنه يلقى ضوءا فحسب على ما يشير الله إليه، ليزيدنا إيمانا ..

بهذا يكون العلم فعلا فى خدمة الإيمان و القرآن. و داعيا إليه.

و حين نذكر آيات خلق الانسان و تكون الجنين من «نطفة أمشاج» و نستعين بما وصل إليه العلم من مناظير و تشريح و تحليل، لبيان ما أشار الله إليه من عظيم قدرته فى خلق الإنسان- حين نفعل ذلك- لا نكون متعسفين فى استخدام العلم فى تفسير القرآن .. بل إننا نثاب على ذلك.

و لا يخشى على الحقيقة القرآنية من التغييرات فى النظريات العلمية، فإن النظرية العلمية مهما تتغير لا تخرج عن أنها تكشف جديدا فى التطور أو فى بيان قدرة الله، و إن كنا لا نشجع على بيان معانى القرآن و أسراره على ضوء نظريات لا تزال محل بحث. و مع ذلك .. فإنه لا يضر فى رأيى أن نبين معنى أو نذكر شيئا على أساس علمى ثم يظهر ضعفه، أو خلافه فيما بعد، لأن هذا الفهم لا يقدح فى القرآن، و لأن هذا الذى وصلنا إليه و قلناه، يمثل عقليتنا و علمنا نحن حين قلناه، و لا يمثل حقيقة القرآن، و فى تفسيرات القرآن التى بين أيدينا الآن نجد أقوالا من علماء أفاضل فى تفسير الآية نراها متهافتة، و مع ذلك لا نعيب إلا على قائلها و فهمه و لا نعيب القرآن ..

و مع أن هذه هى الطريقة التى يمكن أن نقف عندها و نستعملها دون انزعاج، فإن ما يثار أحيانا من تفسيرات علمية تافهة و متعسفة، تسيء للتفسيرات للجادة، و قد تروج و تشتهر بين الناس، و يكون ضررها أكثر من نفعها .. فى فهم القرآن، و لكن إلى حين .. و ذلك كالذى فسر آيات سورة الرحمن حين ظهور مراكب الفضاء و وصولها للقمر، و ذهابها إلى ما بعد الغلاف الجوى المحيط بالأرض.

علم التفسير، ص: ۱۵۰

فقد قفز هذا العالم- دون علم- لا بالقرآن، و لا بأوليات العلوم- و أنزل آية «يا معشر الجن و الإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات و الأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان» على مراكب الفضاء، و قال: إن الانسان نفذ من أقطار السموات و الأرض بسلطان العلم .. و ادعى أن القرآن تنبأ بهذا، ظانا أنه يخدم القرآن مع الأسف!! و كان ذلك خطأ فادحا يدل على عدم فهم سياق الآيات التى سيقت لبيان عجز الجن و الانس من أن يكون لهما أى خيار أو قدرة فى مصيرهما أمام الله و قدرته و مساءلته لهم عن أعمالهم ..

و كان خطأ يدل على عدم الفهم العلمى لأقطار السموات و الأرض ..

فراكب الفضاء لم يخرج عن هذه الأقطار حين ذهب للقمر، و المعروف أن القمر كوكب تابع للأرض أو للمجموعة الشمسية. فكيف يفهم علميا أنه خرج من أقطار السموات و الأرض و إلى أين غير أقطار السموات و الأرض؟

و لكن مع هذا الفهم الفادح فى خطئه، رأينا مثل هذه المقولة يختطفها الجاهلون بالقرآن، و بالفلك و علومه، و يتحدثون بها .. و هذا هو الذى نقف دونه و له بالمرصاد ..

«القرآن محاولة لفهم عصرى»

و مثل هذا الذى نعيبه، و نقف دونه، جاء منه أيضا فيما كتبه أخونا الفاضل الدكتور مصطفى محمود فى محاولة لفهم القرآن .. و لا أشك فى أنه أقدم على هذا الذى اعتبره و يعتبره العلماء جميعا خطأ غير مقبول، أنه مشوب بسوء نية، بل على العكس، أعتقد أن نيته كانت حسنة حين أخطأ، و خرج عن الحقيقة الإسلامية فى بعض الموضوعات. و لى كثير من الشواهد على أنه لم يكن يتعمد هذا الخطأ، بل كان مشوقا إلى أن يراجعه أحد العلماء، فيما كتبه حتى لا يحدث منه شيء من هذا، و فعل هذا فى بعض الموضوعات.

و أعتقد أن تعجله فى النشر أسبوعيا فى المجلة الأسبوعية التى كان يكتب بها فى هذا الموضوع، هو الذى حال بينه و بين لقائه بالمرجع الدينى الذى يراجع عليه،

علم التفسير، ص: ۱۵۱

كما كان يريد و نريد .. و لو أنه كان من الأفضل له و لنا أن يتأنى. ففى الكتاب الكثير مما يسرنا و نحمده عليه .. و فى نشاط الدكتور فى النواحى الدينية و تعميق الإيمان، ما يجعلنا نحييه على جهوده و فى روحه الدينية المتصوفة، و نظرته الآن للدين و الإيمان، ما يجعله قريبا جدا إلى نفوسنا، برغم أخطائه فى محاولته لفهم عصرى للقرآن- و لكل عالم هفوة، و لكل جواد كبوة .. و الله ينفع بخيره و جهده ..

لقيته مرة فى مراقبة البحوث بالمجمع، و قد جاء صارخا لما علم من صدور قرار بمصادرة كتابه هذا المطبوع فى بيروت، و وجدته

كتب مذكرة غلبت عليه فيها صوفيته، و اعتمد فيها على أن يقول: إن الله هو الرقيب لا أنتم الخ ..

فأخذته لمكتبى و هدأته، و وجهت له لوما على تسرعه بإبداء هذه الآراء ..

فقال لى: لم أجد من يسعفنى بالمراجعة، و جئت مرة لمشيخة الأزهر و صححوا لى بعض الموضوعات، فأخذت بها فورا، و جئت ثانية فلم يسعفنى أحد، هكذا قال، و العهدة عليه .. و لكنى لم أخله من العهدة، فقد كان بوسعه أن يتأنى، ما دام يطلب الحقيقة كما أفهم ..

و أنهيت الموضوع بتعهد أخذه على نفسه، بأن يدفع الكتاب لمراجعة عالم ثقة، أو لمراجعة الأزهر قبل طبعه بعد ذلك .. أما هذه الطبعة فهى فى بيروت و لا سلطان لنا هناك ..

و من هذه المحادثة فهمت حسن نيته، و صدق طويته، لا سيما و قد رغب فى تصحيح كل خطأ نشره .. فى الوقت الذى حمل فيه حملة شعواء على تفسيرات الباطنية و البهائية، و غيرهما من الفرق المنحرفة بالاسلام، لالتوائهم بألفاظ القرآن و تأويلها، حتى يوافق أهواءهم الضالة المخربة .. و كتب كتابة رائعة أظهر فيها جلال القرآن و جماله و فضله على البشرية.

و قد تحدث عن هذه المحاولة العالم الفاضل الشيخ مصطفى الحديدى الطير ..

عضو المجمع، و كتب عنه تقريرا قدمه للمجمع، أنصفه فيه، فذكر محاسنه، كما ذكر مساوئه ..

و من هذه المآخذ: قوله فى خلق آدم مما يخالف القرآن ..، و حديثه عن

علم التفسير، ص: ۱۵۲

آدم فى الجنة، و آدم فى الأرض، و رأيه فى نعيم الجنة، و فى الجحيم و العذاب، و فى معنى غض البصر، و فى الحد و توبة السارق ..

و أرجو أن يعيد الدكتور مصطفى طبع كتابه بعد تصحيح ما يحتاج لتصحيح منه .. حتى يكون خيرا كله ..

و غير الدكتور مصطفى محمود .. هناك بعض العلماء الذين اندفعوا وراء ما يشبه التصفيق الشعبى، فقدموا للناس أبحاثا عن القرآن و العلم، ينبهر لها بعض الذين لم يدرسوا القرآن و لا العلم، مع أنهم لم يسلموا من الزلل و الشطط ..

و كان لهذا كله رد فعله عند الراسخين، و الغيارى من العلماء، و كبار المثقفين، فأصبحوا ينفرون من أية دراسة عن القرآن و العلم .. و هكذا كان رد الفعل لهذا الانتشار غير الملتزم فى الحديث عن القرآن و العلم ..

و مع ذلك فهناك دراسات جادة مؤمنة من رجال و علماء ثابتين، غيارى على دينهم و على العلم، ملتزمين بنصوص القرآن، و لا يحملونها فوق طاقتها، بل يجلونها بما درسوه و عرفوه من حقائق علمية، و يقدمون للناس دراسة علمية دينية جادة، تفيدهم كثيرا فى استجلاء بعض الآيات الكونية فى القرآن ..

و أذكر للقارئ واحدة من هذه الدراسات، و هى التى قام بها و نشرها فى مقالات .. العالم الكيميائى الورع، المرحوم الاستاذ محمد أحمد الغمراوى، و أعدها للنشر صديقه العالم الاستاذ أحمد عبد السلام الكردانى، و نشرتها دار الانسان ..

و قد كان هدف المرحوم الاستاذ الغمراوى أن يكشف فى بحوثه التى استندت على الحقائق العلمية، معجزات القرآن العلمية، التى أشار إليها و قررها قبل إن تكتشف بعدة قرون .. و بذلك تتوالى المعجزات العلمية. و تظهر جديدة حينا بعد حين. كلما تقدم العلم، و لها أهميتها و أثرها فى إقناع العلماء جيلا بعد جيل، بأن القرآن من عند الله.

و يقرر الاستاذ الغمراوى كما يقرر الكثيرون أن الاسلام هو وحده- من بين الأديان- الذى احتضن العلم، و دعا إلى العب منه بشتى أنواعه، و تحاكم إلى العقل، و حث على النظر و التدبر فيما خلق الله فى كونه المنظور. و مما يفخر به

علم التفسير، ص: ۱۵۳

المسلمون أن قرآنهم بما أشار إليه أو ذكره من حقائق علمية .. تأتى حقائق العلم بعد ذلك بقرون فتؤكدها، و لا تجد تناقضا أبدا بين القرآن و بين الحقائق العلمية، كما تجده فى غيره من الكتب السماوية التى ناقضت- فى بعض ما جاء فيها- ما أثبته العلم، و استعصت على التأويل، كما نصت التوراة على عمر للأرض محدود، لا يتجاوز بضعة آلاف من السنين، فى حين أن العلم اليقينى يقرر عمرها

بالملايين، مما حمل بعض كتاب الغرب و قسيسيه على أن يظنوا أن الـدين عندهم قد خذ له الواقع، فلم يبق ما يستند إليه إلا المعانى الشعرية و القيم الأخلاقية.

علم التفسير، ص: ۱۵۴

التوراة و الإنجيل و القرآن و العلم

و لعل من المناسب و نحن نتحدث عن القرآن و العلم الحديث، و عما كتبه المسلمون فى هذه الناحية و قرروه من أنه لا يوجد تناقض بين مقرارات القرآن و مقرارات العلم، أقول: لعـل من المنـاسب أن نـذكر هنـا دراسـة قام بها عالم طبيب فرنسـى مشـهور هو «موريس بوكاى» عن العلم و الكتب المقدسة الثلاثة:

التوراة و الإنجيل و القرآن، و نشرت هذه الدراسة الدقيقة دار الكندى فى بيروت بعد أن ترجمها نخبة من الدعاة بالعنوان المذكور، ثم قامت دار المعارف المصرية بترجمة هذه الدراسة و نشرها تحت عنوان: دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة.

و الترجمة البيروتية فى ۲۱۷ صفحة و الترجمة المصرية فى ۲۸۸ صفحة من القطع نفسه ..

و الكاتب لم يكن قد أسلم بعد حتى يتهم بالتحيز للاسلام، و لكنه كان مسيحيا، حين أقدم على هذه الدراسة، يدين للتوراة و الإنجيل بالولاء، كمـا هو معروف عن المسـيحيين .. و لكن- و الحق يقـال- كان موضوعيا جـدا فى دراسـته، محايـدا بين الكتب الثلاثـة، شأن العالم الحقيقى، فخرج من نتيجـة دراسـته .. بإظهار الحقيقـة التى تنطق بصـدق القرآن، و أنه من عنـد الله حقا، و أنه لم يجد فيه رائحة تناقض مع مقررات العلم الحديث .. و إنما وجد فى غيره، و لذلک أسلم.

و يقول فى مقدّمته ص ۱۲ فى طبعة دار المعارف:

«هـذه التأملات حول الصـفة المقبولـة أو غير المقبولـة علميا، لمقولـة فى كتاب مقدس. تتطلب منا إيضاحا دقيقا، إذ علينا أن نؤكد أننا عنـد ما نتحـدث هنا عن حقائق العلم، فإننا نعنى بها كل ما قد ثبت منها بشـكل نهائى، و أن هذا الاعتبار يقضـى باسـتبعاد كل نظريات الشرح و التبرير التى قد تفيد فى عصر ما لشرح ظاهرة، و لكنها قد تلقى بعد ذلک تاركة مكانها لنظريات أخرى أكثر

علم التفسير، ص: ۱۵۵

ملاءمة للتطور العلمى، و إن ما أعنيه هنا .. هو تلک الأمور التى لا يمكن الرجوع عنها. و التى ثبتت بشـكل كاف، و يمكن اسـتخدامها دون خوف الوقوع فى مخاطرة الخطأ.

و بهذا حصن الكاتب العالم الفرنسى نفسه فى بحثه، و لم يترک ثغرة لأحد ينفذ منها لمهاجمته ..

ثم يقول الكاتب الباحث تعليقا على ما تقدم ..

«إننـا نجهـل مثلا التاريـخ التقريبى لظهور الانسان على الأرض، غير أنه قـد اكتشـفت آثار أعمال إنسانيـة ترجع دونما ريب إلى ما قبل عشـرة آلاف سـنة قبل ميلاد المسيح .. (قيل إن العلم اكتشف أبعد من هذا موغلا فى القدم) دون أن يكون هناک مكان للشک .. فلا يجوز إذن اعتبار النص التوراتى لسـفر التكوين كما لو كان صـحيحا، إذ لا يمكن علميا قبوله، إذ يـذكر السـلالات البشـرية و التواريخ التى تحدد بداية الإنسان (خلق آدم) بأنها ترجع إلى سبعة و ثلاثين قرنا- أى ثلاثة آلاف و سبعمائة سنة قبل المسيح لا عشرة آلاف) و لكنا نسـتطيع أن نكون واثقين بأننا لن نثبت أبـدا أن الإنسان ظهر على الأرض منـذ ۵۷۳۶ سـنة كما شاء التقويم العبرى سنة ۱۹۷۵. إن معطيات التوراة المتعلقة بالإنسان القديم- إذن- خاطئة و غير صحيحة» ..

و الاستاذ البـاحث يبنى حكمه بخطإ التوراة، على أساس علمى ثابت لا يمكن أن يتطرق إليه شک و هو فى هـذا جـد محتاط، فالعلم الحـديث و الحفريـات قـد تظهر لنـا- أو أظهرت فعلا- أن عمر الإنسان على الأرض يرجع إلى ملايين من السـنين بواسـطة العثور على جمجمـة للإنسـان فى كينيا، و بعـد تحليلها علميا ثبت ذلک .. فكون التوراة تحـدد عمر الإنسان بما حـددته به- فى سـفر التكوين- قد

ظهر خطأ ذلک و تناقضه مع معطیات العلم الیقینیة ..

و یقول فی المقدمة أیضا:

«لقد قمت أولا ـ بدراسة القرآن الکریم، و ذلک دون أی فکر مسبق، و بموضوعیة تامة، باحثا عن درجة التوافق بین نص القرآن و معطیات العلم

علم التفسیر، ص: ۱۵۶

الحدیث. و کنت أعرف قبل هذه الدراسة، و عن طریق الترجمات .. أن القرآن یذکر أنواعا کثیرة من الظواهر الطبیعیة، و لکن معرفتی کانت وجیزة، و بفضل الدراسة الواعیة للنص العربی استطعت أن أحقق قائمة أدرکت بعد الانتهاء منها .. أن القرآن لا یحتوی علی أیة مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فی العصر الحدیث.

و قد قمت بالتدقیق ذاته و بالفحص بموضوعیة تامة للعهد القدیم و الأناجیل.

أما بالنسبة للعهد القدیم .. فلم تکن هناک حاجة للذهاب إلی أبعد من الکتاب الأول- أی سفر التکوین- فقد وجدت مقولات لا یمکن التوفیق بینها و بین أکثر معطیات العلم الحدیث رسوخا فی عصرنا ..

و أما بالنسبة للأناجیل .. فما نکاد نفتح الصفحة الأولی، حتی نجد أنفسنا دفعة واحدة فی مواجهة مشکلة خطیرة، و نعنی بها شجرة أنساب المسیح، و ذلک أن نص إنجیل متی یناقض بشکل جلی إنجیل لوقا، و أن هذا الأخیر یقدم لنا صراحة أمرا لا یتفق مع المعارف الحدیثة الخاصة بقدم الإنسان علی الأرض و یتناقض معها.

ثم یتکلم بعد هذا عن أثر هذا التناقض علی الإیمان فیقول: لا یبدو لی أنها تستطیع أن تضعف الإیمان بالله .. و لا تقع المسئولیة فیها إلا علی البشر.

و لا ـ یستطیع أحد أن یقول کیف کانت النصوص الأصلیة؟ و ما نصیب الهوی و الخیال فی عملیة تحریرها؟ أو ما نصیب التحریف المقصود من قبل کتبة هذه النصوص؟، أو ما نصیب التعدیلات غیر الواعیة التی أدخلت علی الکتب المقدسة «۱»؟

إن ما یصدمنا حقا فی أیامنا هذه أن نری المتخصصین فی دراسة النصوص یتجاهلون ذلک التناقض و التعارض مع الحقائق العلمیة الثابتة، أو یکشفون عن بعض نقاط الضعف، لیحاولوا بعد ذلک التستر علیها مستعینین فی ذلک ببهلوانیات جدلیة.»

---

(۱) کل هذه التساؤلات و التناقضات تثبت تلاعب الناس بالنصوص الأصلیة و ما سماه القرآن بالتحریف»

علم التفسیر، ص: ۱۵۷

ثم یتعجب من القدرة الجدلیة و غیرها علی إخفاء هذه التناقضات علی کثیرین من المسیحیین الذی یجهلون حتی الآن العیوب الکبیرة لعدید من مقاطع العهد القدیم و الإنجیل، مما تکفل هو ببیانه فی الجزءین الأول و الثانی من الکتاب ..

ثم یقول: أما الجزء الثالث فسیجد فیه القارئ أمثلة توضیحیة لتطبیق العلم علی دراسة أحد الکتب المقدسة (یرید القرآن) و هو تطبیق لم یکن یتوقعه إنسان، کما سیجد القارئ فی ذلک بیانا لما قد جاء به العلم الحدیث الذی هو فی متناول کل ید، من أجل فهم أفضل و أکمل لبعض الآیات القرآنیة، التی ظلت حتی الآن مستغلقة، أو غیر مفهومة، و لا عجب فی هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدین و العلم توأمان متلازمان، فمنذ البدء کانت العنایة بالعلم جزءا لا یتجزأ من الواجبات التی أمر بها الاسلام، و أن تطبیق هذا هو الذی أدی إلی ذلک الازدهار العظیم للعلوم فی عصر الحضارة الاسلامیة، تلک التی اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة فی أوربا.

و إن التقدم الذی تم الیوم بفضل المعارف العلمیة فی شرح بعض ما لم یکن مفهوما، أو فی شرح بعض ما قد أسیء تفسیره حتی الآن من آیات القرآن لیشکل قمة المواجهة بین العلم و الکتب المقدسة».

و انتهى المؤلف الفرنسى من مقدمته الموجزة التى نقلت لک فقرات منها، و کأنى أقدم لک بها رائحة شواء لذيذ يسيل لعابک لتتوفر على قضاء وقت ممتع على مائدة هذا الرجل، و مع هذا الکتاب .. فما تغنى مقدمة و لا فقرات منها عن الحقائق الصريحة التى قدمها هذا العالم المسيحى عن الکتب المقدسة، و التى خرج منها بحقيقة عن القرآن يعتز بها کل مسلم، و يقدرها و يحترمها کل إنسان عاقل ..

و نصل بهذا الموضوع إلى نهايته مكتفين بما قدمناه منه لننتقل إلى موضوعات أخرى باقية لا بد من الإلمام بها ..

علم التفسير، ص: ۱۵۸

علوم القرآن أو أصول التفسير

اشارة

و من هذه الموضوعات التى أرى ضرورة عرضها هنا هو ما سمى بعلوم القرآن و أصول التفسير. و هو علم نشأ من اشتغال العلماء بتفسير القرآن، إذ لا يمكن الإقدام على التفسير إلا بعد الإلمام بموضوعاته، کالوحى، و نزول القرآن و متى و کيف نزل. و أول ما نزل و آخر ما نزل، و المکى و المدنى، و أسباب النزول.

و المحکم و المتشابه و نزول القرآن على سبعة أحرف، و العام و الخاص، و الناسخ و المنسوخ إلى غير ذلک مما يعد أساسا للتعرض لتفسير القرآن و لذلک سماه بعض العلماء المؤلفين «بأصول التفسير ..»

و قد وفاه المؤلفون من العلماء القدامى. حقه، و کتبوا فيه کتبا مطولة و مختصرة من قديم «کالبرهان» للزرکشى «و الاتقان» للسيوطى، کما کتب المحدثون لطلابهم فى الدراسات العليا کتبا مناسبة للدراسة ..

غير أن هذا العلم ظل قاصرا على العلماء و الدارسين فى قاعات الدرس، ليس لدى المثقفين عامة أى إلمام به .. مع ضرورة هذا لکل مسلم متعلم.

و من أجل ذلک عنيت بهذه الناحية، و عملت على صياغة هذه الموضوعات، و تقديمها لعامة المثقفين، و للدارسين أيضا بأسلوب سهل سلس. يجذب القارئ و يشده إليه، و يعطيه المعلومات الکافية فى موضوعه، و سميته أيضا «علوم القرآن» و صدرت طبعته الأولى فى سنة ۱۹۷۹ م- ۱۳۹۹ ه بمناسبة قدوم القرن الخامس عشر الهجرى، أصدرته دار الکتاب اللبنانى المصرى بالقاهرة، و أعيد طبعه مع تنقيحات و زيادات ..

[تجريد التفاسير القديمة]

و نظرا لأن حاجة العصر الآن، تقتضى السرعة و التخفيف على القارئ.

و تقديم وجبة دسمة له فى أصغر حجم ممکن، فقد تاقت نفوس القراء إلى اختصار الکتب المطولة، و تجريدها مما لا يحتاجون إليه، و مما علق به مما يسيء

علم التفسير، ص: ۱۵۹

تغذيتهم، و تجريد الأحاديث الصحيحة من العنعنات الکثيرة فى إسنادها و روايتها و الاکتفاء بمتن الحديث و الإشارة إلى موضعه ..

نظرا لهذا اتجهت عناية بعض العلماء إلى تحقيق هذا الغرض للقراء، و قاموا فعلا بتجريد بعض الکتب المطولة، إلا أن ذلک لا يزال فى دائرة ضيقة ..

و قد رأى مجمع البحوث بدلا من تجريد هذه الکتب أن يقدم «التفسير الوسيط» الذى أشرنا إليه من قبل.

كما عنى بموضوع الإسرائيليات و الروايات التى لا أصل لها لحماية قراء هذه الكتب المطولة من ضررها .. و ذلك بمراجعة هذه الكتب، و تقييد ما يمكن حذفه منها و حماية العقول من غثها ..

و كان أمامه لذلك طريقان:

الأول. وضع كتب مستقلة عن التفاسير تبين هذه الاسرائيليات و الروايات التى لا أصل لها .. كما فعل المرحوم الشهيد الدكتور الشيخ الذهبى فى كتابه «الاسرائيليات فى القرآن» و كما فعل الدكتور الشيخ محمد أبو شهبه فى كتابه عن الاسرائيليات، و لو أنهما لم يستوعبا كل الاسرائيليات فى تفسير سور القرآن ..

و قد اختارت لجنة الدراسات القرآنية هذا الطريق، و رأت أن تستحث العلماء للمشاركة فى هذا المشروع العظيم، كما اتصلت بالمسئولين فى كلية أصول الدين و قسم التفسير بها ليوجهوا طلاب الدراسات العليا للاهتمام بهذه الناحية فى رسالاتهم للماجستير و الدكتوراة .. لنخرج فى نهاية الأمر بما يمكن أن يكون حصرا و تجنيبا لما لا نريده فى كتب التفسير و التنبيه إليه ..

الطريق الثانى: أن يدون هذا على هامش التفسير، حين إعادة طبعه، حتى يكون أمام القارئ و هو يقرأ، حتى لا يكون فى حاجة للرجوع إلى كتاب آخر قد لا يسعفه .. و يصدر حظر على إعادة طبع هذه الكتب بدون هذا التصحيح ..

و كان رأيى

أن تجرد هذه الكتب من كل هذا الغذاء الفكرى السام، و يعاد طبعها بدونه، حتى لا يتسرب للأفكار شىء من هذه السموم، و الوقاية بهذا و إبعاد

علم التفسير، ص: ۱۶۰

المواد السامة و الحارقة، خير من وجودها و تحذير الناس منها .. و قد لا يتنبهون، و قد لا يحذرون، فالوقاية خير من العلاج ..

أما هذه الكتب بطبعاتها الموجودة الآن، فتظل فى المكتبات العامة للخواص الدارسين، و لن يحتاجوا إليها، إلا إذا أرادوا الاطلاع على هذه المواد الفاسدة المفسدة ..

و لا يصح أبدا التأثر بكلمة: التراث .. التراث .. و ضرورة الإبقاء عليه، فإننا فى غنى عن هذا الذى ورثناه فى الكتب من مواد فكرية سامة، و لا يصح أبدا أن تسمى تراثا نتعلق به و نحافظ عليه .. بل الأولى بنا أن نتخلص منه، و نحمى أجيالنا من التأثر به، أو من التلوث منه. كما نحمى الانسان من آثار التلوث بأشكاله و أنواعه ..

كان هذا رأيى، و إن كان الرأى الأخير دائما للأغلبية .. و للزمن حكمه الأخير ..

علم التفسير، ص: ۱۶۱

ترجمة القرآن أو تفسيره باللغات غير العربية

اشارة

حين نقول: ترجمة القرآن، فإننا نعنى ترجمة معانيه، و ذكر المعنى الذى تدل عليه ألفاظه العربية بلغة غير عربية، و لذلك قلنا أو تفسيره بلغة أجنبية، لأن الذى سيترجم هو المعنى، إذ الترجمة اللفظية من أية لغة إلى لغة أخرى غير ممكنة فى الكتب العادية، فما بالك بالقرآن الصورة العليا فى البلاغة؟ ..

و نحن العرب قد لا نشعر بضرورة هذه الترجمة لأننا نقرأ القرآن و نقرأ تفسيره بلغة عربية ..

أما غير العرب فيحسون الحاجة الشديدة إلى هذه الترجمة ليفهموا القرآن، و يعتبروا به، و يحيطوا علما بما قدمه من معارف شتى فى

الأمور الدنيوية و الأخروية، و العلمية الخ ..

لأنهم حتى إن طوعوا ألسنتهم لقراءته بالعربية، فهم كالشريط، ينطقون به، و لا يعرفون أى معنى لما ينطقون، لذلك كان من الواجب إسلاميا إيصال معانيه إليهم باللغة التى يفهمونها، إذ لا يمكن إجبار كل مسلم و لو كان فى الحقول و الأودية، و الكفور و البادية، أن يتعلم العربية، و يترك لغته أو يحتفظ بها ..

و قد دخل الاسلام بلادا غير عربية كثيرة فى إفريقيا و آسيا و أوربا قديما، و مع ذلك لم يمكن تحويل كل الذين دخلوا فى الاسلام من لغتهم الأصلية إلى اللغة، العربية لتكون لغة التخاطب و القراءة و الكتابة .. و ظلوا أو ظلت الكثرة الساحقة منهم على لغتهم، لا يعرفون العربية نطقا و لا فهما، و هؤلاء فى شديد الحاجة لكى يعرفوا دينهم و قرآنهم عن طريق لغتهم.

كيف يتم ذلك دون أن نترجم القرآن إلى لغتهم و كذلك كل ما يتصل بفهمهم لدينهم؟

و لقد لمست هذا على أرضية الواقع أيضا، حين كنت مدرسا للعربية فى إحدى الجامعات الدينية فى الهند لأكثر من سنتين، و زرت كثيرا من معاهدها

علم التفسير، ص: ۱۶۲

و جامعاتها الدينية. و وجدت علماء يعرفون العربية قراءة و فهما من أمهات الكتب العربية، و لكنهم حين يشرحون لطلابهم أو لسامعيهم من عامة المسلمين لا يستطيعون نطق جملة كاملة باللغة العربية قبل أن يقضوا وقتا فى صياغتها صياغة ركيكة.، فكانت الضرورة تقضى بأن يشرحوا لهم بلغتهم و يذكرون لهم معانى القرآن مترجمة بلغتهم ..

و الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه- و أصله فارسى- كان أكثر الأئمة لمسا لهذه الحقيقة أو قربا منها، و لذلك وجدناه يلبى هذه الحاجة، حينما رأى أن للمصلى أن يقرأ معنى الفاتحة باللغة الفارسية حين يعجز عن قراءتها بالعربية، بينما الأئمة الآخرون لم يلمسوا مثله هذه الحالة فمنعوا أن يصلى بغير العربية مهما يكن الأمر ..

و نحن العرب لا نحس الحاجة إلى الترجمة كما يحسها غير العرب .. لذلك تأخرنا كثيرا جدا فى النظر إلى الترجمة، حتى إذا أثارها الإمام الشيخ المراغى عليه رحمة الله و دعا إلى ضرورتها ثار عليه كثير من العلماء و المفكرين، و كانت معركة فكرية حامية، امتدت مرة إلى معركة بالكراسى فى قاعة الشبان المسلمين من أنصار المراغى ضد أحد معارضيه و شاهدت هذه المعركة و أنا طالب فى الكلية فى أواخر الثلاثينات .. حتى وجدنا أحد أعضاء المحكمة الشرعية العليا يصدر كتابا يجعل عنوانه «حدث الأحداث فى الاسلام الاقدام على ترجمة القرآن» و طبعا كان الرد على المنكرين باستمرار مما شغل الرأى العام و الدولة فى أيامها ..

و كان الجدل دائرا حول الممكن و هو ترجمة المعانى، لا ترجمة الألفاظ التى لا يختلف أحد على عدم إمكانها، لا فى القرآن و لا فى غيره ..

فى الهند

حدث هذا عندنا فى النصف الأول للقرن العشرين، بينما نجد أن هذه الترجمة قد استقر على الحكم بجوازها، بل بضرورتها جميع علماء الهند من قرون مضت ..

ترجم أولا للغة الفارسية، و قام بالترجمة حجة الإسلام هناك شاه ولى الله الدهلوى رأس مدرسة الحديث و المتوفى سنة ۱۱۷۶ ه- ۱۷۶۲ م .. و هو

علم التفسير، ص: ۱۶۳

صاحب كتاب «حجة الله البالغة» الذى يعرفه العلماء هنا و يعتمدون عليه ..

ثم قام ابنه و وارث علمه و طريقته، العالم المحقق، مولانا عبد القادر الدهلوى المتوفى سنة ۱۲۳۰ ه- ۱۸۱۴ م بترجمته إلى اللغة

الأورديـة- اللغـة الحديثة فى الهند لدى المسـلمين، و اعتبروا ذلك أنه «كان من أعظم ما من الله به سـبحانه عليه». و كانت أول ترجمة للأوردية ..

ثم تتابعت الترجمات بعـد ذلك إلى لغات الهنـد المتعـددة، كل عالم كبير يجعل من فخره و قرباته عند الله، أن يقوم بترجمة إلى لغته. ليستطيع المسلمون فى المنطقة تذوق معنى القرآن ..

حتى جاء مولانا محمود الحسن شيـخ الهند، و كبير العلماء المجاهدين، «و أسير مالطا» كما يلقبونه أيضا أثناء الحرب العالمية الأولى .. و المتوفى سنة ۱۳۳۹ ه- ۱۹۲۰ م، حيث عكف فى معتقله فى «مالطا، على كتابـة ترجمة سـهلة باللغة الأوردية، بعد أن صارت الترجمة الأولى معقدة، بلغة أوردية قديمة، و قد تطورت بعدها اللغة تطورا كبيرا، و أتم ترجمته فى معتقله كأعظم عمل يتقرب به إلى الله ..

و طبع الترجمة هناك غالبا أن يكتبوا تحت كل سطر من القرآن، ترجمته بالأوردية، فيستطيع القارئ سريعا الإلمام بمعنى ما يقرؤه ..

ثم جاء مولانا أزاد، و كان ذا لغة أوردية فصيحة قشيبة، و على طريقته فى التفسير التى أشرنا إليها من قبل، قام بترجمة القرآن ترجمة سهلـة بليغـة، متقربـا بها إلى الله .. و ذلك فيما سـماه «ترجمان القرآن» و عنـد طبعه كتب القرآن بترقيم الآيات أعلى الصـفحة، و كتب ترجمة بالترقيم تحت ذلك ..

و كذلك كانت الترجمة فى بلاد اسلامية، متعددة لها ظروف المسلمين فى الهند. كأمر و واجب دينى يقوم به العلماء الكبار .. و معنى ذلك و مؤداه أن ما كنا نتجادل و نتعارك فيه هنا، حول ترجمة القرآن، كانت أمم اسلامية قد فرغت منه قبلنا بقرون و اعتبرته ضرورة أو بديهة .. و عاشت و تعيش عليه فى فهمها للقرآن ..

علم التفسير، ص: ۱۶۴

و من أجل هـذا برز فى الهنـد و باكسـتان مترجمون كثيرون مقتـدرون، ترجموا القرآن إلى لغاتهم و إلى اللغة الانجليزية أيضا، و كان منها أحسن الترجمات التى يمكن الأخذ بها.

و أشـهر هـذه الترجمات فى الوسط العربى ترجمـة مولانا عبد الله يوسف على، التى طبعتها- مرارا- السـعودية و ليبيا. و كذلك ترجمة «مارمـادوك بكتـال» التى طبعتهـا دار الكتـاب اللبنانى المصـرى بالقاهرة بإذن من الأزهر .. على ورق خفيف ممتاز، و لـذلك جاء فى حجم المصحف العادى، و نظامه أن تكتب الآيات فى الصفحة اليمنى، و الترجمة فى الصفحة اليسرى.

و كذلك قامت بطبع ترجمة فرنسية معتمدة من بعض كبار العلماء فى تونس و لبنان و من دار الإفتاء فى لبنان ..

فى أوربا و أمريكا

أمـا فى الغرب فلم ينتظر أحـد هنـاك رأيـا إسـلاميا فى جواز الترجمـة، و لـذلك ترجم هنـاك بلغات متعـددة من قرون سابقـة، و قام بترجمته بعض المستشرقين.

منذ بدأ الاستشـراق، و أحسوا حاجة لمعرفة القرآن، و قد انتشـرت هذه الترجمات هناك دون حسـيب أو رقيب عليها .. و قدمت لقراء الانجليزية و الفرنسـية و الألمانية و غيرها من اللغات ترجمة للقرآن، كان من الطبيعى أن يعتمدوا عليها فى فهم القرآن و الاسـلام .. مع ما بها من اخطاء ..

و لو أن المسـلمين من قـديم تفتحت عقولهم و اتجهت هممهم للترجمـة للغات الأجنبيـة فى الغرب أو الشـرق كوسـيلة فعالـة قويـة فى التعريف بالاسـلام، و الـدعوة إليه .. لما ظهرت هـذه الترجمات الكثيرة التى قام بها علماء غير مسـلمين، لا يتـذوقون معنى القرآن، و لا يحرصون عليه ..

إن ما يدعو إلى العجب و الأسـى الشديد معا، ألا يقوم عربى مسـلم على مدى هذه القرون بترجمة صـحيحة للقرآن، يأتمنها المسلمون العرب على دينهم و كتـابهم. و إن كـانت هناك محاولات لـذلك. و لكنها حتى الآن لم تظهر، و منها محاولـة قام بها أخونا الـدكتور

عبد المنعم الجمال. و لا تزال هذه الترجمة حبيسة مكتبته، برغم محاولاته فى إخراجها لحيز الوجود ..

علم التفسير، ص: ۱۶۵

و إذا كانت الحاجة- كما يقولون- أم الاختراع، فقد كانت حاجة المسلمين فى البلاد غير العربية، هى التى دفعت العلماء للتفكير فيها، و القيام بها، كواجب دينى أساسى ..

على عكس الحال عندنا، فقد عشنا فى البلاد العربية، لا نحس هذه الحاجة، و لذلك حين ظهرت الدعوة إلى الترجمة قام علماء يعارضونها باسم الدين!! و ذلك من نحو أربعين سنة ..

و لا أستطيع الآن و لا قبل الآن، أن أصل إلى أعماق قلوب المعارضين و نياتهم. و كان منهم كبار العلماء، و لكن الذى طرحته وقتها- على صغر سنى- و لا ازال أطرحه .. هو غفلة هؤلاء- و لا أقول سوء نيتهم و رغبتهم فى معارضة الشيخ المراغى صاحب المشروع- غفلتهم- عن واجبنا فى الدعوة إلى الاسلام، و تعريف غيرنا ما جاء به القرآن كوثيقة إلهية يمكن أن نعتمد عليها، و يعتمدوا عليها كذلك فى فهم الإسلام.

كيف كانوا يتصورون الطريقة المثلى لإبلاغ دعوة الاسلام إلى غير المسلمين؟

قد يقال: بواسطة كتب تشرح هذه الدعوة.

لكن مما لا شك فيه أن تقديم ترجمة للقرآن- و هو الوثيقة الالهية- تعتبر أبلغ و أقوى وسيلة مباشرة للدعوة للاسلام، و بيان أهدافه و مراميه، عن طريق كلام الله لا عن طريق كلام من البشر ..

و لعل مما يثير العجب و الدهشة و الحيرة أكثر و أكثر أننا حتى الآن- و فى المقدمة الأزهر- لم نعن بطبع ترجمة نعتمدها، و نقدمها للناس شرقا و غربا ليعرفوا عن طريقها الاسلام.

و حين يأتى زوار لنا من مسلمين لا يعرفون العربية أو غير مسلمين، و يطلبون منا ترجمة للقرآن، لا نستطيع أن نلبى طلبهم، و نقف عاجزين، و الخجل يستولى علينا .. مع أننا ننفق الكثير و الكثير فى طبع كتب عربية، هناك فى المكتبة العربية ما يسد مسدها ..

علم التفسير، ص: ۱۶۶

مشروعى فى الأوقاف

و لذلك عند ما أسندت إلى وزارة الأوقاف فى فبراير سنة ۱۹۷۹، اتجهت عنايتى لسد هذا النقص، و ساعدنى على هذا الكثيرون من الوزراء و مديرى البنوك و الشركات، و استجابوا لما طلبته منهم من تبرع، حتى تجمع لدى نحو ربع مليون جنيه. لهذا المشروع ..

و فاتحت فيه الرئيس السادات عليه رحمة الله، و الرئيس الحالى- حين كان نائبا للرئيس- فشجعا المشروع، و سرت فيه، و جهزت الترجمة التى سنطبعها و هى الترجمة التى طبعتها السعودية و ليبيا- ترجمة عبد الله يوسف على- و بدأت فى عمل مناقصة لطبعها، بين الدور التى تستطيع القيام بالطباعة، و وضعت شروطها، و تمت أول جلسة، لكن لم يكتمل فيها حضور الذين تقدموا و أظهروا رغبتهم فى الاشتراك، فأجلناها لجلسة قادمة ..

و كنت أنوى طبع كميات كبيرة منه، تتيح لى بجوار توزيعه هوايا على نطاق واسع أن أضع فى كل حجرة من حجرات الفنادق الكبرى، التى ينزل فيها الأجانب، نسخة من الترجمة- و أظهرت وزارة السياحة الاستعداد فى الاشتراك فى ۴۰ ألف نسخة للفنادق، و بعد اتمام طبع الترجمة الانجليزية، أشرع فى طبع الترجمة الفرنسية.

و لكن قبل أن يحين موعد الجلسة القادمة لدور الطبع خرجت من الوزارة فى ۱۵ مايو ۱۹۸۰ و نام المشروع حتى الآن أواخر ۱۹۸۴ أوكاد، و أرجو أن يبعثه اللّه على يد من يخصه بالخير من عباده .. لتؤدى مصر جانبا مهما من رسالتها نحو الإسلام، و هى السباقة دائما فى هذا الميدان ..

و الله الموفق

و صلى الله و سلم على سيدنا صاحب الرسالة و على آله و أصحابه و من سار على هداه

علم التفسير، ص: ۱۶۷

فهرس الكتاب

علم التفسير، ص: ۱۶۸

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع " القائميّة "الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله " الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز " القائميّة "للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمع من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلى التَّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثیۀِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکۀ و... الأماکن الدینیّۀ، السیاحیّۀ و...

د) إبداع الموقع الانترنتی" القائمیّۀ "www.Ghaemiyeh.com و عدّۀ مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتـَجات العرضیّۀ، الخـَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّۀ

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابۀ الأسئلۀ الشرعیّۀ، الاخلاقیّۀ و الاعتقادیّۀ (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرۀ SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّۀ و اعتباریّۀ، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّۀ، الجوامع، الأماکن الدینیّۀ کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامۀ المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع" ما قبلَ المدرسۀ "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسۀ

ی) إقامۀ دورات تعلیمیّۀ عمومیّۀ و دورات تربیۀ المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلۀ السَّنـَۀ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایۀ"القائمیّۀ"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّۀ الشمسیّۀ (=۱۴۲۷ الهجریۀ القمریّۀ)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّۀ الوطنیّۀ: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التـِّجاریّۀ و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظۀ هامّۀ:

المیزانیّۀ الحالیّۀ لهذا المرکز، شـَعبیّۀ، تبرّعیّۀ، غیر حکومیّۀ، و غیر ربحیّۀ، اقتـُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنـّها لا تـُوافِی الحجمَ المتزاید و المتـّسِعَ للامور الدّینیّۀ و العلمیّۀ الحالیّۀ و مشاریع التوسعۀ الثـّقافیّۀ؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّۀ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحۀ بقیّۀ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفـِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.